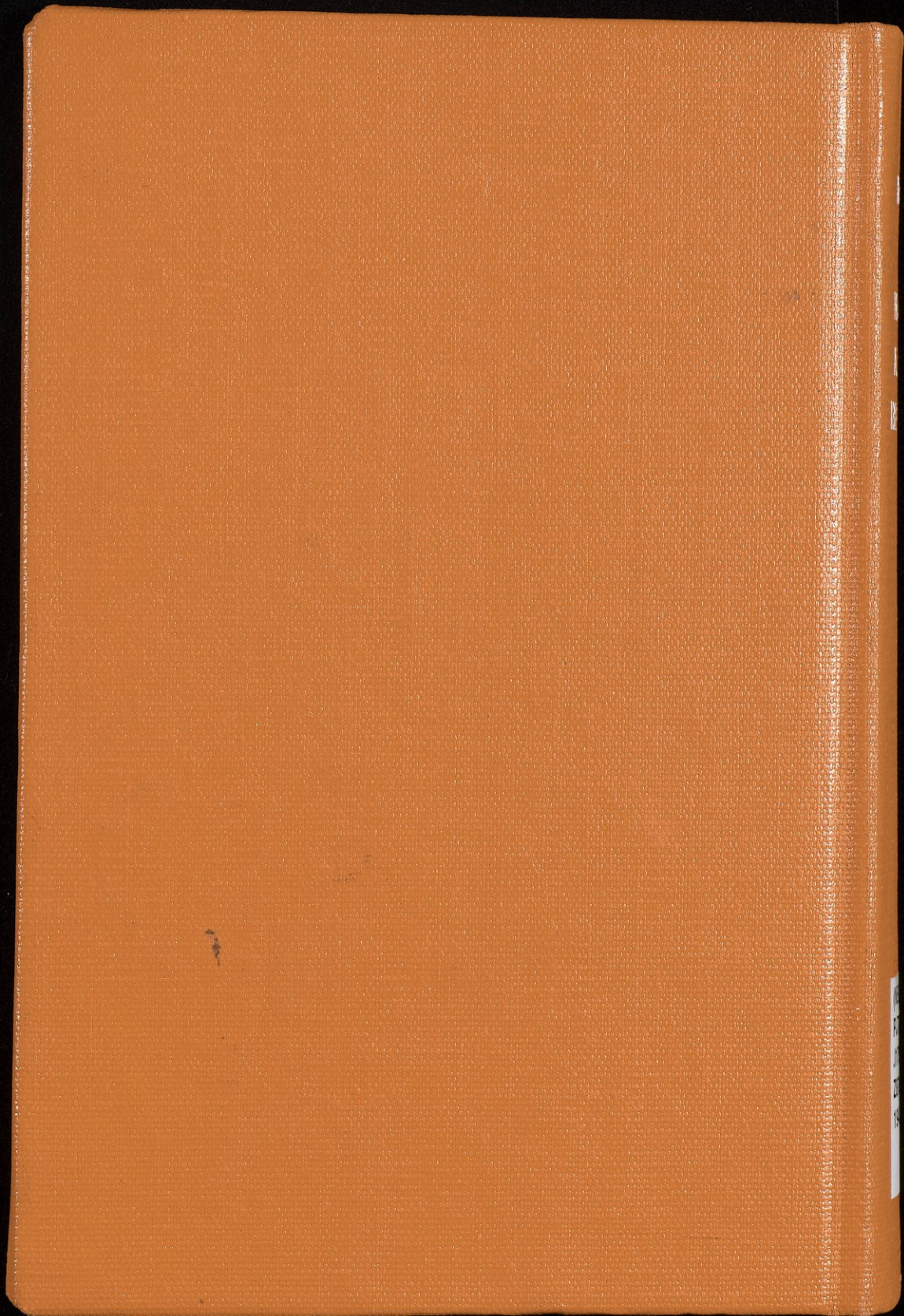




DATE DUE

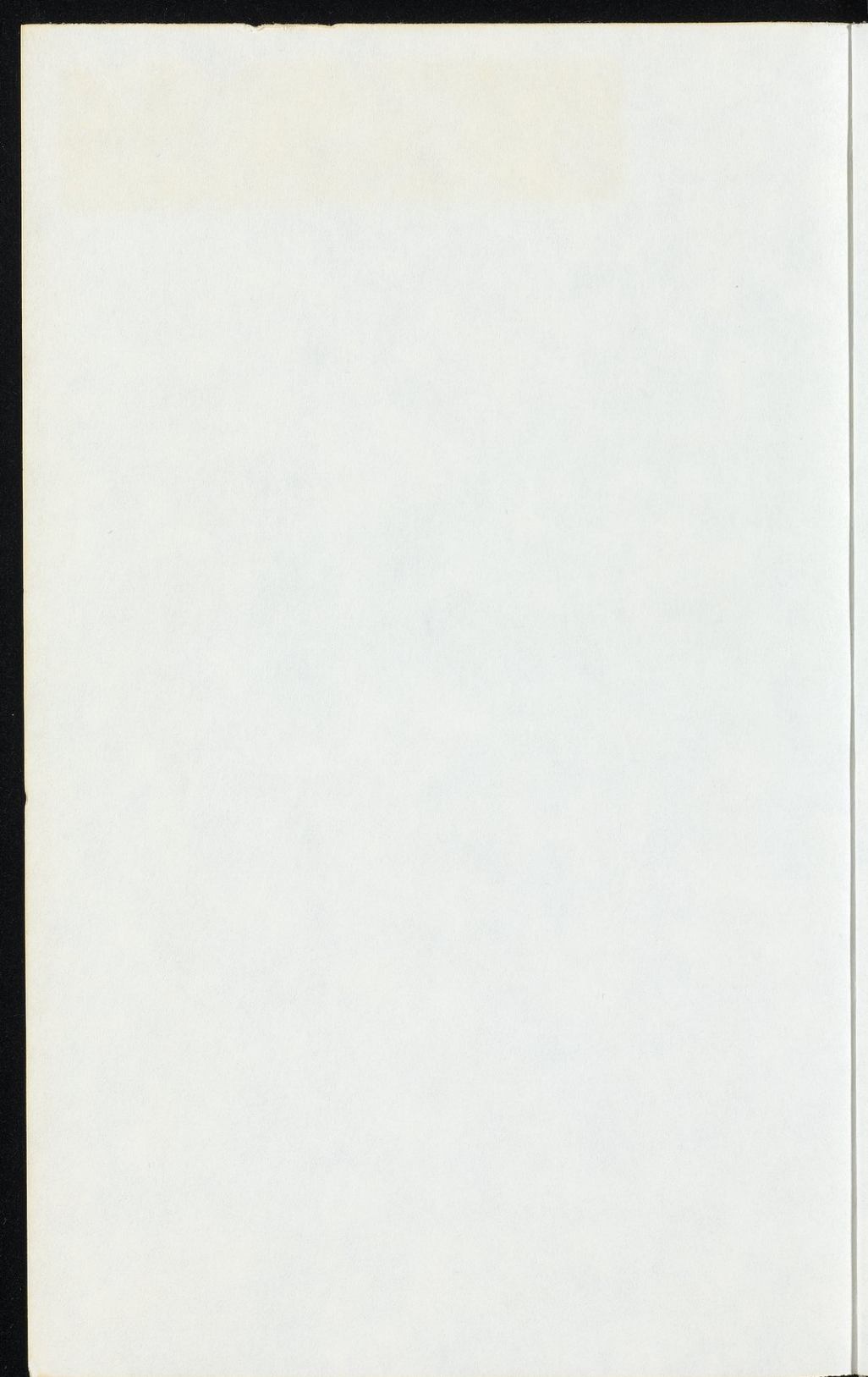


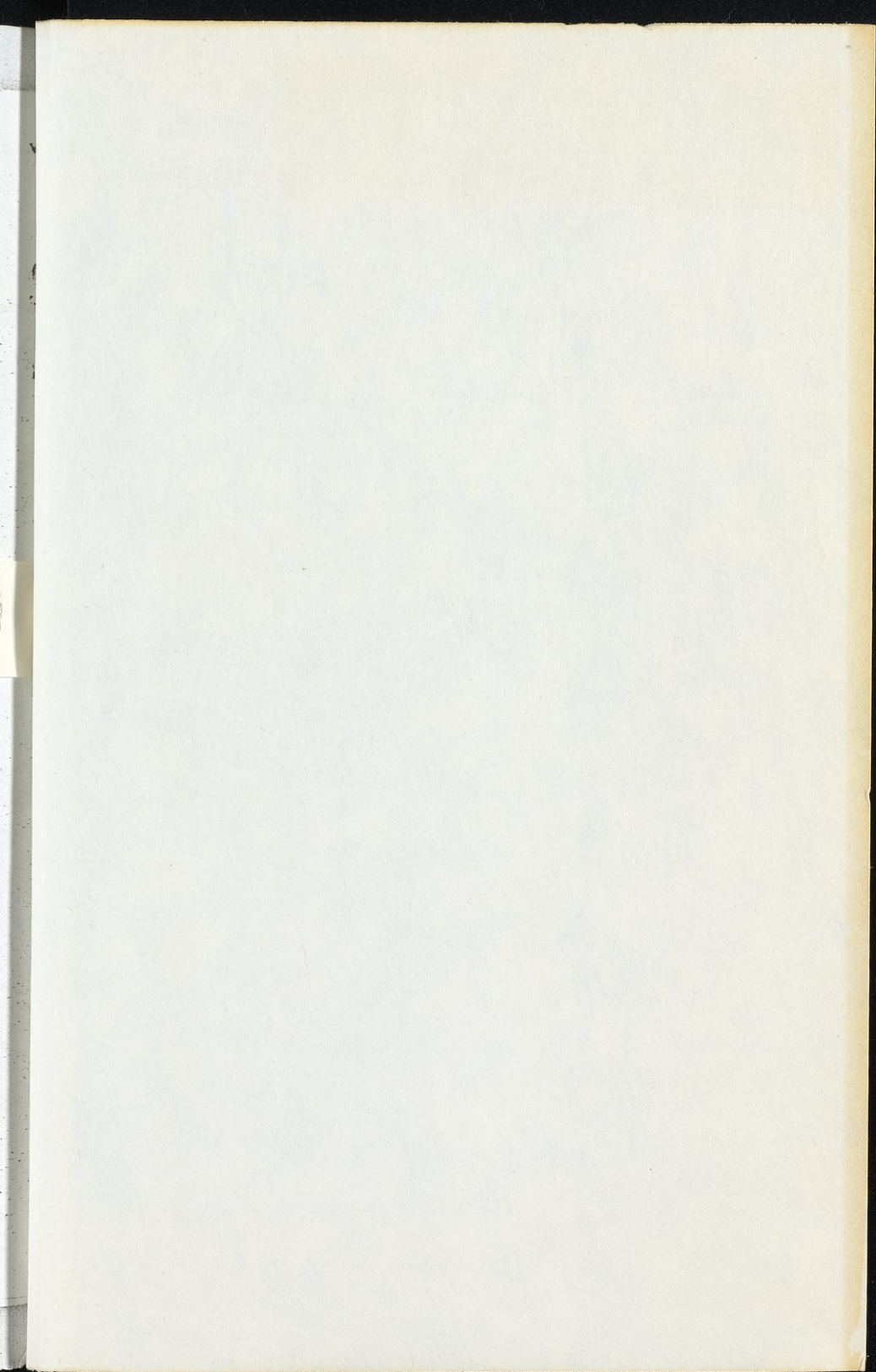
a32101



004841191b







304

Surūr, Tāhā 'Abd al-Bāqī

طه عبد الباقي

محيي الدين بن عربي

Muhyī al-Dīn ibn 'Arabī

ملتمز الطبع والنشر
مكتبة الخانجي بـ مصر

11
15
2

2271
.4075
.942

11
15
2

إهداء

إلى سعادة الأستاذ أحمد حمزة باشا

عرفتك المؤمن القوي المجاهد ، والصوفي التقي العابد . تحلم بالمثالية دائماً ،
وتتشدد الأفق الأعلى دائماً . وتتطلع إلى الروحانية الإسلامية . مؤمناً بأنها
نور هذا الكون وسره . ولديها . ولديها وحدها ، سعادته ونجاته .

فإليك أهدي

« محي الدين بن عربي » وهو أول كتاب يصدر بالعربية . عن إمام
الصوفية . وقطب الرعي في المثالية الحمديدية . والشيخ الأكبر للروحانية
الإسلامية . والقمة العليا للعلوم المدنية ، والعبادة الربانية .

وهدية التصوف نور وحب ، وسلام الله وبنزكاته

طه هبم الباقي سرور نعيم

2271
4075
64

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أفق ... ونجم

... انطلقت الخيل العربية الأصيلة ، من هضاب مكة ، وأودية المدينة ، في أمواج متدفقة تحمل إلى الدنيا قوة جديدة ، فواردة بالبأس ، رحيمة بالهدى والإيمان .

وغمرت تلك الأمواج سهول آسيا ، وطوت بوادي أفريقيا ، فلم يصدها عن الطواف بالكوكب الأرضي إلا أمواج المحيطات في الشمال والجنوب .

ووقف عقبة بن نافع ، في أقصى بقعة من الشمال الأفريقي المواجه لأوربا ، يرقب الأفق ويفكر في شيء غير مرئي ، ثم دفع بجواده إلى الماء هاتفاً « اللهم رب محمد لو أعلم أن وراء هذا الماء أرضاً تغزى في سبيلك لغزوتها .

ومضت سنون . فإذا بفرسان الصحراء يستبدلون بصهوات جيادهم ؛ الجوارى المنشآت في البحر كالأعلام ، المتحركات في عروش الماء ، وإذا بالمحيطات ميدان جديد ، لتلك القوة ، الفواردة بالبأس الرحيمة بالهدى والإيمان . وانطلقت سباحات الماء العربية ، تجوب البحار ، وتقرع أبواب أوربا

يتم لها التطواف حول الأرض حتى لا تكون فتنة ، وحتى يكون الدين كله لله .

وكانت الوثبة الأولى على الجزيرة الخضراء ، مفتاح أوربا ورأسها المفكر ؛ وبسيادة العرب على الأندلس ، أضاء الإسلام قارات الدنيا الثلاث المعروفة في ذلك الحين ، فتمت له السيادة العالمية .

وفي الأندلس دخلت الحضارة الحميدية ، أقتاً جديداً ، والتقت وامتزجت بتقانات وعادات وأمم جديدة . وإلى الأندلس وهي أقصى مد للوجه الحربية المنتصرة ؛ نفر الأبطال والرجال أولو البأس والعزم والطموح وإليها ، وهي أبعد المراكز الإسلامية عن مقر الخلافة الحاكمة ، ذات العنوان والجاء ، هرع الأحرار والعلماء ورجال الفكر .

وبذلك ظفرت الأرض الجديدة بالصفوة المختارة ، قهيات لأن تكون مهداً وساحة للعصر الذهبي في الإسلام ، وأعدت لمشاهدة أعظم حضارات العالم القديم .

يقول كاتب أسبانيا الأكبر « بلاسكوا أبانيز » في كتابه — ظلال الكنيسة — متحدثاً عن العصر الإسلامي في أسبانيا .

« ... وأخذ فرسان محمد — صلى الله عليه وسلم — يتدققون من جانب المضيق فتستقر معهم تلك الثقافة الغنية الموطدة الأركان ، نابضة بالحياة ، بعيدة الشوط ، ولدت منتصرة وبث فيها النبي حمية مقدسة ، واجتمع لها ما في وحى إسرائيل ؛ وعلم يزنطية ، وتراث الهند ، وذخائر فارس ، ومعارف الصين .

ثم يقول « لقد نمت في أسبانيا ما بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر؛ أجهل الحضارات وأغناها وفي الوقت الذي كانت فيه أم الشمال فريسة للفن الدينية والمعارك الممجية؛ كان سكان أسبانيا العرب؛ يزدادون فيزيدون على ثلاثين مليوناً تنسجم بينهم جميع العناصر البشرية؛ والعائد الدينية وخفق قلب الحياة الاجتماعية بأقوى نبضاته التي عرفها التاريخ. فلا ترى لها قريناً تقابله به غير ما نجد في الولايات المتحدة الأمريكية؛ من تنوع الأخناس، واتصال الحركة والنشاط، فعاشت في الأندلس تحت ظلال العرب؛ طوائف من النصراني وأهل الجزيرة ويهود أسبانيا والمشرق، فكان منهم ذلك المزيج العجيب وعاشت بفضل ذلك التفاعل بين العناصر والعروق جميع الآراء والعادات ونمت الكشوف العلمية والأنظمة الفنية؛ وانبعثت من تجاوب هذه القوى، مواهب الإبداع والتجديد »

تلك شهادة كاتب أوربي معاصر متعصب. تنطق في حرارة عميقة بعظمة تلك الحضارة الإسلامية التي أشرقت في الأندلس، وهي حضارة لم يجد لها الكاتب مثيلاً من حيث العظمة والضخامة والسرعة والانتاج والمعارف العلمية إلا حضارة الولايات المتحدة الحديثة.

وأي حضارة تسامق تلك الحضارة الأندلسية، وأي أيام تضارع أيام الحكم الثاني أحد ملوكها الذي أسس في قرطبة وحدها سبعا وعشرين مدرسة للتعليم المجاني، كما أنشأ في قصر مروان مكتبة ضمت أكثر من ستائة ألف مجلد، وجعلها بين الخدائق والرياح للعلماء والأدباء والشعراء، كما أصدر أمراً ملكياً لا يزال إلى يومنا هذا من أعاجيب التقدم الإنساني

٦
١
٥
٢
بل حلما من أحلام رجال الإصلاح الاجتماعي ، فقد خصص في هذا الأمر لكل أعمى مرشد يقوده ، ولكل مريض طبيب يعالجه ، ولكل أمي هاد يرشده ويثقفه .

يقول المستشرق دوزي في كتابه « تاريخ المسلمين بإسبانيا » لقد كان كل فرد في الأندلس يعرف القراءة والكتابة ، بينما كان نبلاء أوربا لا يعرفون حتى التوقيع بأسمائهم ، وكانت جامعة قرطبة منارة للعلم لا تراحمها منارة تماثلها في العالم ، تدرس فيها العلوم الطبية والرياضية والفلسفية والكيميائية دراسة ورثتها أوربا فأضاءت لها الطريق الى هذا الملك العريض . ويقول الأستاذ « ح . ب نرند » في مجموعة تراث الاسلام . واصفا قرطبة في القرن الرابع الهجري . وكان الرحالة القادمون من الشمال — من أوربا — يتسامعون بين الخشوع والرهبة بأخبار المدينة التي كان بها سبعون دارا للكتب ، وتسعانة حمام للجمهور .

ذلك هو الأفق الأندلسي الذي خلق فيه المسلمون بأجنحتهم الجبارة ، فنظرت اليهم الأمم بعين الخشوع والرهبة . ثم هرعت اليهم ، لتنهل من العلم ، وتقتات من الإيمان ، وتزود بالهدى .

كانت الأندلس هي المنارة التي ترسل شعاعها كالشمس تنير جنبات الأرض ، وتضيف إلى أمجاد الانسان فنونا من العلوم ، وألوانا من الآداب ، وفيوضا من من الكشوف العلمية ، والفكرية والدينية .

وتجلت الأندلس ، وتجلت بأجمل حلاها في القرن الخامس الهجري ، حتى يشبهها دوزي بالمر العالمي ، والجسر الذي تلاقت عنده ثقافات أوربا

التديمة ، بتلك الثقافة المحمدية المقدسة المنتصرة . كما تدفقت اليها معارف الشرق الاسلامي ، قنمت وزكت حتى غدت مجمعا أعلى للفكر الانساني العالمي . ولقد درج التصوف مع الفكر الاسلامي منذ يومه الأول ، يصعد بضعوده ويهبط بهبوطه ، كما تدرجت المعارف الصوفية بتدرجا طبيعيا . من الزهد والعزلة والذكر والتصفية القلبية . وما يليه صفاء القلب من فهم في كتاب الله وادراك لأسرار كلام رسوله . كما نشاهد في صوفية القرن الأول الى سمات امتاز بها القرن الثاني ، اذا انتقل التصوف الى آفاق أرحب وأشمل ، إلى معارف الروح والهاماتها ، ومعاني المحبة واقياسها ، وحنين القلوب وأشواقها ، وتعددت مدارس التصوف ، وتعددت ألوانه وطرأته ومذاهبه ، تعددا ظهرت آثاره واضحة مشرقة في صوفية القرن الثالث والقرون التالية .

فمدرسة سعيد بن المسيب ، وهي مدرسة التصوف الممزوج بالفقه والتوحيد بلغت ذروتها في الأعلام الهداة الغزالي . والرفاعي . والجيلاني .

ومدرسة ابراهيم بن أدهم ، وهي مدرسة التصوف الذي ستمته المحبة المشوبة ، أنجبت ذا النون المصري ، أكبر المتحدثين عن النفس ومقاماتها ، والبسطامي العلم الفرد في توضيح حالات الفناء وهي أسنى مراتب المريدين ، وأعلى قمة المحبين ، حيث تنكشف في ساحاتها الحقائق الالهية المكنونة على غير أهلها ، وحيث تسمو الروح في رحابها إلى مرتبة الفيض والأشراق . ثم يأتي دور الكمال الصوفي ، ممثلا في شيخ الطريقة الجنيد ، ودور الابداع الفني في الحب الفاني الخلاج ، الذي شرب من كأس الحب . حتى انتشى ثم غرق . فكان فتنة للناس ؟ ودور الكمال العلمي متجليا في

العقري ، شهاب الدين السهروردي . رئيس الاشراقيين ، وابن سبعين ،
الصيقلی امام المفسرين وعمدة الشارحين .

فإذا تمت للتصوف في القرن الخامس الهجري ، مدرسة جامعة ، مميزة
بسمات وعلامات ، لها عناصرها وعلومها . وأساليبها ومريدوها ، وإذا تم
للتصوف نفوذه القوي الغالب على الأرواح والقلوب ، في سائر أنحاء المجتمع
الاسلامي ، وشيد الصرح الأسنى ورفعت قواعده ، فقد آن له أن يتجلى
بالخراب والامام والزعيم الأكبر في علوم الفيض والالهام . وفنون
العطايا الالهية ، والمعارف الدنية والكاتب المصطفى الذي يهب الحياة
والخلود ، لكل ما تدركه خواطره ، أو يمسسه قلمه ، أو ينبث في قلبه من
هدى ونور .

وجاء محيي الدين ، على عرش قدر وأعد . فكان اسمه يحمل حقيقة
رسالته ، وكانت سمته الغلبة السلطنة والسيادة ، وكان مقامه من التصوف كلمة
الامام صفي الدين : الجنيد يربى المريدين ، ومحيي الدين يربي العارفين وترية
العارفين ، وهم من هم . قمة في التصوف تفرد بها ، فهو أولها وهو أيضاً ختامها .
جاء محيي الدين في العصر الذهبي للحضارة الاسلامية الاندلسية ،
جاء في عصر مأهول بالعلماء عامر الأفق بنجوم السماء ، فلما ألقى من فيض
ما تلقى ، بيانه وهداه ، خشعت له القلوب ، ودانت له العقول ثم طوف في
رحاب العالم الاسلامي ، كالغيث المبارك أينما حل هطل فانبث وأحيى .

وللبينة الأندلسية التي وجد فيها محيي الدين ، تأثير حاسم في حياته ،
فبينما كان المشرق الاسلامي يتوج بطوائف من الملل والنحل والمذاهب
هم من الخوارج والمرجئة ، ومجادلين من الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة ،

وبينما كانت هذه الطوائف تتصارع وتتلاحى ، وتفتنى حيويتهما فى الصراع والتلاحى . كانت الأندلس ، تحت أجنحة الرحمة ، أمة واحدة ، متجانسة الفكر ، موحدة المذهب ، رضية الجدل والحوار .

ولهذا لم يفن محيي الدين حياته صراعا وقتلا كما فعل الغزالي الذى سبقه بقليل فى المشرق فى حروبه ومجادلاته ، مع الفلاسفة والفقهاء ورجال المذاهب .

ولم تنلظ حياته بأوار مستعر من الخصومات العنيفة ، كما نشاهد فى ابن تيمية فى المشرق أيضاً بعده بقليل . مع القرامطة والفلاسفة والصوفية وغيرهم بل امتازت حياته بالهدوء والصفاء والتفرغ المطمئن للتعبد والتلقى .

وإذا اشتبك فى جدال أو حوار ، وقليل ما يشتبك فهو الهادى السمع الرطب الأقق والصدر فلا يرمى بالكفر وما إلى الكفر من نعوت وألقاب ، كما فعل الغزالي ، ولا يقذف بالزندقة والفجور كما صنع ابن تيمية ، بل أقصي ما يرمى وأجرح ما يوجه ، هو أن يقول لخصمه فى سماحة « لقد أخطأ عقلك ، ولم يخطئ إيمانك » كما قال للمجسدة والمعتزلة خلال مناقشته لهم فى صفات الذات . فالإيمان عنده فى القلب ، أما الآراء فمن وثبات العقول .

وثمة صفة أخرى واضحة فى حياة محيي الدين . فعلموه علوم كشف وفيض ، ومصادر الكشف والفيض هى الإلهام الإلهي والفتح الربانى ، وهو يقول فى صراحة ، إنه لا يكتب عن روية وفكر ، وإنما عن نقش فى

روعه وأن تصانيفه من خزائن القرآن ، وقد أعطى مفاتيح الفهم فيها
والامداد منها

وعلم الكشف والفيض لا يمكن أن تجادل ، ولا يمكن أن تناقش ،
لأنها علوم ذوق وتذوق ، وليس في الذوق جدل ولا جدال .

وإذا كان محيي الدين ، قد سلم من الجدل والخصومة في حياته ، فقد
انطلقت العواصف في أثره جامحة هادرة . فقد ترك في الدنيا دويماً ، وأحدث
زلزلاً ، اختصمت فيه الدنيا وتصارعت حوله العقول . فهو القطب الامام ، والعالم
الفرد الأوحد عند رجال التصوف ، وهو الزنديق المتفلسف المهاقف بالحلول
ووحدة الوجود عند الماديين وبعض الفقهاء الجامدين ، ولكن هؤلاء
وهؤلاء ، وإن تجادلوا وتصارعوا في عقيدته ، لم يختصموا في علمه ولم تجرؤ
الاستهيم على الانتقاص منه .

ولعل من آيات محيي الدين التي تفرد بها أن كتبه أمة وحدها ، فقد
برىء قلمه مما أصيبت به أقلام الكاتبيين الذين تلمح في آثارهم معارف
عصرهم ، أو تراث عصور سابقة ، فقد تغلب بمواهبه العقلية والروحية
وبإلهاماته الدينية وكشفه القلبية على جيله وعلى الأجيال التي سبقتة ، بل
لقد احتفظ بتفردة وتفوقه على الأجيال التي تعاقبت بعده فعاش في التاريخ
منارة لا تطاول ، وصرحاً شامخاً مزمداً ترتد عنه العيون ، وتحشع لديه الأفئدة .

وما فكرت يوماً في محيي الدين ، إلا وترسم في مخيلتي ، قمة جبل
أفرست ، والصراع الذي دار حولها للوصول إليها ، وتوالت في خواطري
صور هؤلاء الذين جاهدوا للوصول إلى تلك القمة الباذخة المعتصمة بجبالها

ورهبته . وكيف توالى عجز الواثين والطامحين . وكيف فشلت الجهود متفرقة
ومجمعة في الوصول ، إلى أعلى قم الدنيا ، وأرهب مرتفعاتها .

وكذلك عندى محيي الدين . قمة شامخة في سموها الرائع ، شامخة
بأسرارها وعلومها وإلهاماتها ، قمة هي أعظم ما وصل إليه الخيال المحلق في
ميادين العلم والفلسفة والدين ، قمة قد أحاطها صاحبها بالصعاب والمشاق
والتباويل ، حتى غدا الوصول إليها ضرباً من كفاح لا ينتهى ، وغدا المرتقى
قاسياً مرهقاً حتى لجبارة الأجنحة .

قمة تدفع عنها الضعيف المتخاذل بل وترد أيضاً عن سرها القوى المناضل
إنها لثمة الذوق والتذوق ، فهي في حاجة أولاً إلى الذوق والتذوق .

وإذا كان الأصمعي يقول .. إن الكتاب أشبه بساحات الملوك ، يقع
فيها الجوهر والذهب والتراب والنوى ، فساحة محيي الدين كالخراب . لا تقع
فيها إلا على در مكنون ، أو سر مصون ، أو نور موهوب ، لأنها ساحة
فوق قمة ، قمة متطلعة إلى السماء وهدى السماء .

ولست أزعم لك أن هذا الكتاب ، معراج يرق بك إلى تلك
القمة ، أو مفتاح سحرياً يوصلك إلى محرابها المقدس ، وإنك ستشاهد
الخراب ، وستحظى بعجائبه ، وستتظفر بأسراره ، وستنعم ببدائعه ، فذلك
مطمح لا تطيقه الأقلام ، ولا تدعيه الأذواق .

وإنما أرجو أن أكون قد فتحت لك نافذة تشاهد منها ذلك الأفق
العلوى ، أو دفعت إلى يدك بمنظار مكبر ، يجلو ويوضح ، ما يمكن أن يرى
من تلك القمة الشامخة .

مولده — ونشأته

هو محمد بن علي بن محمد بن احمد بن عبد الله الحاتمي ، من ولد عبد الله ابن حاتم أخى عدى بن حاتم ، من قبيلة طى مهد النبوغ والتفوق العقلى فى جاهليتها وإسلامها ، يكنى أبا بكر ويلقب بمحيى الدين ، ويعرف بالحاتمي وبابن عربى لدى أهل المشرق ، تفرقايينه وبين القاضي أبى بكر بن العربى وبابن العربى لدى المغاربة ، وكما يسمى هو نفسه فى كتبه ، ويعرف فى الأندلس بابن سراقه ، ويصعد به نسب خولته إلى الأنصار .

وقد وهبه الله للدنيا فى ليلة خالدة فى تاريخ الإسلام ، ليلة تتجدد ذكراها كلما نطق مسلم بكلمة التوحيد وهتاف الإيمان ، إذ كان مولده فى يوم الاثنين سابع عشر من رمضان عام ٥٦٠ هـ فى « مرسية » — بضم الميم وسكون الراء وكسر السين — أى فى الشهر الذى أنزل فيه القرآن وهبط وحى السماء . وفى اليوم المماثل ليوم الفتح والنصر ، يوم بدر الأغر الميمون ، ولد تحت ظلال تلك الذكرى ، فكان فتحاً ونصراً .

ومرسية مهبط مولده ، بلد إسلامى ، أنشأه المسلمون فى الأندلس فى أيام الأمويين ، وهى فى شرق الأندلس إحدى مفاثن الجزيرة الخضراء بكثرة المنازله والبساتين ودور العلم ومساجد الطاعة والعبادة .

وهو سليل أسرة ، عريقة فى العلم والتقوى ، عراقتها فى الحروب والنضال . كان جده الأعلى عبد الله الحاتمي . أحد قادة الحروب والفتوحات .

4
وكان جده الأدنى . أحد قضاة الأندلس وعلمائها وكان أبوه على بن محمد .
من أئمة الفقه والحديث . ومن أعلام الزهد والتقوى والتصوف . ولترك
محيي الدين يحدثننا عن أبيه . فقد وصف لنا في الجزء الأول من الفتوحات
أحوال الأولياء بعد مماتهم فمن كان عبدا خالصا لربه في الأولى . كان في
الثانية ملكا له جاهه وسيادته . ومن كان معرضا زاهدا في مظاهرها .
فلا يحجبه الموت ولا ينال منه الفناء عند صعود روحه إلى خالقها . فمن صفات
صاحب هذا المقام ، أن من نظر في وجهه وهو ميت يقول فيه حي .
ثم يقول . .

« ولقد رأيت ذلك لوالدي رحمه الله . فانا دفناه على شك مما كان عليه
في وجهه من صورة الأحياء . ومما كان عليه من سكون عروقه وانقطاع
نفسه من صورة الأموات . وكان قبل أن يموت بخمسة عشر يوما . أخبرني
بموته ، وأنه يموت يوم الأربعاء ، وكذلك كان ، فلما كان يوم موته ،
وكان مريضا شديدا المرض استوى قاعدا غير مستند . وقال . . يا ولدي .
اليوم يكون الرحيل واللقاء ، فقلت له كتب الله سلامتك في سفرِكَ هذا ،
وبارك لك في لقاءك ، ففرح بذلك ، وقال لي . جزاك الله يا ولدي عني
خيرا ، فكل ما كنت أسمع منك ، ولا أعرفه ، وربما كنت أنكر بعضه
هوذا أنا أشهده ، ثم ظهرت على جبينه لمعة بيضاء تخالف لون جسده من
غير سوء ، لها نور يتلأأ ، فشعر بها الوالد ، ثم إن تلك اللعة انتشرت
على وجهه إلى أن عمت بدنه ، فقبلت يده وودعته وخرجت من عنده ،
وقلت له أنا أسير إلى المسجد الجامع إلى أن يأتيني نعيك ، فقال لي : رح

ولا تترك أحداً يدخل على ؛ وجمع أهله وبناته ، فلما جاء الظهير جاء في نعيه فجنّت إليه فوجدته على حالة يشك الناظر فيه بين الموت والحياة ، وعلى تلك الحالة دفناه وكان له مشهد عظيم ، فسيحان من يختص برحمته من يشاء ، فصاحب هذا المقام حياته وموته سواء .

هذا هو النبع الأبوي الزكي ، الذي أنجب محيي الدين ، أما نبعه من حيث خولته ؛ فهو سليل الأنصار الأطهار ، الذين لا يسلكون فجاً إلا سلكه الرسول صلوات الله عليه ، ولترك محيي الدين أيضاً محدثاً عن خاله الصوفي صاحب الأحوال والأنفاس .

« كان خالي أبو مسلم الحولاني ، يقوم الليل ، فإذا أدركه الإعياء ضرب رجليه . فأنابنا أتما أحق بالضرب من دابتي ، أيظن أصحاب محمد صلوات الله عليه ، أن يفوزوا به دوننا ، والله لأزاحمهم عليه ، حتى يعلموا أنهم خلفوا من بعدهم رجالاً » . (١)

وهكذا درج محيي الدين بين بيت والده ، ودار خاله ، في جو عامر بنور التقوى ؛ فيه سباق حار نحو الشرفات العليا للإيمان ، وفيه عزيمات لرجال أقوياء ؛ ينشدون نصراً وفوراً في محاريب الهدى والطاعة .

وانتقل والده إلى أشبيلية ، إلى حاكمها السلطان محمد بن سعد ، وهي عاصمة من عواصم الحضارة والعلم في الأندلس ، وفيها شب محيي الدين ودرج ، وما كاد لسانه يبين ، حتى دفع به والده إلى أبي بكر بن خلف عميد النقباء ، فقرأ عليه القرآن الكريم بالسبع في كتاب الكافي ، فما أتم العاشرة من عمره حتى كان مبرزاً في القراءات ، ملهماً في المعاني والإشارات

(١) الجزء الأول من الفتوحات المكية

ثم أسلمه والده إلى طائفة من رجال الحديث والفتنة ، يذكرونهم لنا الامام
شمس الدين بن مسدى فى روايته عن محيى الدين إذ يقول .

« كان جميل الجملة والتفصيل ؛ محصلاً لفنون العلم أخص تحصيل ، وله
فى الأدب الشاؤ الذى لا يلحق ؛ والتقدم الذى لا يسبق ؛ سمع فى بلاده فى
شبابه الباكر ، من ابن زرقون والحافظ بن الجد ؛ وأبى الوليد الحضرمى ؛
والشيخ أبى الحسن بن نصر ... »

ثم لا يذكر لنا التاريخ بعد ذلك شيئاً عن شباب محيى الدين ولا عن
شيوخه ؛ ومقدار ما حصل من العلوم والفنون . ولكن محيى الدين ، أرخ
نفسه وجلا حياته ، فهو يذكر لنا فى الفتوحات ، أنه قد أعرض عن العلم
والشيوخ ، وأنه قد اتجه بروحه إلى محارب الله ، ومهبط إلهامه ، إلى التفكير
فى خلق السموات والأرض وإلى الذكر الدائم المطهر الملهم .

ثم إلى الجلوة والخلوة ، يطهر خواطره ، ويطهر وجدانه ، ويرزى نفسه
لنلهم تقواها ، حتى تفجرت فى قلبه ينابيع الفيض ، وأشرقت فى حياته
شمس الهبات والعطايا اللدنية .

وتراث محيى الدين ، يشهد بأنه كان فى صباه ، مرهف الحس والذوق
قوى العاطفة ، غلاب الوجدان ، رحب الآفاق فى الهمة والتطلع .

ويشهد بأن روحه ، كانت أعظم من أن تطيق ذلك التلقين الرتيب
من شيوخه وأساتذته ، وأن تلك الروح قد انطلقت تشد حباً أكبر من
تلك العواطف التى تحيط به ، وتبغى أفتاً أعظم وأشمل من تلك الألوان
من العلوم والمعارف .

والهمة كما يقول ، هي أساس الفتح والفيض ، فإن التجرد يعطي الطهارة والطاعة ؛ أما الكشف والفيض فأساسهما الهمة وعزيمات الرجال . وإن كانت همة خاله أبي مسلم ، قد قعدت به عن الحقوق بأصحاب محمد صلوات الله عليه وإن كانت عزيمته قد ضعفت أجنتها عن التحلق والتفوق في الكشف وفنونه ؛ والإلهام وعلومه ، فإن لمحي الدين لهمة وإن له عزماً ، وإنه لسابق لا يسبق ، وهداف لا يخطئ ؛ وإن لروحه وثبات تكاد تذهب بها إلى اللاأ الأعلى ، وإن في قلبه شيئاً يكاد يضيء ، ولو لم تمسه تلك العلوم والمعارف .

وإذن فليعرض محي الدين عن شيوخه وأضابير معارفهم ، وليختصر الطريق الممل الشاق ، في وثبات روحية جبارة ، إلى منابع العلوم ومصادرها إلى النور الذي تعيش فيه الفئة التي رضى الله عنها وأحبها فوهبها وعلمها من لدنه علماً . واعتزل محي الدين الدنيا عزلة الأولى ، عزلة هي سر بينه وبين فاطر السموات والأرض ، ولكنها عزلة مهتدة لتكوين تلك القوة العالمية الربانية العظمى ، عزلة أحدثت عجيباً ، وأورثت علماً ، خشع له أكبر جبار في عالم العقل والفلسفة ، خشع لها وأكبرها أبو الوليد بن رشد ، ولنترك محي الدين يحدثنا بقلمه الساحر ، عن الانتقاء بين علم الهبات الربانية ، والعلم المكتسب من العقل المتفوق المتقف يقول محي الدين في الفتوحات «

بين ابن رشد ومحي الدين

« . . . دخلت يوماً بقرطبة ، على قاضيا أبي الوليد بن رشد ، وكان يرغب في لقاء لما سمع وبلغه ما فتح الله عليّ في خلوتي ، وكان يظهر التعجب

فما سمع ، فبعثني والدي إليه ، في حاجة قصداً منه ، حتى يجتمع بي ، فإنه
كان من أصدقائه ، وأنا صبي ما بقل وجهي ، ولا طر شاربي ، فلما دخلت
عليه قام من مكانه إلى محبة وإعظاما ، فعاتقني وقال لي نعم ؟ فقلت له نعم ؟
فزاد فرحه بي ، لفهمي عنه ، ثم استشعرت بما أفرحه من ذلك ، فقلت له
لا ؟ فانتفض وتغير لونه ، وشك فيما عنده وقال كيف وجدتم الأمر في
الكشف والفيض الآلي ، هل هو ما أعطاه النظر ، قلت له نعم ولا ، وبين
نعم ولا تطير الأرواح ، فاصفر لونه ، وقعد يحول ، وعرف ما أشرت به إليه «
وابن رشد ، كان يهدف في فلسفته إلى التوفيق بين الدين والفلسفة ؛
وله في ذلك محاولات وجولات ، وقد نشد في مقابلته لحج الدين أن يطمئن
وأن يأخذ اعترافا من رجل من رجال الدين والكشف بأن القمة التي
تصل إليها الفلسفة ؛ هي بعينها غاية الدين وهدفه ؛ وأن العقل يلتقي بالروح
في خاتمة المطاف .

وأن ما ذهبت إليه الفلسفة من شرح للسنن الكونية ؛ وتمثيل لقدرة
الله سبحانه وآياته في خلقه لا تتعارض مع الدين بل تؤيده وتدعمه .

وقد قال له محيي الدين في البداية نعم . ففرح ابن رشد ؛ ثم استدرك
محيي الدين ؛ فقال لا . ؟ فحزن ابن رشد ؛ وأزاد توضيحا ؛ فقال . . هل
وجدتم الأمر في الكشف والفيض هو ما أعطاه النظر ، فقال محيي الدين .
نعم . ولا .

نعم لأن العقل قد يهتدي إلى الله ، ويدرك ويلمس أسرار الكون ،
ولكن العقل المجرد مع وصوله إلى تلك القمة ، ينحدر وينزلق ويفضل في

المتشابهات ، فضلا عن ابتعاده عن التعبد والتطهير وتحمله من الكمالات
الخلقية والشرعية .

والعقل المجرد ، ليس له قيداً يعصمه ولا حداً يتفق عليه بين العقول
التي تتطاير حول المعارف مع الريح في شتى الاتجاهات والغايات . ولذلك
قال له محي الدين : وبين نعم ولا ، تطير الأرواح .

ولم يكن هذا الاجتماع فاصلاً بين الرجلين العظيمين ، ولا بين المدرستين
المتناظرتين فسعى ابن رشد إلى لقاء آخر مع الصبي ، الذي كبر بالخلوة ،
وتعلم في الخلوة ، وتفوق وما بقل وجهه ولا طرشاربه .

يقول محي الدين وطلب ابن رشد من أبي بعد هذا الاجتماع أن يلتقي
بنا ليعرض ما عنده علينا لئرى هل هو يوافق أم يخالف ، فإنه كان من
أرباب الفكر والنظر العقلي ؛ فشكر الله الذي كان في زمان رأى فيه من
دخل خلوته جاهلاً . وخرج مثل هذا الخروج ، من غير درس ولا بحث
ولا مطالعة ولا قراءة ؛ وقال هذه حالة أثبتناها وما رأينا لها أرباباً ، فالحمد
لله الذي أنا في زمان فيه واحد من أربابها ، الفاتحين مغالقي أبوابها ، والحمد
لله الذي خصني برويته »

ولم يسفر اجتماعهما الثاني عن نتيجة ترضى ابن رشد ، ولكن الرجلين
كل منهما أحب الآخر وأجله وأكبره .

ولم ينكر ابن رشد على محي الدين ، علومه الكشفية ، ولا طريقتَه
في المعرفة والتلقي . بل حمد الله الذي من عليه فأوجده في زمان فيه مثل
محيي الدين . الذي دخل الخلوة جاهلاً وخرج منها إماماً مرشداً .

ولقد أطمع هذا الإيمان والحب محي الدين في هداية ابن رشد وجذبه
إلى نطاق المتصوفة الراشدين ، فأراد أن يجتمع به مرة ثالثة ، وأعد عدة
اللقاء ، وهياً الجو لما يشد ويريد ، ولكن الله أراد غير ما يريد .

يقول . ابن عربي « ولكن قبل أن ألتقي به أراه الله تعالى لي في منظر
قد ضرب بينه وبينى حجاب رقيق ، فكنت أنظر إليه منه ، ولا يبصرني
فعلمت أنه غير مراد لما نحن عليه ، فما اجتمعت به حتى درج في سنة خمس
وتسعين وخمسة مائة بمدينة مراکش ، ونقل إلى قرطبة ودفن بها »

كان حجاب رقيق ، هو الذي يفصل ابن رشد عن محي الدين . وهذا
الحجاب الرقيق هو الفيصل بين الهدى والضلال ، والرضا والغضب ،
والإعراض والاصطفاء ، أو كما يقول محي الدين ، بين نعم ولا تطير الأرواح ،
وما أيسر ما بينهما ، وما أعظمه .

وتلك فترة دقيقة حاسمة في حياة محي الدين ، فهو صريح كل الصراحة
في أنه دخل الخلوة صغيراً لم يطر شاربه ، دخلها بدون قراءة ولا مطالعة ،
إلا أيسر ما تكون القراءة والمطالعة ، فرشد والهم ، وتعلم من لدن ربه
الوهاب علماً أخذ يزداد مع أنفاسه ، ويترقى مع تسبيحاته ، حتى بلغ من علم
ربه ما قدر له ، وحتى تمت له الزعامة التي لا تطاول ولا تغالب في علوم
الإيمان وفيوضات القلب .

ويحدثنا محي الدين عن علمه الموهوب فيقول وأنا أستمد علمي من
كلمات الله التي لا تنفد — قل لو كان البحر مدداً لكلمات ربي لنفد البحر
قبل أن تنفد كلمات ربي — ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر

عنده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله»
ويقول . لو أن علمه كان نتيجة بحث أو فكر لحصر في أقرب فرصة ،
ولكنهما موارد الحق تبارك وتعالى تتوالى على قلب العبد وأرواح البررة
تنزل عليه من عالم غيبه برحمته التي من عنده وعلمه الذي من لدنه ، والحق
تعالى وهاب على الدوام ، فياض على الاستمرار ، والقلب البشري ، قابل
على الدوام للتلقى .

العلم النظري . واللدني

إنها موارد الحق تبارك وتعالى تتوالى على قلبه ، وإنها لأرواح بررة
تنزل عليه من عالم غيبه ، وأنه لقلب زكي مختار ، قابل على الدوام للتلقى ،
وأنه لروح أعدل واصطفاه ربه ، لأكمل ما يصطفى العلماء من الأولياء ، وإن
هذا الفيض الرباني ، ليتوالى عليه ، ولم يطر شاربه ولا يقل وجهه ، ولم يلقن
من قبل عما دنيويا يزاحم به ويفاخر .

بل انه ليرى كما ترى جبهة أهل التصوف ، أن القلب إذا سلم من
النظر الفكري شرعا وعقلا في البداية ، كان قابلا للفتح الإلهي على أكمل
ما يكون الفيض والفتح ، فليس في القلب عوائق من معارف سابقة تتصدى
للواردات أو تناقضها .

يقول الامام الغزالي « لما أردت أن انخرط في سلوكهم وأخذ مأخذهم
وأغترف من البحر الذي اغترفوا منه ، خلوت بنفسي واعتزلت عن نظري
وفكري ، وشغلت نفسي بالذكر فأتدح لي من العلم ما لم يكن عندي ،

ففرحت بذلك وقلت انه حصل لي ما حصل للقوم ، فتأملت فيه ، فاذا فيه
قوة قهنية . مما كنت عليه قبل ذلك . فعلمت أنه بعد ما خلص لي . فعدت
إلى خلوتي واستعملت ما استعمله القوم ، فوجدت مثل الذي وجدت أولاً
وأوضح وأسنى . فسررت . فتأملت فإذا فيه قوة قهنية مما كنت عليه أولاً .
وما خلص لي فعاودت ذلك مرارا والحال الحال . فتميزت عن سائر النظائر
أصحاب الأفكار بهذا المقدار . ولم ألق بدرجة التوم في ذلك . وعلمت أن
الكتابة على المحو . ليست كالكتابة على الصفاء الأول والطيابة الأولى ... »
كان محي الدين . على الصفاء الأول . وعلى الطيابة الأولى . عندما
دخل خلوته . فتولاه ربه من يدايته . وفتح له خزائن منته وعلمه
وأفاض عليه من هباته . ومد له ساما من الصفاء يعرج فيه قلبه إلى معارج
الملا الأعلى .

ولكن المتصوف المختار المصطفى . وإن لم يكن في حاجة إلى العلوم
العقلية والنظرية . فهو في ضرورة لا تجادل إلى المرشد المري . إلى الشيخ
الذي يملكه ليسعده . ويصوغه ليخليه ويحليه صفاء ونورا .

مكانة الشيخ في الطريق

والشيخ في التصوف مكانة عليا . فهو للطريق كالقنار للماء . لا يهتدى
السائر إلا به . ولا يرشد إلا بنوره . انه غير المعلم العتلى . والمربي المدرسي .
فوظائفه فوق التعليم والتلقين . مراقبة القلب والخواطر والواردات . أو كما
يقول محي الدين يعرف من مريده موارد حركاته ومصادرها ، وعلوم
الخواطر مذمومها ومحمودها . ويعرف الأنفاس والنظرة . ويعرف ما لها وما

يحتويان عليه . من الخير الذي يرضى الله . ومن الشر الذي يسخط الله .
ويعرف العلل والأدوية . ويعرف الأزمنة والألسن والأمكنة والأغذية
وما يصلح المزاج وما يفسده . والفرق بين الكشف الحقيقي والكشف
الخيالي . ويعلم التجلي الإلهي . ويعلم التربية . وانتقال المريدين من الطفولة
إلى الشباب إلى الكهولة . ويعلم متى يترك التحكم في طبيعة المريد . ويحكم
قوى عقله . ومتى يصدق المريد خواطره . ويعلم ما للنفس من الأحكام . وما
للشيطان من الأحكام . ويعلم الحجب التي تعصم الانسان من لقاء الشيطان
في قلبه . ويعلم ما تكنه نفس المريد مما لا يشعر به المريد . ويفرق للمريد
إذا فتح عليه في باطنه بين النتح الروحاني وبين الفتح الإلهي ويعلم بالشهم
أهل الطريق الذين يصلحون له من الذين لا يصلحون . ويعلم التجلية
التي يحل بها نفوس المريدين الذين هم عرائس الحق .

فهم أدباء الله العالمون بأداب الحضرة ، وما تستحقه من الحرمة ،
والجامع لتمامهم . إن الشيخ عبارة عن جمع جميع ما يحتاج اليه المريد السالك
في حال تربيته وكشفه ، إلى أن ينتهي إلى الأهلية للشيخوخة ، وجميع
ما يحتاج اليه للمريد إذا مرض خاطره وقلبه بشبهة وقعت له لا يعرف صحتها
من سقمها ، وحرمة الحق في حرمة الشيخ ، وعقوبه في عقوبه » .

ذلك هو جماع ما يمكن أن يقال عن مكانة الشيخ في طريق الله ،
فهم أساتذة تلك الجامعة الربانية وأطبائها ، ولا بد للمريد السائر على الصراط
الأعظم من أن يلجأ اليهم حتى تعصمه حكمتهم من الزلل ، فطريق التصوف
ليس طريقاً سلطانياً هيناً سهلاً . إنه لطريق المزالق والشباك والحن والمهالك

والصبر والمجاهدة المرة ، التي لا يقدر عليها إلا أهل الفتوة والقوة ، والمناعة
الروحية ، والعظمة القلبية والعقلية ، وفوق هذا وذاك ، الاجتهاد والاصطفاء
والمحبة والرضا .

ولهذا خرج محيي الدين من خلوته ، فقد نهل من العلم المصنفي ما أذهل
به ابن رشد ، وما حير به أئمة عصره ، ولكن التربية غير العلم ، والطبيب
غير المعلم ، خرج ينشد الدليل والقائد ، وحامل المصباح .

الخضر وشيوخه في الطريق

وكان أول شيوخه في الطريق الامام أبو العباس العريني ، أحد فحول
أصحاب الأحوال والأنفاس وطبق عليه شيخه شرعة الطريق ، غير عابئ
ولا ملتفت إلى علوم محيي الدين ومعارفه ، ولهذا كان يمجح محيي الدين
أحيانا ، بل ويتمرد على ما اصطلاح عليه من تسليم المريد المطلق لشيخه
وهاديه لوثوقة من علمه وتمكنه من معارفه .

ولكن عناية الله ، وهي سر هؤلاء الرجال ، وهي الدعامة الأولى التي
ترتكز عليها حياتهم وتتلون بها شخصياتهم ، قيضت له أمام شيوخ الطريق
كافة ، الولي الخفي ، الذي شهد له القرآن بأنه أوتي من لدن ربه علما لم
يطلقه موسى النبي ، قيضت له الخضر فأرشده وكفكف من غرب نفسه
ورده إلى شيخه ، يقول محيي الدين :

«وذلك أن شيخنا أبا العباس العريني جرت بيني وبينه مسألة في حق
شخص كان قد بشر بظهوره رسول الله صلوات الله عليه ، فقال لي هو فلان

ابن فلان ، وسمى لى شخصا أعرفه باسمه وما رأيته ، فتوقفت فيه ولم آخذ
 بالتبول ، لكونى على بصيرة فى أمره فتأذى الشيخ فى باطنه ، ولم أشعر
 بذلك فانى كنت فى بداية أمرى ، فانصرفت عنه إلى منزلى ، ولما كنت
 فى الطريق بسوق الحنة بأشبيلية لقينى شخص لا أعرفه ، فسلم على ابتداء
 سلام محب مشفق ، وقال لى . يا محمد . سلم إلى الشيخ مقالته ، فيما ذكر لك
 عن فلان . وسمى لى الشخص الذى ذكره أبو العباس . فقلت له نعم .
 وعلمت ما أراد . ورجعت من حينى إلى شيخى . لأعرفه بما جرى . فعندما
 دخلت عليه كلمنى قبل أن أكلمه . قال لى . يا أبا عبد الله . احتاج معك
 إذا ذكرت لك مسألة يتفق خاطرك عن قبولها إلى أن الخضر يتعرض اليك ،
 ويقول سلم لفلان فيما ذكره لك . ومن أين يتفق لك هذا فى كل مسألة
 تسمعها منى فتتوقف . قلت أهو الخضر ؟ قال نعم . قلت أن باب التوبة
 مفتوح . فقال وقبول التوبة واقع . فلما كان بعد مدة رأيت شيخى قد رجع
 إلى قولى فى تلك المسألة . وقال لى إني كنت على غلط فى تلك المسألة .
 فقلت له يا سيدى علمت الساعة أن الخضر ما أوصانى إلا بالتسليم وما عرفنى
 بأنك مصيب فى تلك الحالة . ولكن التسليم واجب »

والتقى محي الدين بالخضر مرة أخرى حينما كان مع شيخه الثانى الامام
 جراح بن خميس ويحدثنا محي الدين عن هذا اللقاء فيقول :

« ثم اتفق لى مرة أخرى أنى كنت فى مركب فى البحر . فأخذنى وجع
 فى بطنى وأهل المركب قد ناموا . فقممت إلى جانب السفينة . وتطلعت إلى
 البحر فرأيت شخصا على بعد فى ضوء القمر . وكانت ليلة البدر . وهو يأتى

٢٥
٢٦٥
على وجه الماء حتى وصل إلى ووقف معي . ثم تكلم معي بكلام كان عنده .
ولتفني أشياء وأشياء . ثم سلم وانصرف يطلب المغارة مائلا نحو تل على شاطئ .
فبيننا وبينه مسافة تزيد على ميلين فقطع تلك المسافة في خطوتين . أو ثلاث
اسمعت صوته وهو على ظهر المغارة يسبح الله . وربما مشى إلى شيخنا جراح
بن خميس الكتاني وكان من سادات القوم وكنت جئت من عنده بالأمس
من ليلتي تلك ، فلما جئت المدينة لقيت رجلا صالحا . فقال لي كيف كانت ليلتك
البارحة في المركب مع الخضر . ما قال لك وما قلت له فعلمت أنه الخضر .
وكان شيخه الثالث . أبو محمد بن عبد الله ، ذروة مرموقة في علوم
الكشف ، ويحدثنا عنه فيقول

« دخلت على شيخنا أبي محمد بن عبد الله بغير ناطه سنة خمس وتسعين
وخمسة ، وهو من أكبر من لقيته في هذا الطريق ، ولم أر في طريقته مثله في
الاجتهاد وكان ممن أوتوا فيها في القرآن ارثا محمديا ، فقال لي : الرجال أربعة .
رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وهم رجال الظاهر . ورجال لا تليهم
تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وهم رجال الباطن ، جلساء الحق تعالى . ولهم
المشورة . ورجال الأعراف ، وهم رجال الحد ، قال الله تعالى « وعلى
الأعراف رجال » . وهم أهل الشم والتميز والسراح عن الأوصاف ، فلا
صفة لهم ، كان منهم أبو اليزيد البسطامي . ورجال إذا دعاهم الحق يأتونه
رجالا لسرعة الاجابة لا يركبون . قال تعالى (وأذن في الناس بالحج يأتوك
رجالا) وهم ورجال المطلع .

فرجال الظاهر لهم التصرف في عالم الملك والشهادة ، وأما رجال

الباطن فهم الذين لهم التصرف في عالم الغيب والملكوت . فيستنزلون
الأرواح العلوية بهمهمهم فيما يريدونه . أعني أرواح الكواكب لأرواح
الملائكة ، فيفتح هؤلاء الرجال في باطن الكتب المنزلة والصحف المطهرة
وكلام العالم كله ونظم الحروف والأسماء من جهة معانيها ، ما لا يمكن لغيرهم
اختصاصا إلهيا ، وأما رجال الحد فهم الذين لهم التصرف في عالم الأرواح
النارية ، وهو عالم البرزخ والجبروت ، وهم رجال الاعراف ، والاعراف
سور حاجز بين الجنة والنار ، برزخ . باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله
العذاب ، فهو حد بين دار السعداء ودار الأشقياء ، وهؤلاء الرجال أسعد
الناس بمعرفة هذا السور ، ولهم في كل حضرة دخول واستشراق . وأما
رجال المطالع فهم الذين لهم التصرف في الاسماء الآلهية فيستنزلون بها منها
ما شاء الله ، وهذا ليس لغيرهم ويستنزلون بها كل ما هو تحت تصرف الرجال
الثلاثة وهم أعظم الرجال ، وهم الملامتية» وكان محي الدين منهم .

وكان شيخه الرابع الفقيه العابد ، يوسف الكومي ، يتحدث عنه محي
الدين فيقول

« سألني شيخني يوسف الكومي سنة ست وثمانين وخمسة عن
مسألة من مشكلات التصوف فقال .

إذا اجتمع عارفان في حضرة شهودية عند الله تعالى ما حكمها .
قلت . . . ياسيدي . هذه مسألة تقرض ولا تقع لأن الحضرة لاتسع اثنين .
ولا تشهدا عين زائدة ، فإن أفترضناها مثالا ، فإذا اجتمعا فلا يخلو كل
واحد منهما أن يجمعهما مقام واحد أولا يجمعهما . ثم حكم التجلي من حيث

الظهور واحد ، ومن حيث المتجلى له مختلف . فالتذوق متباين لاختلافهما
في أعيانهما ، ولا يجتمع شهود وخطاب وتجلي ورؤية غير »
وتأذن ربك لحجى الدين بالانتقال إلى مرتبة الشيخ والامام وأن له
أن يشرق في أفق جديد رحب . وأنت يغادر ركب المريدين إلى
طلائع المرشدين .

يقول محي الدين « ولقد أنعم الله على بيشارة عظمى بشرى بها وكنت
لأعرفها من حالى وكانت حالى فأوقفنى عليها الامام خليفة القطب ، فقد
نهانى عند التقائى به ، عن الالتئام إلى من لقيت من الشيوخ ، وقال لى :
لا تنتم إلا إلى الله ، فليس لأحد من لقيته عليك يد مما أنت فيه ، بل الله
تولأك برعايته وعنايته ، فاذا كر فضل من لاقيت إن شئت . ولا تنتسب
إلا إلى الله »

وبذلك دخل فى نطاق الذين أدبهم ربهم واجتباهم . وهم قلق فى الطريق
لا يتجاوزون الأحاد بل وضع قدمه على أول الطريق إلى القمة العلمية
الربانية . وهى شرعة هو صاحبها وربانها وأمامها الأوحد .

وكما اصطفاه الله فى مطلع حياته مع شيوخه فأرسل الخضر إليه مرشداً
ومرياً . كذلك حنفه برحمته فى مطلع افاضات الأسرار اللدنية عليه . فقد
باح أول أمره بسر من أسرار الحب . وهى إباحة قلما نجا من عواقبها مراد
أو مرید . يحدثنا عنها فيقول .

« ولقد منحنى الله سرا من أسرازه بمدينة فاس سنة أربع وتسعين
 وخمسة فإذ عته فإنى ما علمت أنه من الأسرار التى لاتذاع . فعوتبت فيه

من المحبوب . فلم يكن لي جواب إلا السكوت . ؟ إلا إني قلت ، تول أنت أمر ذلك فيمن أودعته آياه . إن كانت لك غيرة عليه . فإنك تقدر ولا أقدر . وكنت قد أودعته نحواً من ثمانية عشر رجلاً . فقال لي أنا اتولى ذلك ، ثم أخبرني انه سله من صدورهم وسلبهم آياه فالحمد لله حيث لم يعاقبني بالوحشة والحerman . كما عوقب غيري »

المقامات والأحوال

لم يعاقب محيي الدين ، لأن العناية الربانية تعدّه في رحمتها لرسالة ستتكشف عنها الأيام ، وتأتى بها الأنبياء

ورجال القلوب والأنفاس ، والعلماء الربانيون كمحيي الدين الحديث عنهم ، حديث قلب وروح وإيمان ، والعوامل التي تكونهم ، هي الأنوار والاشراقات والتجليات الربانية ، والتقلب في أسرار الأحوال ومنح المقامات وما تفيض به على أربابها من كشف وعلوم .

ولقد خاض محيي الدين في الطريق إلى الله ، بحار تلك الأحوال ، وارتقى قمم تلك المقامات ، ونعم بعباياها ، وذاق ثمارها ورياحها ، وتحدث عنها ، وكشف منها ما أمر بكشفه ، وأكن ما أمر بحفظه ، وما كشف منها محيي الدين ، عطية لم تمنح لسواه ، وهي تراث من العلوم ، يسع علماء الدنيا قروناً وأجيالاً يتدارسونها ، وينتفعون وينتفعون بها

والمقامات الالهية ، بكنوز علومها ، احصاها محيي الدين فبلغت ستين ألفاً من المقامات والأحوال الربانية ، ويتحدث عن نفسه فيقول :

« قد دخلنا في كل ما ذكرناه في هذه الامدادات الالهية ذوقا مع عامة
أهل الله وزدنا عليهم باسم إلهي وهو — الآخر — أخذنا منه الرياسة وروح
الله الذي يناله المقربون من قوله تعالى « فأما إن كان من المقربين فروح
وريحان وجنة نعيم » ونلت هذا المقام في دخولي هذه الطريقة سنة ثمانين
وخمسةائة . »

وتلك السنة التي ذكرها محي الدين تدل على أنه بلغ تلك المكانة ،
ولم يتجاوز العشرين من عمره ، وفي تلك السن المبكرة ، أخذ يحتاز تلك
المقامات سراعا نحو العلا ، ولنجل معه جولة في تلك المقامات التي تنقل في كواكبها
ولتستمع إليه وهو يحدثنا عن مقام النور :

مقام النور

هذا مقام نلته سنة ثلاث وتسعين وخمسةائة ، بمدينة فاس في صلاة
العصر ، وأنا أصلي بجماعة بالمسجد بجانب عين الجبل ، فرأيت ، نورا صافيا
غالبا يكاد يكون من خلفي اكشف من الذي بين يدي ، غير أنني لما رأيته
زال عني حكم الخلف . وما رأيته لي ظهيرا ، ولم أفرق في تلك الرؤيا بين
جهاتي ، بل كنت مثل الكرة لا أعتل لنفسي جهة إلا بالفرض .

مقام الوجد والوله

وهو من أخطر مقامات التصوف ، وهو ذهول وذهاب عن كل
ما سوى الله بحكم المحبة والاشراق وكم من إمام غلب عليه هذا المقام فذهب
معه ولم يعد ابدا . ولكن العناية شملته فحفظ كعهده يقول محي الدين :

« ولقد دقت هذا المقام . ومر على وقت أودى فيه الصلوات الخمس
 إما ما بالجماعة على ما قيل لي بآتمام الركوع والسجود . وجميع أحوال الصلاة
 من أفعال وأقوال . وأنا في مثل هذا كله لا علم لي بالجماعة ولا بالحل
 ولا بالحال . ولا بشيء من عالم الحس . لشهود غلب على غبت فيه غنى
 وعن غيري فأخبرت أني كنت إذا دخل وقت الصلاة . أقيم الصلاة وأصلي
 بالناس فكان حالي كالحرركات الواقعة من النائم . ولا علم له بذلك . فعلمت
 أن الله حفظ على وقتي ، ولم يجر على لساني ذنبا كما فعل بالشيلي في ولهه ،
 فقد كان الشيلي يرد في أوقات الصلاة على ما ورد عنه ، فلا أدري هل
 كان بعقل رده أو كان مثل ما كنت فيه ، فإن الراوي ما فصل ، فلما قيل
 للجنيدي عنه ، قال الحمد لله الذي لم يجر على لسانه ذنبا إلا أني كنت في أوقات
 في حال غيبي أشاهد ذاتي في النور الأعلى ، والتجلى الأعظم ، بالعرش
 العظيم يصلي بها وأنا عري عن الحركة ، بمعزل عن نفسي ، وأشاهدها بين
 يديه راحة وساجدة وأنا أعلم أني ذلك الراكع والساجد . كروية النائم
 واليد في ناصيتي . وكنت اتعجب من ذلك وأعلم أن ذلك ليس غيري
 ولا هو أنا ، ومن هناك عرفت المكلف والتكليف .

مقام الفتح في العبارة

محبي الدين أعظم من حمل قلما في دنيا التصوف ، إبانة وفصاحة
 وفيضا وكشفا ، وهو يرد كل تلك الصفات وهذه الخصائص المتفردة إلى
 هذا المقام . الذي يحدثنا عنه فيقول :

« الفتح في العبارة لا يكون إلا للمحمدي الكامل . وأقوى مقام صاحب هذا الفتح الصدق في جميع أقواله وحركاته ، وسكونه ، إلى أن يبلغ به الصدق أن يعرف صاحبه وجليسه ، ما في ظاهره وباطنه من حركة ظاهرة أو باطنه ، بحيث لا يمكن لصاحب هذا الفتح أن يصور كلا ما في نفسه ويرتبه في فكره ثم ينطق به بعد ذلك ، بل زمان تصوره لذلك اللفظ الذي يعبر به عما في نفسه زمان قيام ذلك المعنى في نفسه وصورته ، فيفتح الله له في العبارة ، فيعرب بقلمه أو بلفظه عما تنفسه بنفسه ومن علامات هذا الفتح استصحاب الخشوع ، وتوالي الاقشعرار عليه في جسده بحيث أن يحس أن أجزائه قد تفرقت ، وهذا فتح مالتيت في عمري في من لقيته من رجال الله على كثرتهم أترأ منه في أحد وقد يكون في الزمان رجال هم هذا الفتح ولم ألقهم ، غير أني منهم بلا شك عندي ولا ريب ، فإله الحمد على ذلك . . . »

وهنا آية من آيات محي الدين ، فهو يرد فصاحة اللفظ وجمال التعبير وروعة الفكرة عنده ، إلى الصدق في التعبير عن الأحاسيس ، بحيث لا يدوق كلاما ولا ينمق لفظا ، بل لنظفه هو تنفسه ، وتصوره هو قوله .

مقام القيومية

ولنظفر بهذا المقام قصة توضح الهدف والغاية ، وهي من مواقف العتول ومن آيات الفيض والوهب قال : « لقيت أبا عبد الله بن جنيد من شيوخ الطائفة وكان معتزلي المذهب ، يقول بخلق أفعال العبد ، فشرحت له الأمر

حتى رجع إلى قولنا ، وكان قد آتى إلى زيارتنا ، فلما رجع إلى بلده مشيت
إلى زيارته في بلده ورددته عن مذهبه ، وكذلك جميع أصحابه ،
فشكرا لله . »

ثم يقول : أنه كان متحيرا في هذه المسألة المتعقدة لا يدرى اليقين فيها
وما فتح له فيها برأى قاطع على الوجه الذي لا شك فيه .

حتى كان ذات ليلة . وهي ليلة السبت السادس من رجب سنة ثلاث
وثلاثين وستمائة فإنه لم يتخلص لى إضافة خلق الأعمال لأحد الجانبين ،
ويعسر عندى الفصل بين الكسب الذى يقول به قوم ، وبين الخلق الذى
يقول به قوم . فاوقفنى الحق بكشف بصرى على خلقه المخلوق الأول الذى
لم يتقدمه مخلوق إذ لم يكن إلا الله . وقال لى هل هنا أمر يوجب التليس
والخيرة ، قلت لا . قال : هكذا جميع ما تراه من المحدثات ، ما لأحد فيه
أثر ولا شيء من الخلق ، فأنا الذى أخلق الأشياء عند الأسباب
لا بالأسباب . فتكون عن أمرى ، خلقت النفخ فى عيسى ، وخلقت
التكوين فى الطائر .

وسأله سبحانه سؤالا ، فقال : إذا طالعتك بأمر فالزم الأدب ، وأسمع
وأنصت ، قلت ذلك لك ، أخلق السمع حتى أسمع . وأخلق الأنصت حتى
أنصت ، وما يخاطبك الآن سوى ما خلقت فقال لى : ما أخلق إلا ما علمت
وما علمت إلا ما هو المعلوم عليه فله الحجة البالغة ، وقد أعلمتك بهذا فيما
سلف ، فالزم مشاهدة فليس سواه ، يرجع خاطرك ، ولا تأمن حتى ينقطع
التكليف ، ولا ينقطع حتى تجوز على الصراط »

وهذا هو مقام القومية ، فكل شيء يقوم بالله ومن الله ، وله سبحانه خلق العبد وأفعاله ، يخلق الأشياء عند الأسباب لا بالأسباب — تعالى الله الواحد الوهاب . . .

مقام حلاوة الفتح

وحلاوة الفتح مقام حظي به محيي الدين ونعم ، وهو لذة ربانية وحلاوة الهية يهبها الله لمن يصطفى ويختار من عباده ، يقول محيي الدين : ومن أصحاب هذا الفتح من تلازمه هذه الحلاوة ساعة أو يوماً أو أكثر كل حسب ما يوهب ، فليس لبقائها زمن ، فانه اختلف علينا بقاءها فوقنا ، نزلت علينا في قضية من قضايا الذوق ، فدامت ساعة . ثم ارتفعت . ونزلت في واقعة أخرى فدامت أياما .

وهذه الحلاوة واللذة . لا يمكن أن تشبها لذة من اللذات المحسوسة . لأنها معنوية ربانية . وأثرها في الحس أعظم أثر تنعم به النفس .

وأعظم مذاق لها تنعمت فيه في هذا المقام . لما تلى على « نون والقلم وما يسطرون » فلم أجدا لذة من اللذائد التي نعمت بها أعظم منها فلما تلى « وأنتك لعلی خلق عظیم » ذهبت إلى حال من النعيم أعجز عن وصفه ، فهي أعظم بشارة وردت على ، فالمؤمن فرح بما يوهب لرسوله والمؤمن الكامل له أمل في قطرات من تلك الهبات .

فإذا عطف الحق على عبده بهذه الحلاوة ، فغذبه إليه بها ، منحه علما لم يكن عنده فإذا لم يكن علما ، فليس يجذب ، ولا تلك حلاوة فتح «

والحلاوة التي يقصدها محبي الدين ، هي اللذة التي يعبر عنها إبراهيم بن
أدهم بقوله : « نحن في لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف » وإبراهيم
ذاق اللذتين ، لذة الملك وحلاوة الفيض ، وهي لذة يقول عنها بعض
الربانيين : أنها خلاصة نعيم الجنة المصفى يقطر في قلب المؤمن المختار .
وتلك اللذة الربانية في الدنيا يصحبها الكشف والعلم ، فإذا لم
يصاحبها علم ولا كشف فهي ليست بحلاوة الفتح ، وإنما هي لذة خداعة
من لذائد الحس .

مقام الفناء

وهو مقام المقامات ، وهبة الهبات ، ودرجة المحبين الوالدين الداهلين
عن وجودهم بذهاب حسهم إلى ياريهم ، وحال الفناء ، هو أن تغني بالله
عن خلقه ، فلا ترى شيئاً مع الله . بل الوجود هو رب الوجود ، وواهب
الوجود وخالقه ، أو كما يقول أبو بكر رضوان الله عليه : ما رأيت شيئاً إلا
رأيت الله سبحانه قبله .

وهو حال دقت أسرازه حتى ألتبست ظواهره على الفقهاء ، فرموا فيه
المتصوفة بالعظائم والتبست خواطره وفتوحاته على المتكلمين والمتفلسفين ،
فرموا رجال الله فيه ، بالحلل ووحدة الوجود ، حيث تنادى المتصوفة بأنهم
لا يرون في الوجود إلا الله ، وتجلياته في مخلوقاته ، وهو بحث ليس موضعه
هنا ، فله مكان آخر في هذا الكتاب .

وكان هذا انتقام ، لمحبي الدين ، وهو في فاس في المرة الأولى ، يتحدثنا

قائلا : أخبرني الأستاذ النحوي عبد العزيز بن زيدان ، بمدينة فاس ، وكان ينكر حال الفناء . وكان يختلف إلينا ، وكانت فيه إبانة ، فلما كان ذات يوم ، دخل على وهو فرح مسرور قائلا ، الفناء الذي تذكره ويذكره المتصوفة ، صحيح عندي ذوقا ، فقد شاهدته اليوم ؟ قلت كيف ؟ قال : ألت تعلم أن أمير المؤمنين ، قد دخل اليوم من الأندلس إلى هذه المدينة . قلت بلى . قال . اعلم أني خرجت أتفرج عليه مع أهل المدينة ، فأقبلت العساكر شيئا فشيئا — في منظر جميل أخاذ — فلما وصل أمير المؤمنين في تلك الأبهة والعظمة ، ونظرت إليه بين رهبته وجلاله ، ذهلت حتى فنيت عن نفسي وعن العساكر وعن سائر المشهد حتى لم أر البنود ولم أسمع الكسكات .

ودام هذا الحال معي حتى انتهت موكب أمير المؤمنين فأحسست بنفسي وشعرت بما فنيت عنه من ضغط الناس وألم الزحام وغبار الجماهير . فتحققت أن الفناء حق ، فإذا كان هذا يحدث من مشهد عبد ، فكيف بمشهد الرب ، ذلك هو الحق ، لمن ألقى السمع »

وأقل مراتب الفناء ، كما يقول محي الدين ، تمثله لنا حالة الإنسان إذا استغرق في مسألة من مسائل العلم ، أو أمر ما من أمور الدنيا ، فتحدثه ولا يسمعك ، وتكون بين يديه ولا يراك ، وسبب ذلك أن القلب البشري الذي يسع كل شيء ، لا يتسع لخاطرين في وقت واحد .

القلب لا يتسع لخاطرين في وقت واحد ، ولا لمشهدين . فإما مشهد الحق ، وإما مشهد الخلق ، أو كما يقول الجنيد . من شهد الحق غاب عنه الخلق .

وذلك آية ما بين أصحاب هذا المقام من المتصوفة ، وبين المنكرين عليهم الصائحين بهم لكل مشهد وخاطر .

مقام العبودية — أو الصديقية

العبودية الصادقة أن ترى الله فاعلا لكل شيء وأن تتصف بصفات العبودية الكاملة وأن لا تغفل عن مشاهدة عبوديتك ، وأن تكون أعمالك ما ظهر منها وما بطن ، وخواطرك ما عرف ، وما مات في أغوار النفس مقيدة بهذا التيد محددة بتلك الحدود .

وصاحب هذا المقام يكسوه الحق حلل الجلال والكمال والهيبة ، فينسب إليه من يشاهده تلك الصفات اظهور آثارها عليه . ولكن صاحب هذا المقام لا يتخضع نفسه ، لأنه يعلم أن ذلك لله ومن الله إنه لعبد . تلك حقيقة نفسه ، وحقيقة حبه ، مهما عرف الناس أو لمسوا من حقائقه ومظاهره .

يقول محي الدين « وإذا عرف التلميذ من الشيخ أنه بهذه المثابة ، فقد فتح الله على ذلك التلميذ ما فيه سعادته . فإنه يتجرد إلى جانب الحق بتجرد الشيخ ، فإنه عرف منه ، واتكل على الله لا عليه . وبقي ناظراً في الشيخ ما يجرى الله عليه من الحال في حق ذلك التلميذ من نطق بأمر يأمره به ، أو ينهيه ، أو يعلم يفيده ، فيأخذ التلميذ من الله على لسان هذا الشيخ ، ويعلم التلميذ في نفسه من الشيخ ما يعلمه الشيخ من نفسه أنه محل جريان أحكام الربوبية ، حتى لو فقد الشيخ لم يقيم غير ذلك التلميذ ذلك المقام ، لعلمه بحال شيخه ، كأبي بكر الصديق مع رسول الله صلوات الله عليه حين مات ، فما بقي أحد من الصحابة إلا اضطرب وقال ما لا يمكن أن يسمع ، وشهد على

نفسه في ذلك اليوم بقصوره ، وعدم معرفة رسوله الذي اتبعه ، إلا أبو بكر فإنه ما تغير عليه الحال ، لعلمه بما تم ، فصعد إلى المنبر قارئاً « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » وعرف الناس يومئذ فضل أبي بكر فاستحق الإمامة »

ذلك هو المثال الذي ساقه محي الدين لتوضيح مقام العبودية ، فإن الصديق لكمال عبوديته كان يسمع من الرسول ، ويتوكل على الله ، فتجرد إلى جانب الحق بتجرد إمامه الأعظم صلوات الله عليه فكان يأخذ من الله على لسان نبيه ، فلما انتقل خير عباد الله إلى جوار ربه بقي أبو بكر ناظراً إلى الله ، فلم يشغله الهول الأعظم عن كمال عبوديته .

ثم يقول محي الدين . ورجو إن شاء الله ، أن يكون مقامنا هذا ، ولا يلعبها دعوى غير صادقة ؛ فإنني ذقت هذا المقام ذوقاً لا مزاج فيه . أعرفه من نفسي ؛ وما سمعته عن أحد ممن تقدمني غير أبي بكر .

مقام القربة

والمشهور عن محي الدين في معراج المقامات أن أقصى مراتبه في التحليق إلى الهدى والإيمان هو مقام الصديقية ؛ ولكنه بعد أن ظفر به ؛ يحدثنا عن مقام آخر هو مقام القربة ، وهو مقام الخضر وهو فوق الصديقية ودون النبوة .

وهذا المقام ؛ هو أنسي ما يتطلع إليه أحباب الله . يحدثنا محي الدين عنه فيقول :

« هذا المقام دخلته في شهر محرم سنة سبع وتسعين وخمسة ؛ وأنا

مسافر بمنزل انجيل ببلاد المغرب فتبت في ذلك المنزل فرحا ؛ ولم أجد فيه
أحدا ؛ فاستوحشت من الوحدة وتذكرت دخول أبي يزيد بالذلة والافتقار
ولما دخلت هذا المقام وانفردت به علمت أن حالي فيه لو اطلع عليه أحد
لأنكرني فسحت فيه وتنقلت في منازل ومخادعه ؛ وأنا لأأدرى ما اسمه مع
تحققي به وما أخص الله به من أتاها إياه ؛ ورأيت أوامر الحق سبحانه تترى
ملي ؛ وسفراه تنزل إلى ؛ تبغى مؤانستي وتطلب مجالستي فرحلت وأنا على
تلك الحال من الاستيحاش بالانفراد ؛ والأنس إنما يقع بالجنس ؛ فلقيت
رجلا من الرجال بمنزل يسمى انحال ؛ فصليت العصر في جامعته ؛ فجاء الأمير
أبو يحيى بن واجين وكان صديق وفرح بي وسألني أن أنزل عنده فأبيت
ونزلت عند كاتبه . وكان بيني وبينه مؤانسة ؛ فشكرت الله على ما أنا فيه
من انفرادي بمقام أنا مسرور به ؛ فبينما هو يؤانسي إذ لاح ظل شخص
فنهضت من فراشي إليه عسى أجد عنده فرجا ؛ فعاتقني فتأملته فإذا هو
عبد الرحمن السلمي قد تجسدت لي روحه ، بعثه الله لي رحمة ، فقلت له
أراك في هذا المقام ، فقال فيه قبضت وعليه مت ، فأنا فيه لا أبرح ، فذكرت
له وحشتي فيه وعدم الأنس ، فقال الغريب مستوحش ، فصاحب هذا
المقام ليست الدنيا مقامه ، وبعد أن سبقت لك العناية الإلهية بالحصول في
هذا المقام فأحمد الله ، ومن يا أخى يحصل له هذا ولا يرضى ، ألا ترضى أن
يكون الخضر صاحبك في هذا المقام وقد أنكروا موسى عليه حاله وما قدر
على صحبته .

فقلت يا أبا عبد الرحمن لا أعرف لهذا المقام اسما . فقال لي هذا يسمى

مقام — القرية — فتحقق به فتحقق به ، فإذا به مقام عظيم ، لعلماء
الرسوم من أهل الاجتهاد فيه قدم راسخة ، لكنهم لا يعرفون أنهم فيه ،
ورأيت الإمداد الإلهي يسرى إليهم من هذا المقام . ولهذا ينكر بعضهم بعضاً
لأنهم ما حصل لهم ذوقاً ، ولا يعلمون ممن يستمدون مشاهدة ومكاشفة ،
فكل واحد منهم على حق ؛ كما أن لكل نبي تقدم هذا الزمان الحمدي
شرعة ومنهاج ؛ والإيمان واحد .

فالمجتهدون من علماء الشريعة ورثة الرسل في التشريع وأدلتهم تقوم
مقام الوحي للأنبياء واختلاف الأحكام باختلاف الأحكام ؛ إلا أنهم ليسوا
مثل الرسل لعدم الكشف ؛ لأن الرسل يشد بعضهم بعضاً ؛ وكذلك أهل
الكشف من علماء الاجتهاد ؛ وأما غير أهل الكشف منهم فيخطئ
بعضهم بعضاً .

ومن أسرار هذا المقام معرفة التقديم والتأخير وأسرار الترتيب في كلام
الله ، ولو قال الخضر موسى من أول ما صحبه ، ما أفعل شيئاً مما تراني افعله
عن أمري ، ما أنكره عليه ولا عارضه ، وقد أنطقه الله بقوله « ستجدني
إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً » والصبر لا يكون إلا على ما يشق ،
فلو قدم الصبر على المشيئة كما يفعل الحمدي لصبر ولم يعترض ، فإن الله قدمه
في الأعلام تعليماً لمحمد صلى الله عليه وسلم فمن أراد أن يحصل على علم الله
في خلقه . فليقف عند ترتيب حكمته في الأشياء ، فيقدم ما قدم الله ويؤخر
ما أخر الله . فإن من أسمائه المقدم والمؤخر ، فإذا أخرت ما قدم الله أو قدمت
ما أخره الله ، فهو نزاع خفي ، يورث حرماناً ، قال تعالى « ولا تقولن لشيء

إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » فأخر الاستثناء وقدمه موسى ، فلم يصبر . فلو أخره لصبر .

ولقد رويت في هذا المعنى حكاية عجيبية عن يهودى أخبرنى بها محمد ابن موسى ، قال . كان رجل بالقيروان أراد الحج فتردد خاطره في سفره بين البر والبحر ، فقال إذا كان صبيحة غد أول رجل ألقاه أشاوره فيث يرجع لى أحكم به ، فأول من لقي يهودى فتألم ثم عزم وقال والله لأسأله . فقال يا يهودى أشاورك في سفرى هذا . هل أمشي في البر أو في البحر . ؟ فقال له اليهودى . يا سبحان الله ، وفي مثل هذا يسأل مثلك ، ألم تر أن الله سبحانه يقول لكم في كتابه . « هو الذى يسيركم في البر والبحر » فتقدم البر على البحر ، فلو لا أن لله فيه سراً ما قدمه ، وهو أولى بكم ، الا إذا لم يجد للمسافر سبيلا إلى البر ، قال . فتعجبت من كلامه وسافرت في البحر فلقيت خيراً كثيراً .

وقد أنكر الإمام الغزالي هذا المقام ، بصفة عامة ، وقال ليس بين الصديقية والنبوة مقام . ومن تخطى رقاب الصديقين وقع في النبوة ، والنبوة باب مغلق . »

وحجى الدين لم يقتل أبداً ، بأن الولي يرقى مرقى النبوة ، فلا نبوة ولا رسالة بعد أن ختم بأشرف خلق الله ، بل يقول في رده على الغزالي ، هذا فضل الله بهبه لمن يشاء ، وليس على أفضال الله قيد ولا لبشر أن يتحكم في عطاياه ، ومن ذاق عرف . وليس لمن لم يذق حكم على من ذاق .

وحجى الدين يقول أيضاً أن هذا المقام قد يعطى علماً لاذوقاً لعلماء الرسوم

أى علماء الفكر والاجتهاد والتبحر فى المعارف . وهم يختلفون فى علومهم ،
لعدم تذوقهم ، ولا اعتمادهم على الأدلة التى تصيب وتحطى ، بخلاف الذوق
عند أهل الكشف والفيض .

وهو هنا كعادته — خلافاً للمتصوفة — يعلى من شأن علوم الفكر
والعقل والاجتهاد ، حتى ليقول بصوابهم جميعاً على اختلافهم وتلاحيهم ،
وهذا ما لم يقولوه هم أنفسهم . ما دام الاختلاف والتلاحى فى الفروع
لا فى الأصول .

وتلك سماحة فى فهم الدين ، وهذا اجلال للعقول ، يدل على راحة
أفق وسعة صدر أمام المتصوفة ، المتصوفة الذين هوجموا أمر الهجوم واعنفه من
رجال الفقه والاجتهاد .

وهذا المقام ، أكمل لحى الدين ما قدر له من عطايا ربه وهو مقام
ليعلمون عظيم .

شعرة محمدية

فإذا ظفر محى الدين ، بكل تلك الهبات والعطايا ، وإذا نعم بالمقامات
العليا ، كالصديقية والقربة ، فماذا بقى ؟ يقول محى الدين أن الفتح على قدر
الهمة ، ومحى الدين يحمل بعزماته الجبال ، وعطايا الله سبحانه لا حدود لها .
يقول محى الدين ، أنه ظفر بعد ذلك بهدية دونها كل الهدايا ، هدية
لم تكن عن سؤال ، وإنما كانت عن عناية ورعاية .

وتلك الهدية عبارة عن شعرة من الرسول صلوات الله عليه ، ويقول لنا أنه

أوجس في قلبه خيفة ، وخشي على نفسه ، فقد كاد أبو زيد البسطامي أن يهلك قبله ، حينما خيل إليه أنه أهل لشيء أكبر من طاقته ، ولنترك محي الدين يحدثنا .

« وقد حصل لنا منه صلى الله عليه وسلم شعرة ، وهذا كثير لمن عرف ، ولما أطلعني الله سبحانه على ذلك لم يكن ما نلت عن سؤال ، وإنما كان عن عناية الله ، ثم أنه أيدني فيه بالأدب رزقا من لدنه وعناية بي ، فلم يصدر مني ما صدر من أبي اليزيد .

فلما جاء الأمر ، وأخذت أرق وتكشف لي أمورا بفضل تلك المنحة ، علمت أن ذلك خطاب ابتلاء لا خطاب تشریف ، على أنه قد يكون بعض الابتلاء تشريفا ، فتوقفت وسألت الحجاب .

ولكني منحت الشعرة اختصاصا الهيا ، فشكرت الله على الاختصاص بتلك الشعرة ، غير طالب بالشكر الزيادة ، وكيف أطلب الزيادة من ذلك ، وأنا أسأل الحجاب الذي هو من كمال العبودية .

وبتلك المنحة ، تم لمحي الدين أكمل ما ينال عباد الرحمن الذين اصطفاهم لعلمه . واجتباهم لمحبه ورضاه .

محبي الدين والكرامات

ومحي الدين ، لا يذكر معراجة في المقامات ، وتقلبه في الأحوال ، وأحاديثه المنامية مع الرسول صلوات الله عليه ، وحضوره في مشاهد الحق سبحانه ، ليفتخر بكرامة ، أو يدل بهبة ، أو يتيه على الناس بحظوظ وعطايا ،

محي الدين قد تحقق من مقام العبودية وذاقها ؛ وهي أسنى المراتب وأعلاها ؛
وليس من شذاها جنوح إلى فخر أو ميل إلى تيه وتكبر .

بل انه تلخص للكرامات وطلابها ؛ وما رأيته يعنف في نقاش ؛ وما
رأيته يقسو في جدال ؛ إلا حين يغمس قلمه القوي العبقري ؛ في تلك
الأحاديث ؛ ويتناول بأنامل أستاذيته المرشدة ؛ آذان أصحابها .

فهو يراها حلي براءة للعاطلين من سواها ؛ يشغل بها من تبعد به
أجنحته عن التحليق في آفاق أعز وأكرم .

والكرامة المعنوية ؛ عند محي الدين هي أعلى ألوان الكرامات ؛ التي
لا يعرفها إلا الخواص من عباد الله سبحانه ؛ وهي هدفه ومبتغاه .

وليس العامة في تلك الكرامة نصيب ؛ وليس لطلاب الأولى سهم هنا
والكرامة المعنوية ؛ هي أن يحفظ الله سبحانه للعبد المختار ؛ آداب
الشريعة ؛ وأن يوقفه لإتيان مكارم الأخلاق ؛ واجتناب سفاسفها ؛ والمداومة
على الواجبات في أوقاتها ؛ والمصارعة إلى الخيرات وإزالة الغل للناس من
صدره ، والحسد والحقد وسوء الظن ، وطهارة القلب من كل صفة مذمومة ،
وتحليته بالمراقبة مع الأنفس .

أما الكرامة المادية التي يعرفها العامة ، فكلها يمكن أن يدخلها المكر
السئ ، أو الاستدراج الخفي ، الذي لا تؤمن عقباؤه ، بل هي على أحسن
حالاتها وفروضها ، جزاء وفاقا على أعمال طيبة ، وعبادات متتابعة ، ومن
تنعم في الدنيا على أعماله ، فقد أخذ جانباً من الجزاء ، فيخفف له العطاء
يوم العطاء .

463
سئل أبو اليزيد البسطامي ، عن طي الأرض . فقال ليس بشيء ، فإن
ابليس يقطع من المشرق إلى الغرب في لحظة ، وما هو بمكان عند الله .
وسئل عن اختراق الهواء ، فقال . إن الطير ليخترق الهواء ، والمؤمن
عند الله عقلا وشرعا أفضل من الطير ، فكيف يحسب كرامة من شاركه
فيها طائر ،

ثم قال إلهي . ان قوما طلبوك لما ذكروه ، فشغلهم به .. وأهلتهم له .
مهما أهلتني شيء فأهلتني شيء من أشيائك ، أي من أسرارك .
فما طلب أبو اليزيد ؛ إلا العلم . والعلم أفضل ما في فضل الله قال تعالى
« آتينا رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » .

فالعلم أفضل الكرامات المعنوية ؛ وهي الكرامة التي ظفر بها
محي الدين ؛ فخلد في دينه وفاز برضوان الله .

بين الشطح والفتوة

وكما كان محي الدين من خصوم الكرامات المادية ؛ فهو أيضاً من
خصوم الشطح والشاطحين ؛ لأن الشطح لون من ألوان الفخر ؛ أو لون من
ألوان المباهاة والتطاول ؛ وأصله دعوى ينصح بها الشاطح عن مرتبته التي
أعطاه الله له ؛ من غير أمر إلهي على طريقة الفخر .

والشطح ذلة المحققين ؛ أو كما يقول محي الدين . « لقد وقع من بعض
الأكابر ولا أسميهم لأنه صفة تقص . وأما من سواهم فلا كلام لنا معهم ؛
لأنهم رعا ع بالنظر إلى هؤلاء السادة ؛ وإذا وقع مثل هذا من السادة ؛
فعلينهم يقع العتب منا » .

وليس الشطح من الفتوة كما يدعون ، فالفتى لا يراعى الخلق ؛ ولا يتعالى عليهم ؛ لأن تعالى انه هو الله سبحانه وتعالى ؛ وأصل الفتوة أن تخرج عن حظ نفسك ايثاراً لحظ غيرك ؛ وحقيقتها أن يؤثر الإنسان العلم الوارد من الله على أسنة الرسل على هوى نفسه ؛ وعلى أدلة عقلاءه ؛ وما حكم به فكره ونظره .

هذا هو الفتى . فإذا ورد على نفسه خاطر أو همه بأنه أمر الهى يعارض الشرع المقرر ؛ فقد خيل له أو التبس عليه . فيرمى به ولا يلتفت إليه ؛ ويرجع إلى حكم الشرع الثابت ؛ فإنه قد ثبت عند أهل الكشف جميعاً ؛ أنه لا تحليل ولا تحريم ؛ ولا شيء من أحكام الشرع ؛ بعد انقطاع الرسالة والنبوة . لأحد من خلق الله .

وقد وقفنا بقوم من أهل الله ، ممن التبس عليهم هذا المقام ، والتبست عليهم الواردات فشطحوا وتفاخروا ، فابتعدوا عن ربهم ، فإنه لا يكون الشاطح عند شطحه ولياً لله أبداً »

ذلك هو الرأى الفصيل لحى الدين ، فى الكرامات المادية ، والمتفخخين من الشاطحين الذين اغوا فى محاريب العبادة بما لا ينبغى .

وما كان محى الدين ، وما ينبغى له . ولا ينبغى أن يظن به — إذا حدثنا عن فتوحاته ومقاماته — ظن السوء ، من دعوى الغرور والتباهى ، فهو إنما يتحدث للعلم والإرشاد ، وليضع بين أيدينا تلك الكنوز التى تفيض بها كتبه ، ويترخ بها تراثه .

وإذا أكمل لحى الدين بعروجه فى تلك المقامات ، ما قدر الله له من

منح وهبات ، فقد آن له أن يتنقل في آفاق العالم الإسلامي هادياً إلى الله
بالطيب من القول والعمل ؛ ومبشراً بآياته ، بالرائع من الحجج والبرهان ؛
وسراجاً وهاجاً يرشد إلى النجاة ؛ كما يرشد إلى الإيمان .

محي وملك المغرب

كما جابت أفكار محي الدين ؛ آفاق السماء ؛ وتنقلت في أبراجها ؛
كذلك كانت حياته رحلات وتنقلات في جنبات الأرض ؛ مطوّفاً وزائراً ؛
وعابداً ومقيماً .

وكان سنن العلماء في هذا العصر التنقل والتطواف . في رقعة العالم
الإسلامي العظيم المتحد الممتد من أوروبا إلى هضاب الصين وسهول الهند .

كان العلماء ، يتلاقون ويتجادلون ، ويأخذ بعضهم من بعض
بما درس وتعلم وحفظ ، ويفضّض بعضهم إلى بعض ، بما منح وأعطى .

وكان العالم الإسلامي يقود الدنيا ويفرض عليها سلطانه ، بسيوفه
ورماحه ، وعلومه وآدابه وكشوفه الفنية والروحية ، كما كانت تعلى في
باطنه أحداث جسام ، بعيدة الأثر في حاضره وغده بل في حاضر العالم كله
وغد الإنسانية بأسرها .

كان الصبيون يقرعون أبواب الشرق الأوسط ، ويتصارعون مع
فرسان مصر وأبطال الأيوبيين على ثالث الحرمين ، وأولى القبلتين .

وكان المرابطون ، وهم فئة ناثرة بالسيف ، غضوبة بالرمح ، يعيشون
بأمن المغرب الأقصى ويفسدون ، وتسل سيفهم عروش ملوكه وسادته .

وكان للعلماء ورجال التصوف خاصة هنا وهناك ، قوة رهيبة ، تقود
الجهال وتوجهها ، وتجلب الملوك وتتقرب إليها ، ويتزلف إليها السادة والأمراء .
فلا عجب إذا رأينا ملك المغرب المهدد بثورة المرابطين ، يسعى إلى
محي الدين ، الذى بزغ نجمه ، وأشرق أفقه ، وعرف اسمه ومكانه فى دنيا
التصوف وعالم البيان واللسان . ولا عجب إذا سعى محي الدين إليه . يدق
صدره آمال كبار ، فى أن يوجه هذا الملك وجهة صوفية روحية . وبالتالى
يوجه شعبه إلى تلك المناهل والينابيع .

وكانت رحلة محي الدين الأولى إلى المغرب فى مطلع عام تسعين
 وخمسة من التاريخ المجرى أى ومحي الدين فى الثلاثين من عمره .
وتقلد محي الدين وهو فى روق الشباب وفورة الحياة عمله الجديد .
موقعا على المراسيم ومنشأ للرسائل . ومرىيا لأبناء البيت المالك .

وهى وظيفة أشبه بالوزارة . وإن كانت أرحب منها أفقا . وأعظم
نفوذا . وألصق بالملك وأقرب . وهى مكانة تتصارع حولها الأهواء والغايات
وتنصب لها المكائد والشباك . ولقد اصطلاها محي الدين وهو رجل الروح
والدين : والطهارة والصفاء : فاصطلى جوا عجبا .

ولكن محي الدين . وهو من عرف كرامة وآباء . وعلما رابانيا وأدبا
نبويا ونهجا صوفيا . وهى صفات شديدة الخطورة فى هذا الجو . شديدة
الخطورة فى بلاط الملوك . لم تطب له تلك الحياة أو لم يطب هولها . ف وقعت
النفرة سريعا بينه وبين الملك . وبينه وبين رجال الحاشية . وظن به الملك
الظنون . ولمزته البطانة وغمرته فى نهجه وطريقه ؛ ومذاهبه وتفكيره

ويعود محي الدين إلى أشبيلية بالأندلس ؛ مقر نشأته ومرتع صباه ؛
ويخلق في آفاق العلم والمعرفة ما شاء له الله .

ثم يطرق سمعه بعد أعوام دعوة إلى المغرب من جديد . بواسطة الشيخ
الصوفي أبو عبد الله بن المراتب ؛ صديق الملك ومرشده الروحي ؛ وحبيب
محي الدين ؛ المتدبر له ؛ والذي كان سببا مباشرا في رحلة محي الدين الأولى
وتمشى الريح رخاء طيبة بين الملك ومحي الدين . فقد فطن محي الدين
إلى عبرة الحوادث الأولى ؛ فطوى جوانحه على أعنف آرائه ؛ وترفق أكثر
الرفق بالبطانة والحاشية ؛ وما إلى البطانة والحاشية من ذيول وأذنان .
واطمأن الملك إليه . فأطلق يده في شئون مملكته ، يقومها على النهج
الصوفي ويدفعها دفعا إلى التعاليم التي عرفت عن محي الدين وعرف بها .
ولعل تلك الحادثة التي يرويها لنا في الفتوحات توضح لورف الحياة
ولون الأعمال التي كان يقوم بها في عمله الجديد .

يذكر لنا محي الدين . أن من الملائكة طائفة تطوف سائحة في الدنيا
تطلب مجالس الذكر في الأرض ؛ فإذا وجدوا أهل الذكر وهم أهل القرآن
نادى بعضهم بعضا : هلموا إلى بغيتكم ؛ فيحنون بالذاكرين ؛ ويسطون
لهم أجنحة الرحمة ؛ ويدعون لهم أطيب الدعاء وأرجاء في الأجابة .
وتلك المجالس القرآنية ؛ هي رزق هؤلاء الملائكة ؛ وبها يعيشون ؛
وعليها وبها تقوم حياتهم .

ثم يقول : « وواجب الإمام أو الحاكم ؛ أن يقيم جماعة تتلوا آيات

الله بالليل والنهار . تقربا إلى الله واستجلابا لرحمته . ورزقا لتلك الطائفة
من الملائكة »

ثم يقول أيضا : « وقد كنا في بلاد المغرب . قد سلطنا هذا المسلك
بموافقة أصحاب موقنين كانوا لنا سامعين وطائعين . فققدناهم فققدنا بفقدهم
هذا العمل الخالص . وهو أشرف الأرزاق وأعلاها »

وهو هنا صريح في حديثه عن الأصحاب الموافقين الذين كانوا لحديثه
سامعين . وهي تكنية جميلة . فلم يرد أن يذكر اسم الملك في موقف
العتاب . لأنه كما سئري لا يزال يحمل له ودا خالصا ويرجو آملا حار الأمل
في العودة إليه

كما نلمس أيضا . أنه أشبه بمن أكره على مغادرة عمله ، فهو ناثر
العاطفة . لمن قد قدم فققد بفقد النفوذ والقدرة على هذا العمل الخالص ، وهو
أشرف الأرزاق وأعلاها

ثم يقول : « فأخذنا لما فقدنا مثل هؤلاء ، في بث العلم من أجل
الأرواح التي تتغذى بالذكر ، ورأينا ألا نورد شيئا منه ، إلا من أصل هو
مطلوب لهذا الصنف الروحاني وهو القرآن »

فجميع ما نتكلم فيه في مجالسي وتصانيفي ، إنما هو من حضرة القرآن
وخزائنه ، أعطيت مفاتيح الفهم فيه . والامداد منه ، وذلك أرفع ما يمنح ،
ولا يعرف قدره ، إلا من ذاقه وشهد له

ويذكر لنا محيي الدين أنه أخذ في مجالسه العلمية ، وفي كتبه التي
ابتدأ في تأليفها ، يبث علما من نوع العلم الذي تتغذى به أرواح الملائكة ،

٥٩
وهو العلم المستمد من حضرة القرآن وخزائنه . حتى لا ينقطع هذا العمل
الطيب ، الذى بدأه بمعاونة الملك وهو إقامة الدارين بالقرآن ليلاً ونهاراً
ويطوف محي الدين بالأرض ، وقلبه معلق بأمير المغرب وسيده ،
الذى أخلص له الحب والمودة فلم يجد لحيه ولا لمودته جزاء إلا هذا الفراق ،
الذى أكره عليه ، ولم يردده .

ويأخذ فى تأليف كتابه الخالد ، الجامع المانع ، الفتوحات . فيكتب
وعينه على الملك الحبيب ، بل يكتب لأنه يريد أن يعرف صديقه بننون
من المعارف حصلها بعد أن فارقته ، ثم يتقدم خطوة أخرى أفصح وأوضح ،
فيقول أنه يريد أن يهدى إليه هذا الكتاب بما فيه من جواهر العلم
وكنوز المعرفة ، وآيات الحكمة التى يؤتيها الله سبحانه من يشاء
ولنترك محي الدين يحدثنا عن القصة كلها . بما فيها من وفاء وولاء
وحب صادق ، وعتاب وفراق ، وتلك القصة جعلها محي الدين مقدمة وسبباً
فى تأليف الفتوحات

« فاعلم أيها العاقل الأديب ، والولى الحبيب . أن الحكيم إذا نأت
به الدار . عن قسيمه وحالت صروف الدهر بينه وبين حميمه ، لا بد أن
يعرفه بما اكتسبه فى غيبته وما حصله من الحكمة ، فكأن وليه ما غاب
عنه . بما عرف منه ، وإن كان الولي أبقاه الله . قد أصاب صفاء وده كدر
لعرض : وظهر منه أقباض عند الوداع لتتم غرض ، فقد غمض وليه عن
ذلك جفن الانتقاد . وجعله من الله . أبقاه الله من كريم الاعتقاد إذ لا يهتم
بك إلا من يسأل عنك . فليهنأ الولي أبقاه الله . فأن القلب سليم ، والود

كما يعلم بين الجوانح مقيم ، وقد علم الولي أن الود فيه كن إلهيا ، لا غرضيا
 ولا نفسيا ، وثبت هذا عنده قديما عني من غير علة ولا فاقة إليه ولا إقالة .
 ولا طلب لثوبة ، ولا حذر من عقوبة ، وربما كان من الولي في الرحلة
 الأولى ، التي رحلت إليه سنة تسعين وخمسة ، عدم التفات فيها إلى جانبي
 وفور عن الجري على مقاصدي ومذاهبي ، لما لاحظت فيها من النقص ،
 وعذرتني في ذلك فإنه أعطاه ذلك مني ظاهر الحال ، وشاهد النص . فإني
 سترت عنه وعن بنيه ما كنت عليه في نفسي ، بما أظهرت لهم من سوء
 حالى وشرة حسي ، وربما كنت أسألمهم أخيانا . على طريق التنبيه . فيأبى
 الله أن يلحظني واحد منهم بعين التنزيه ، ولقد قرعت أسماعهم يوما في
 بعض المجالس ، والولي في صدر ذلك المجلس جالس . بأبيات أشدتها ،
 وفي كتاب الأسرار أودعتها . وهى :

أنا القرآن والسبع المثاني	وروح الروح لا روح المعاني
فؤادى عند معلومى مقيم	يناجيه وعندكمو لسانى
فلا تنظر بطرفك نحو جسمى	وعد عن التعمم بالمعاني
وغص في بحر ذات الذات تبصر	عجائب ما تبدت للعيان
وأسرار تراءت مبهمات	مسترة بأرواح المعاني

فوالله ما أشدت من هذه المتطوعة بيتا ، إلا وكأني أسمعته ميتا ،
 وسبب ذلك حكمة كنت أبني رضاها ، فما كان إنشادى لهم مع معرقى
 بقلة حرمتى عندهم إلا حاجة في نفس يعقوب قضائها »

تلك هي الرحلة الأولى ، وها حديثها ، ثم يتحدث عن الرحلة الثانية بمودتها وما فيها من صفاء وولاء فيقول :

« ثم كان الاجتماع بالولي تولاه الله بعد ذلك بأعوام ، في محله الأسنى ، وكانت الإقامة معه ، تسعة أشهر دون أيام . في العيش الأرغد الأهنى ، عيش روح وشبح ، وقد جاد كل واحد منا بذاته على صاحبه وسمح . ثم افترقنا ونحن على هذه الحال ، لانحراف قام ببعض هذه المحال . فإني كنت نويت الحج والعمرة ، ثم أسرع إلى محله الكريم ، بصخرة المقدس ، وزيارة سيد ولد آدم ، ديوان الاحاطة والاحصاء .

أقام الله في خاطري أن أعرف الولي أيقناه الله . بفنون من المعارف حصلت بها في غيبي وأهدى إليهِ أكرمه الله . من جواهر العلم التي اقتنيتها في غربتي ، فقيدت له هذه الرسالة ، اليتيمة التي أرجدها الحق لأعراض الجبل تيممة . ولكل صاحب صفي ، ومحقق صوفي .

وسميتها رسالة الفتوحات المكية . في معرفة الأسرار المالكية والملكية . إذ كان الأغلب فيما أودعته هذه الرسالة ما فتح الله به على عند طوافي بيته المكرم أو قعودي مراقباً له بحرمه المشرف المعظم ، وجعلتها أبواباً شريفة وأودعتها معاني لطيفة ، فإن الإنسان لايسهل عليه شدائد البداية ، إلا إذا وقع بصره على الغاية ، ولا سيما إن ذاق من ذلك عذوية الجنى ، ووقع منه موقع الننى .

فإذا حصر الباب البصر ، وزدد عليه عين بصيرته الحكيم فنظر ، فاستخرج الآلىء والذرر يعطيه الباب إذ ذاك ما فيه من حكم روحانية

ونكت ربانية ، على قدر نفوذ فيه ، وقوة عزمه وهمه واتساع نفسه . من
أجل غطسه في أعماق بخار علمه .

لما لزمتم قسرع باب الله كنت المراقب لم أكن بالآهي
حتى بدت للعين سبحة وجهه وإلى هلم لم تكن إلا هي
فأحطت علماً بالوجود فما لنا في قلبنا علم بغير الله
لو يسلك الخلق الغريب محجتي لم يسألوك عن الحقائق ما هي ؟

تلك هي قصة محيي الدين مع ملك المغرب الذي وفى له في حضوره
وغيايه ، والذي أمل منه أن يكون سبباً في نشر تعاليم الصوفية في ربوع
المغرب ، ولكن قرناء سوء ، أفسدوا ما بين الصديقين .

وفي ختام القصة ، لمحات تنفث عندها العقول . فقد أودعها سر الفتوحات
بل سر الفهم والإدراك ، لأسرار علمه ، وعجائب كشفه .
فهو يقول : أن الإنسان لا تسهل عليه شذائد البداية ، إلا إذا وقع
بصره على الغاية ، وتلك آية في فهم محيي الدين .

فبو في مطلع أبوابه في الفتوحات ، ياغز في شعره ، ويهيم في قوله ، فإذا
أخذت الألباز ، وأخذ الأبهام ، بنفس القاري . قطع وأغلقت عليه المعاني
أما إذا سبج معه سباح طويلاً ، حتى يصل إلى نهاية الباب وغايته .
تكشفت له البدائع ، وسهلت عليه البداية ، كما سهلت وتسهل عليه
معاني الغاية .

ثم يقول : إذا حصر الإنسان بصره ، على باب من أبواب الفتوحات
وردد عليه بصيرته ، استخرج اللائح والدرر ، وأعطاء الباب ما فيه من

حكم روحانيه . ونكت ربانية ، ويعطى كل على قدر فهمه ، وقوة عزمه ،
واتساع نفسه في الغوص ، وخوض جيج العباب .

محبي الدين لأصحاب الهمم والعزيمات ، ومهرة الغواصين وجبايرة
السابحين ، لأهل الأشرق والنور والصفاء ، محبي الدين لهولاء ، وقليل
ما هم .

أما فاطر العزم ، خائر القوى ، مطموس البصيرة ، زائغ البصر ، ضيق
النفس ، فليلتبس له سهلا هينا ، يضرب على حوافيه ، وليدع القمة
للمخلقين الفاتحين .

إلى الأرض المقدسة

فارق محبي الدين مكانه في المغرب ، بعد تسعة أشهر دون أيام ، في
العيش الأرغد الأهنئ ، لانحراف الحال بينه وبين سلطانه ، معتزما الحج
والعمرة ، وزيارة سيد ولد آدم ، ثم الأسراع إلى ثالث الحرمين وأولى
القبليتين ، ثم التطواف بالعالم الإسلامي .

ويؤرخ لنا محبي الدين . تلك الحقبة من حياته . فيقول : بعد أن
يتحدث عن خواطر نفسه . وعن ليلة ليلاء . طوف فيها فكره . ثم استسلم
أخيرا إلى الكرى .

« كشف لي في منامي . عن نور العرش . فرأيت طيورا حسنة . تطير
في زواياه . فرأيت فيها طائرا من أحسن الطيور . فسلم على . فألقى لي فيه .
أن آخذه صحبتي إلى بلاد المشرق . وكنت بمدينة مراکش . حين كشف

لى عن هذا كله . فقلت ومن ؟ فقيل لى : محمد الحصار . بمدينة فاس .
سأل الله الرحلة إلى بلاد الشرق . فخذ معك . فقلت السمع والطاعة .
فقلت له : وهو عين ذلك الطائر : تكون صحبتى إن شاء الله .

فلما جئت إلى مدينة فاس . سألت عنه . فجاءنى . فقلت له : هل
سألت الله فى حاجة . فقال نعم : سألته أن يحملنى إلى بلاد الشرق . فقيل
لى أن فلانا . يحملك . وأنا أنتظرك من ذلك الزمان . فأخذته صحبتى سنة
سبع وتسعين وخمسة وأوصلته إلى الديار المصرية . ومات بها . » .

رأى محي الدين . أرواح الصالحين . تطوف وتطير فى نور العرش .
ورأى رجلا صالحا تمثلت روحه فى هيكل طائر جميل . وهذا الطائر أو هذا
الرجل ينتظره ليذهب معه إلى المشرق . فعلم أنه قد أذن له فى الرحيل .
والتقى بصاحبه على قدر قد قدر . فوجها ركبهما معا إلى أرض النيل . وهو
فى السابعة والثلاثين من عمره .

وفد محي الدين إلى مصر . تتقدمه عواصف ضخمة حول علومه
ومعارفه . وكشوفاته القلبية والروحية ، وتلقاه العلماء ورجال النقه بالجفاء .
فعدوا له حلقات المناظرة والجدل . ونفخوا عليه بالحد والموجدة . فلم
ينالوا من مكانته شيئا . بل كانوا كما يقول الياقنى . حكمهم حكم
ناموسة . فنجت على جبل تريد إزالته .

فلما طويت صحف عالمهم . وبرزت آيته واضحة مبصرة ، سعى به
السفهاء من العلماء الذين يقتاتون بالحد ، ويتعبدون فى محاريب الغل

والحسد ، إلى حاكم مصر ، ناسين إليه الافك والبهتان والأغراض السياسية
الخيثة والأهواء الدينية المارقة ، مطالبين بإعدامه وهدر مقامه . ولكن الله
الذى رعا بعنايته حفظه ، فأتاح له رجلا من رجال العلم والجاه ، هو الشيخ
أبو الحسن البجائي القاضي النقيع العابد ، فشفع له لدى سيد مصر ، ثم
جمع بينهما ، ففتن به حاكم مصر واجله ، والتمس منه البقاء في مصر وله من
مناصبها ما شاء ، فأبى محي الدين شاكرا ومقدرا ، ثم استأذنه في الذهاب
إلى الحج لأنه على عهد ، فأذن له .

في بيت الله الحرام

ولى محي الدين وجهه قبل المسجد الحرام ، مشوب العاطفة ، تأثر
القلب ، أنه لمشوق إلى البيت المعمور ، مشوق إلى النبر والروضة والحبيب ،
مشوق إلى الأرض المباركة التي طوف بها الأنبياء وهبطت إلى ساحتها
الملائكة ، وفي ليلة من ليالى البدر ، هادئة الريح معطرة الأنفاس ، هبط
محيي الدين إلى مكة .

يقول الفيروز بادى ، ما - وصل الشيخ مكة شرفها الله . كان البلد إذ
ذاك ، جمع العلماء والحدثين ، وأهل الفتيا والبيان ، ولكن الشيخ نزل
بينهم كالقمر بين النجوم ، فكان هو المشار إليه بينهم في كل علم تكلموا
فيه ، وكانوا كلهم يتسارعون إلى مجلسه ، ويتبركون بالحضور بين يديه ،
ويقرون عليه تصانيقه »

ولزم محي الدين بيت الله لا يفارقه ، واتخذ من الركن اليماني ، محجة

ومدرسة ، يلقي فيها درسه ، ويقرأ كتب الرجال ، كالتموت والاحياء ، وفي بيت الله ألف أخذ كتبه وأبقاها على الحياة ، بل أخذ كتاب ، تفجر من ينابيع القلوب ، وكشوف النور ، وخزائن القرآن ، — الفتوحات المكية — الكتاب الذي أعجز الأفكار والعقول في عصره ، ولا يزال يعجزها ، وسيعجزها ليكون حجة على الناس . وآية للعلم الرباني الموهوب للصفوة المختارة من عباده ، وإيضاف به صاحبه إلى الرعيل المجتبي ، الذي يقول فيه تبارك وتعالى « وعلمناه من لدنا علما » .

يقول محي الدين عن الفتوحات ، والأغلب فيما أودعته هذه الرسالة ما فتح الله به على عند طوافي بيئته المكرم ، أو قعودي مراقبا له بحرمه المشرف المعظم ..

وهو يعلل الفتوح العظمى التي هبطت عليه بمكة ، بقوله « وكما تتفاضل المنازل الروحانية كذلك تتفاضل المنازل الجسمانية ، وقد تجد قلبك في مسجد أكثر مما تجده في غيره من المساجد ويقول . إن الملائكة تعمر جميع الأرض ، وأعلام رتبة ، وأعظمهم علما ومعرفة ، عمرة المسجد الحرام ، وعلى قدر جلسائك يكون وجودك ، فإن لهمم الجلساء في قلب المجلس تأثيرا ، وهمهم على قدر مراتبهم ؛ وقد طاف بالبيت ؛ مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألفا . سوى الأولياء ؛ وما من نبي ولا ولي ؛ إلا وقد ترك همته متعلقة به ؛ لأنه البيت الذي اصطفاه الله على سائر البيوت .

هذا هو البيت ؛ وذلك هو المقام . الذي فتح له فيه معراج هبطت

عليه فيه كشوفات الفتوحات المكية ؛ ومن نور هذا المكان وجلاله ؛ كان
نور الفتوحات وجلالها .

لقد وجد قلبه هنا ؛ ووجد آثار الهمم والعزيمات ؛ المتبقية من طواف
الأنبياء والأولياء بالبيت المعمور ؛ وعلى قدر الجلساء يكون الجليس ؛ وعلى
قدر المرتبة تكون الهمة ؛ وعلى قدر الهمة يكون الأثر ؛ ومن يرد أن يعرف
همة محيي الدين ؛ فليتمس بابا لها بين منازل الفتوحات ..

المرأة في حياة محي الدين

محيي الدين ، هو أعلم رجال التصوف ، ولهذا هو أرحبهم أفقا ،
وأوسطهم طريقة ، ومن هنا جاءت آرائه معتدلة محكمة . أعطت ما لله لله . ولم
تنس الحياة . فلم يعيش داخل الكهوف والمغارات . ولم يعتزل الناس والدنيا
بل كان جليس الملوك . القائم ببعض أعباء حكمهم . المساهم في أحداث
الوجود ، الطواف بالأرض . هاديا ومرشدا ومعلمًا .

ومن ثم جاءت نظرتة إلى المرأة وإكباره ، بل وحبها لها ؛ الحب الحلال
الشريف ؛ الحب الديني المأثور في الكتاب والسنة .

وحب النساء عنده ميراث نبوي ، وحب الهى ، فقد قال الرسول
صلوات الله عليه ، « حب إلى من دنياكم ثلاث ، الطيب والنساء ، وقرة
عيني في الصلاة » ، فلم ينسب حبه فيهن إلا إلى الله سبحانه ولهذا
قال — حب —

وكال العارفين في هذه المحبة ، فلا يجوز الاعراض عنهن زهدا ، لأنه
لا يحجب إلى الرسول صلوات الله عليه ما يبعده من ربه ، بل حب إليه
ما يقربه منه ، ولهذا يؤجر الرجل على ضلته بامرأته .

فحين فريضة واقترء بالرسول ، وحنين الرجل إلى المرأة ، فطرة
في النفس ، فهو حنين الكل إلى الجزء ، وما جاء الإسلام لينحارب الفطرة
أو يوقف في وجهها ، فالدين هو الفطرة التي فطر الله سبحانه الناس عليها .

ولا يستقيم المزاج ، إذا تعارض مع الفطرة ، وفي صلاح المزاج صلاح
لدين ، وفي صلاح الدين السعادة ، بشرط خضوع الإنسان ، لميزان الإلهي ،
الذي أتى به الشارع صلوات الله عليه .

وفي حياة محبي الدين ثلاث نساء ، أولاهن ، عابدة زاهدة ، عرفها
باشيلية في مطلع شبابه فكانت له إماروخية ، يحدثنها عنها في الفتوحات
فيقول :

«وخدمت أنا بنفسى امرأة من الحبات العارفات باشيلية ، يقال لها
فاطمة بنت المثنى القرطبي خدمتها سنين ، وهي تريد وقت خدمتى إياها ،
على خمس وتسعين سنة ، وكنت أستحي أن أنظر إلى وجهها في هذا السن ،
من حمرة خديها ، وحسن نعمتها وجهها ، تحسبها بنت أربع عشرة سنة من
نعومتها وإطافتها ، وكان لها حال مع الله ، وكانت تؤثرنى على كل من يخدمها
من أمثالى ، وتقول مارأيت مثل فلان ، إذا دخل على دخل ب كله لا يترك منه
خارجا عني شيئا ، وإذا خرج من عندى خرج ب كله لا يترك عندى منه شيئا
وسمعتها تقول ، عجبت لمن يقول ، أنه يحب الله ولا يفرح به ، وهو مشهود ،
عينه إليه ناظرة في كل عين ، ولا يغيب عنه طرفه عين ، فهو لاء البكاؤون
كيف يدعون محبته ويبيكون ، أما يستحون ؟ إذا كان قربه مضاعفا من
قرب المتقربين إليه ، والمحبة أعظم الناس قربة إليه ، فهو مشهوده ، فعلى
من يبيكن ، ان هذه لأعجوبة ؟

ثم تقول لى يا ولدى ، ما تقول فيما أقول . فأقول لها يا أمى القول
قولك ، قالت انى والله لتعجبة لقد أعطانى حبيبي فاتحة الكتاب . تخدمنى

فوالله ما شغلتنى عنه ، فمن ذلك اليوم عرفت مقام هذه المرأة لما قالت . أن فاتحة الكتاب تخدمها ، فينما نحن قعود إذ دخلت امرأة ، فقالت لى يا أخى أن زوجى فى « شريش » وأريده فماذا ترى ؟ قلت لها وتريدى أن يصل قالت نعم . فرددت وجهى إلى العجوز وقلت لها يا أم . ألا تسمعين ما تقول هذه المرأة . قالت وما تريد يا ولدى ، قلت قضاء حاجتها فى هذا الوقت ، فقالت السمع والطاعة ، إني أبعث إليه بفاتحة الكتاب وأوصيها أن تحببها ، وأنشأت فاتحة الكتاب تقرأها وقرأت معها ، فعلمت مقامها عند قراءتها الفاتحة ، وذلك أنها تشبهها بقراءتها صورة مجسدة هوائية ، هى سر من أسرار عطايا القرآن ، فلما أنشأتها صورة سمعتها تقول لها يافاتحة الكتاب أطلب كذا ، فلم يلبث حتى وصل إلى أهله .

وكانت تضرب بالدف وتفرح ، فكنت أقول لها فى ذلك ، فتقول لى والله إني أفرح ، حيث اعتنى بى وجعلنى من أوليائه واصطفانى لنفسه ، من أنا حتى يختارنى على أبناء جنسى ، وعزة ربه لقد يغار على غيره ما أصفها ، ما التفت إلى شىء باعتمادى عليه عن غفلة إلا أصابنى بلاء فى ذلك الذى التفت إليه ثم أرتبى عجائب من ذلك ، فما زلت أخدمها بنفسى وبنيت لها بيتا من قصب بيدى على قدر قامتها فما زالت فيه حتى درجت ، وكانت تقول لى أنا أمك الالهية ، ونور . أمك الترابية ، وإذا جاءت والدتى إلى زيارتها تقول لها . يا نور هذا ولدى فبريه ولا تعقيه»

والثانية تعرف بها فى مكة ، فحادثته فى الحجة الالهية وحاورته ، واتصل بينهما جل المودة الخالصة فرأى عندها من لطائف المعارف ما لا يصفه

واصف ، يصورها لنا في شرح ترجمان الأشواق تصويراً رائعاً .

« كنت أطوف ذات ليلة بالبيت ، فطاب وقتي ، وهزني حال ، كنت أعرفه ، فخرجت من البلاط من أجل الناس ، وطفقت على الرمل ، فحضرني أبيات فأنشدتها أسمع بها نفسي ومن يليني لو كان هناك أحد فقلت .

ليت شعري هل دروا أى قلب ملكوا
وفؤادى لو درى أى شعب سلکوا
أترأهم سلکوا أم تراهم هلکوا
حار أرباب الهوى فى الهوى وارتبكوا

فلم أشعر إلا بضربة بين كتفي ألين من الخبز ، فالتفت فإذا بجارية من بنات الروم ، لم أر أحسن وجهاً ولا أعذب منطقاً ولا أرق حاشية ، ولا أطيب معنى ولا أدق إشارة ولا أظرف محاورة منها ، قد فاقت أهل زمانها ظرفاً وأدباً وجمالاً ومعرفة ، فقالت ياسيدى كيف قلت ، فقلت

ليت شعري هل دروا أى قلب ملكوا

فقالت عجباً منك وأنت عارف زمانك . تقول مثل هذا ؟ أليس كل مملوك معروف . وهل يصح للملك إلا بعد المعرفة . وتمنى الشعور يؤذن بعدمها . والطريق لسان صدق . فكيف يجوز مثلك أن تقول مثل هذا قل ياسيدى فماذا قلت . فقلت

وفؤادى لو درى أى شعب سلکوا

فقالت ياسيدى الشعب الذى بين الشغاف والفؤاد . هو المانع له من المعرفة . فكيف يتمنى مثلك مالا يمكن الوصول إليه . إلا بعد المعرفة .

والطريق لسان صدق . فكيف يجوز لثلك أن يقول مثل هذا ياسيدى
فماذا قلت بعده . فقلت

حار أرباب الهوى فى الهوى وارتبكوا

فصاحت وقالت يا عجباً . كيف يبقى المشغوف فضلة محار بها . والهوى
شأنه التعميم يחד الحواس . ويذهب العقول ، ويدهش الخواطر . ويذهب
بصاحبه فى الذاهبين فأين الخبرة ، وما هاهنا باق فيحار . والطريق لسان
صدق والتجوز من مثلك غير لائق . فقلت

يا بنت الخالة ما اسمك . فقلت قرة العين . فقلت لى . ثم سلمت
وانصرفت ، ثم انى عرفتها بعد ذلك وعاشرتها ، فرأيت عندها من لطائف
المعارف ، مالا يصف واصف «

والثالثة التقي بها فى مكة أيضا ، طفلة عذراء هيفاء ، لرجل من أهل
العلم . وله فيها اشعار وتكنيها راتمة رائعة .

يذكر لنا فى شرح ترجمان الأشواق ، كيف اتصل حبله برجل فاضل
من أهل العلم والكمال ثم يقول متحدثا بقلمه الساحر .

« كان لهذا الشيخ رضى الله عنه بنت عذراء ، طفيلة هيفاء ، تقيد النظر ،
وتزين المحاضر ، وتحير المناظر ، تسمى بالنظام وتلقب بعين الشمس والبهاء ،
من العابدات العالمات السابحات الزاهدات ، شيخة الحرمين ، وزينة البلد
الأمين الأعظم بلامين ، ساحرة الطرف ، عراقية الطرف إن أسهت أتعبت ،
وان أوجزت أعجزت ، وان أفصحت أوضحت إن نطقت خرس قس
ابن ساعدة ، وان كرمت خنس معن بن زائدة ، وان وفقت قصر السمائل

خطاه ، وأغرى بظهر الغرور فامتطاه ، ولولا النفوس الضعيفة السريعة
الأمراض ، السيئة الأغراض لأخذت في شرح ما أودع الله في خلقها من
الحسن وفي خلقها الذي هو روضة المزن . شمس بين العلماء ، بستان بين الأدباء ،
حقة مختومة ، واسطة عقد منظومة ، يتيمة دهرها ، كريمة عصرها ، سابعة
الكرم ، عالية المهمم ، سيدة والديها ، شريفة ناديها ، مسكنها جواد ،
ويبتها من العين السواد ، ومن الصدر القواد ، أشرفت بها تهامة ، وفتح
الروض لمجاورتها اكلمه . فتمت أعراف المعارف ، بما تحمله من الرقائق
واللطائف ، علمها عملها ، عليها مسحة ملك ، وهمة ملك ، قراعينا في صحبتها
كريم ذاتها ، مع ما انضاف إلى ذلك من صحبة العمة والوالد ، تقلدناها
من نظمنا في هذا الكتاب ، أحسن القلائد ، بلسان النسيب الرائق .
وعبارات الغزل اللائق . ولم أبلغ في ذلك بعض ما تجده النفس . ويشير
الانس . من كريم ودها وقديم عهدا ، ولطافة معناها ، وطهارة معناها . إذ
هي السؤل والمأمول . والعذراء البتول . فأعربت عن نفس تواقه . ونبهت
على ما عندنا من العلاقة ، اهتماما بالأمر القديم وإيثارا لجلسها الكريم .
فكل اسم أذكره في هذا الجزء ، فعنها أكنى ، وكل دارا نديها فدارها عنى .
تلك هي العذراء الهيفاء التي أوحى إلى محي الدين أشعاره في ديوانه
ترجمان الأشواق . وتلك هي العذراء التي أحبها محي الدين وبنى بها . وكان
له منها الولد والاثر .

السائح الاسلامي

كان البيت الحرام . بعيد الأثر في حياة محي الدين . فقيه كتب
الفتوحات . وفي مكة توثقت صلاته بالحجيج الوافد من كل ، فبح يتولى
التدريس لهم . ويحملون إلى بلادهم معارفه وعلمه . فهو زعيم علماء البيت
المعمور ، وأمام الوافدين إلى هذا المجتمع العالي .

وأخيراً أن له أن يلجى الأمر بالرحيل . ليم تطوافه بالعواصم الاسلامية .
فودع الجزيرة العربية المحبة إلى روحه وقلبه . وفارق المدينة والطائف
وغيرهما من مهابط الوحي . وملبمات الذكريات الخوالد .

وذهب محي الدين إلى الموصل وطاف بعبادها وزهادها والتقى برجال
التصوف فيها . ثم ولى وجهه إلى بغداد ، يركع ويتبجح في محاربها ومساجدها .
ويلقى دروس العلم في مدارسها ومعاهدها ، ويلوذ به الأئمة ورجال الله .

يقول الامام عبدالله اليافعي . في الارشاد . اجتمع محي الدين في بغداد
بالامام السهروردي فأطرق كل منهما ساعة ثم افترقا . فقيل لابن عربي
ما تقول في السهروردي . فقال مملوء سنة من مفرقه الى قدمه . وقيل
للسهروردي ما تقول في محي الدين . فقال نحر الحقائق وامام العارفين .

ثم طوف ببلاد الروم ، والتقى بملك — قونية — فأجله وأكرمه .
وذهب له دارا ، قدرت بمائة الف درهم فلما نزلها وأقام بها ، مر به سائل
فقال له شيء لله . فقال . مالي غير هذه الدار فخذها لك ، فقساهما السائل .
وعاد محي الدين يملك الدنيا ولا يملك شيئاً .

ثم هبط إلى الشام وهي الأرض التي أحبها ورغب في أن يموت بها ،
لأن الرسول صلوات الله عليه قال إنها بلد الأبدال والعلماء .

قال شيخ الاسلام الحزوري . وقد كان الشيخ بالشام ، كعبة للقاصدين ،
ومثابة للمتفقيين ، يتردد اليه العلماء ، ويحج به الأدباء ، ويلوذ به الأوفياء ،
يعترفون له جميعا ، بجلالة المقدار ، وانه أستاذ المحققين من غير انكار ،
وقد أقام بين أظهرهم أمدا طويلا يكتبون مؤلفاته ويتداولونها بينهم
ويسألونه الدعاء .

واستقر بدمشق ، وأقبلت عليه الدنيا ، وحملت اليه عطايا ملوك الأرض
وأمرائها ، فكان يتصدق بكل ما يصل اليه حتى لقب بريح الكرم .

يقول الامام صفي الدين ، في رسالته عن رأى من سادات عصره ،
« ورأيت بدمشق الشيخ الامام العارف الوحيد محيي الدين بن العربي ، وكان
من أكابر علماء الطريق ، جمع بين سائر العلوم الكسبية وما قرله من
العلوم الوهية ، ومنزلته شيرة ، وتصانيفه كثيرة ، وكان غلب عليه التوحيد
علما وخلقا وحالا ، خلقه هو القرآن .

وهو حجة الله الظاهرة وآيته الباهرة »

ثُـلَاـتُه بـالـمـلـوك

محي الدين هو بين رجال التصوف ، صاحب الملوك ، كما يلتب في التصوف بالسلطان ، ويعطى مقام السلطنة ، وهو في خلقه وشماله ، وعزيمته ومواهبه ، ملك من ملوك الروح لا يطاول ولا يسامى .

ولقد اتصل محي الدين في مطلع شبابه بملك مراکش ، وصادقه وصافاه وعمل معه وله ، ثم هبط إلى مصر ، فأحبه واليها وأكبره واتمس منه الصحبة والبقاء ، فسمح له بالصحبة وأبى البقاء .

ثم استقر بالشام ، فاتصل بحبائه بملوك الأيوبيين وهم فرسان الدنيا وسادة الشرق في ذلك الوقت ، وحماة الاسلام في وجه الصليبيين ، فرفعه مكانا عليا ، وسعوا اليه يلتسون لديه العلم ، كما يلتسون الدماء ^(١) .

ولم يتم صلاته بالملوك ، على الزلفى والتملق ، فما ينبغي لرجال الله هذا وحاشاه منه ، وهو من هو في أنواره ومقاماته ، بل قام محي الدين لديهم مقام كلمة الحق . مقام المربي المرشد . مقام العالم الأمين على رسالته فلا تأخذ في الحق لومة لأثم . فهو الناصح أبداً ، الناصر للحق في لفتاته وإشاراته . يقول محي الدين .

« كانت لى كلمة مسموعة . عند الملك الظاهر . صاحب مدينة حلب . ابن الملك الناصر لدين الله صلاح الدين بن يوسف بن أيوب . فرفعت اليه

(١) كان لمحي الدين دور كبير في الحروب الصليبية داعياً ومحرضاً وملهماً ورشداً .

من حوائج الناس في مجلس واحد مائة وثمان عشر حاجة فقضاها كلها .
وكان منها ، أنى كلمته في رجل أظهر سره وقدم في ملكه ، وكان من جملة
بطانته ، وعزم على قتله .

فلما كلمته في شأنه أطرق . وقال حتى أعرف المولى ذنب هذا المذكور .
وأنه من الذنوب التي لا تتجاوز عنها الملوك ، قتلت له ياهذا . تخيلت أن لك
همة الملوك ، وأنك سلطان . والله ما أعلم في العالم ذنبا يتجاوز عفوى ، وأنا
واحد من رعيته . وكيف يتجاوز ذنب رجل عفوكم في غير حد من حدود
الله ، إنك لذنئ الهمة ؟ فنجعل وسرجه وعقاعنه ، وقال لى جزاك الله خيرا
من جليس . مثلك من يحالس الملوك ، وبعد ذلك المجلس ما رفعت اليه
حاجة إلا سارع في قضائها من غير توقف كانت ما كانت . »

وأنه توقف عظيم من رجل عظيم لدى ملك عظيم . يدل في أشراق
ووضوح على مكانة محي الدين لدى الملك الناصر ، حتى أنه ليلقبه بالمولى ،
وحتى ليرمى محي الدين في وجهه بأعنف كلمة توجه إلى ملك ، فيصفه بنقص
الهمة . ولا يغضب الملك العظيم ، بل ينجعل ، ثم يعفو عن الذنب
الذي لا تغنو عن مثله الملوك ، ثم يقول جزاك الله خيرا ، فمثلك من
يحالس الملوك .

وبهذا الخلق ، هزم هؤلاء الملوك أور باجمعة متكاتفه — في ساحات
الشام وميادينه .

ويكتب محي الدين رسالة إلى السلطان الغالب بأمر الله صاحب بلاد
الروم ردا على خطاب أرسله إليه سنة تسع وستائة .

بسم الله الرحمن الرحيم — وصل الاهتمام السلطاني الغالب بأمر الله ،
أدام الله عدل سلطانه إلى والده الداعي له محمد بن العربي ، فتعين عليه الجواب
بالوصية الدينية ، والنصيحة السياسية الالهية ، على قدر ما يعطيه الوقت ويحتمله
الكتاب إلى أن يقدر الإجماع ويرتفع الحجاب .

إلى أن يقول : فاحذر أن أراك غدا بين أئمة المسلمين من أخسر الناس
أعمالا ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ،
ولا يكون شكرك لما أنعم الله به عليك من استواء ملكك بكفران النعيم .
واظهار المعاصي ، وتسلط التواب السوء بقوة سلطانك على الرعية الضعيفة ،
فان الله أقوى منك ، فيحتكمون فيهم بالجبال والأغراض ، وأنت المستول
عن ذلك ، فيأخذوا قد أحسن الله اليك ، فانصف المظلوم من الظالم ، ولا
يغرنك أن الله وسع عليك سلطانك ، وسوى البلاد لك ومهدا مع إقامتك
على المخالفة والجور ، وتعدى الحدود ، فان ذلك الاتساع مع بقائك على
مثل هذه الصفات بامهال من الحق لا اهمال ، وما بينك وبين أن تتقف
بأعمالك إلا بلوغ الأجل المسمى وتصل إلى الدار التي سافر إليها
أباؤك وأجدادك .

يا هذا ومن أشد ما يمر على الإسلام والمسلمين وقليل ما هم ، رفع
النواميس والتظاهر بالكفر واعلاء كلمة الشرك ، فتدبر كتابي ترشد ، ان
شاء الله ما لزمتم العمل به والسلام »

هذه هي لغة العلماء إلى الملوك . علماء الله لا علماء الدنيا .

ويروى لنا محيي الدين . أنه كان يسير في رقعة من أصحابه . رجال العلم
والتقوى . ونظر فرأى الخليفة قادماً . فقال لأصحابه . من بدأه منكم
بالسلام . أوقعت به لديه . فان السنة أن يسلم الزاكب على المترجل . وما
تعود الخليفة ذلك .

ووصل الخليفة إليهم ، فلم يلقوا إليه بالسلام ، وتعجب الخليفة ، ولكنه
نظر فرأى محيي الدين فعرف . فألوى بزمام دابته . وقال : السلام عليكم
ورحمة الله ، فقالوا ، وعليكم السلام ورحمته وبركاته .

وتبسم الخليفة ، وقال رحمه الله . لقد أحييتم سنة محمدية كريمة ،
وعلمتموني واجباً .

قال الفيروز بادى صاحب القاموس . « لقد رأيت أجازة بخط الشيخ ،
كتبها للملك المعظم صاحب حلب . ورأيت في آخرها « وأجزت له أيضاً
أن يروى غني كتي وجميع مؤلفاتي . ومن جملتها كذا وكذا حتى عد نيفا
وأربعائة مؤلف ، منها التفسير الكبير ، الذي وصل فيه إلى قوله تعالى :
وعلمناه من لدنا علماً »

وتلك الوثيقة التاريخية ، التي ينقلها لنا الفيروز بادى ، تدل على تلمذة
الملوك له ، وحرصهم على اقتناء مؤلفاته التي أربت على أربعائة مؤلف .

يقول محيي الدين : وإياك وصحبة الملوك . إلا أن تكون مسموع
الكلمة عندهم ، فتتفع مسلماً أو تدفع عن مظلوم ، أو ترد سلطان عن فعل ما
يؤدى إلى الشقاء عند الله .

ولقد وفى محي الدين بقوله وشروطه . فعاش فى حدود تلك الكلمات
الغالية . فكان شقيقاً لعامة المسلمين عند الملوك . مدافعاً عن المظلومين ،
ناصراً للحق والدين ، راداً للملوك عن فعل ما يؤدى إلى الشقاء عند الله .
وتلك رسالة لا ينهض بها ، إلا رجال الروح والإيمان . من أمثال
محي الدين ، ومن فى الناس كمحي الدين .

المعراج الأخير

عاش محي الدين . ينحوب بروحه آفاق السماء . ويعرج بهيمته إلى معارف الملاء الأعلى . عاش معلق القلب أبداً بربه . عاش في مقامات النور ، وأحوال الصفاء ، تنزل عليه هبات خالقه مبشرات ومرشدات . عاش محباً محبوباً . راضياً مرضياً . فلما اكتملت رسالته . وأحسن بقرب الأجل . والجيل إلى الرفيق الأعلى . أقبل على القرآن يصوغ له تفسيراً جديداً . على هدى كشوفاته وفتوحاته والهامات قلبه .

وفي دمشق في ليلة الجمعة ، في الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمانية وثلاثون وستائة ، والحاجر والأوراق بين يديه ، والقلم في يمينه منطلقاً بالفتح الأكبر ، مفسراً لآي القرآن والذكر الحكيم فلما وصل إلى قوله تعالى — وعلمناه من لدنا علماً — وقف القلم واهتز الجسد ، ومال الرأس الكبير . وهرع إليه صاحبه . فإذا بنور يتصاعد إلى السماء ، يحمل معه سر تلك الحياة الخالدة . ذهب محي الدين إلى ربه ، فتحطمت تلك المحجة التي كانت تهدي

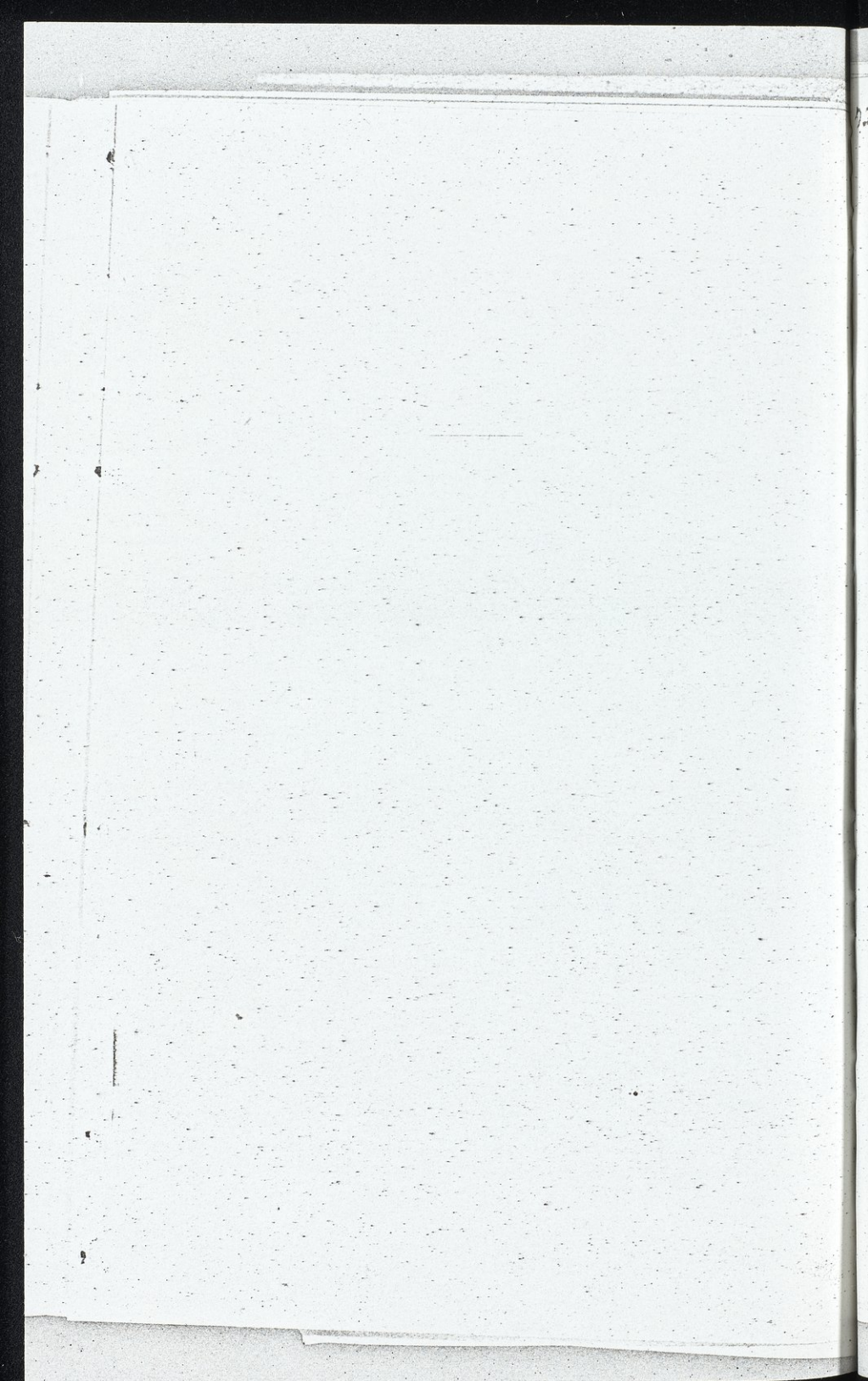
إلى الله . أستغفر الله بل زادت تلك المحجة وضوحاً وإشراقاً ، فقد غدا تراثه شرعة ومنهاجاً وسارية تضيء وتضيء في الطريق الرباني ، تهدي إلى الإيمان والتقوى .

أما خصوم محي الدين الذين ملؤا الدنيا حوله صياحاً ورعوداً . فلم أر وصفاً لهم أبلغ من قول الياقعي . حكمهم حكم ناموسة تفخت على جبل تريد إزالته من مكانه . وتذهب الريح بأمم من الناموس . وتبقى الجبال شوامخاً راسيات . بها تثبت الأرض . وبها يحفظ ميزان الدنيا .



صورة من المخطوطات

صورة ضريح يحيى الدين بدمشق



النهج الصوفي

يصف الله سبحانه ، الحالة المثلى ، والمقام الأعلى ، للمؤمنين العابدين ،
 فيقول تبارك وتعالى : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ،
 ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا » .
 فالإيمان الحق ، ذكر وفكر ، ذكر يليهم الروحانية والمعرفة ، وفكر
 يدرك الآيات وأسرارها ، ذكر بالليل والنهار ، لغاطر السموات والأرض ،
 وتفكر في آيات الله الكونية ، وما اشتملت عليه السموات من نجوم
 وكواكب وأقمار وشموس ، مسخرات بأمره ، سابحات بأذنه ، مدبرات
 أحكم التدبير بعلمه ، وما حوت الأرض من نبات مختلف الألوان ، وثمرات
 تسقى من ماء واحد ، ويفضل بعضها بعضا في الأكل والاربيح ، ومعادن
 وكنوز ، كل له رسالة يؤديها ، وسهم نافع في قيام الحياة .

والذكر والتقوى معارج إلى العلم اللدني الرباني ، واتقوا الله ويعلمكم
 الله ، والتفكر في آيات الله على غريبين . أولاها : يرشد إلى عظمة الحق
 ويدل عليه . وثانيهما : استنباط ما في تلك الآيات من قوى لخير الإنسانية
 وهداها . ورعايتها . وهي علوم الدنيا .

فالؤمن الكامل ، من اكتسب معارفه بالذكر والتقوى ، والتأمل
 والتفكر في الآيات والبينات مع الاعتصام بميزان الشرع ، الذي لا يميل
 ولا يحيف .

وذلك هو التصوف في مبناه ومعناه ، فالتصوف هو الظمأ إلى المعرفة على تعدد ألوانها وصورها ، الظمأ إلى المثالية في علوم الدين وعلوم الدنيا .

وعلوم الدين ، غايتها الله سبحانه ، المعبود الواجب الوجود ، المحب المحبوب . واهب الحياة وربها ، وقيوم السماء وعمادها ، يذهب الصوفي إليه بقلبه وروحه ووجدانه ، فهو أبدا الذاكر الراكم الساجد الفاني في الطاعة والمحبة ، المراقب لله في كل حالته ، كأنه يرى الله مشاهدة مبصرة ، فإذا لم يكن يراه ، فإن الله يراه ، ويعلم سره ونجواه .

وعلوم الدنيا ، غايتها سعادة الإنسان ، وكف الأذى ومنع العدوان ، وإشاعة الحب والسلام ، وتذكيره في كل لفتة أو خاطرة ، بربه وخالقه ، الذي وهب له الكون ، وسخره بأمره له ، ليعطيه من خيراته وكنوزه ما أحب وأراد .

خلق الله الكون لنا ، ميدانا لعقولنا ، وساحة لأرزاقنا ، وخلقنا لنفسه « وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون » فلتنظر في آيات الكون وتتدبرها ، ثم تسبح بحمد الله ، ولتطعم من خيرات الأرض وتشكر الله ، ولتستنبط من الأرض ما خفي وانطوى في باطنها ، ثم لترفع رؤسنا إلى موجود الأشياء جميعها نالحد والشكر ، ذاكرين أفضاله ، مقدرين لنعمه ومننه .

ذلك هو نهج التصوفة . في الذكر والتفكير . وهذا هو الميزان الذي توزن به حياتهم . وتوزن به أعمالهم ومعارفهم . فالتقوى طريق للعلم الرباني . والفكر والتفكير معراج إلى مناهل

العلوم ومنابعها . والعلم أفضل ما في فضل الله كما يقول محي الدين : فأولياء الله هم العلماء . وما اتخذ الله من جاهل ولياً أبداً . إنما يخشى الله من عباده العلماء . والعلم يوجب الطاعة . والطاعة تستوجب المحبة من الله . وحب الله يصاحبه الفيض والأشراق والالهام . أو كما يقول الإمام مالك « ليس العلم بكثرة التلقين والرواية ، وإنما هو نور يقذفه الله في قلوب من أطاعوه فأحبهم » .

يقول الإمام الغزالي : « كنت في مبدأ أمرى ، منكراً لأحوال الصالحين ومقامات العارفين ، حتى صحبت شيخى يوسف النساج . فلم يزل يصقلني بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات ، فرأيت الله تعالى في المنام ، فقال لى : يا أبا حامد ، ققلت أو الشيطان يكلمنى ، قال لا : بل أنا الله المحيط بجهاتك الست ، ثم قال : يا أبا حامد . زر مساطرك وأصحاب أقواما ، جعلتهم في أرضى محل نظرى ، هم الذين باعوا الدارين بحبى . قلت بعزتك إلا إذقتى برد حسن الظن بهم ، قال قد فعلت . والتقاطع بينك وبينهم ، تشاغلك بحب الدنيا . فأخرج منها مختاراً قبل أن تخرج منها صاغراً . فقد افضت عليك أنواراً من جوار قدسى ، فاستيقظت فرحاً مسروراً ، وجئت إلى شيخى يوسف النساج ، فقصصت عليه الرؤيا فتبسم . وقال يا أبا حامد هذه ألواحنا في البداية ، بل إن صحبتى ستكحل بصيرتك بأئمة التأييد حتى ترى العرش ومن حوله ثم لا ترضى بذلك . حتى تشاهد ما لا تدركه الأبصار . فتصفو من الأكدار طبيعتك . وترقى على طور عقلك وتسمع الخطاب من الله تعالى كموسى « إني أنا الله رب العالمين » .

ويقول الإمام الغزالي . متحدثا ومدافعا عن النهج الصوفي .
« وماذا يقول القائلون في طريقة أول شروطها تطهير القلب عما سوى
الله تعالى . ومفتاحها استغراق القلب بالكلية في ذكر الله ، وآخرها الفناء
بالكلية في الله .

وأول هذه الطريقة المكاشفات . حتى أنهم في يقطبهم يشاهدون
الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد .
ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال . إلى درجات يضيق عنها
نطاق النطق » .

وعلى هذا الضوء . نستطيع أن نعرف سر العلم لدى المتصوفة . وعلى
هذا الضوء نستطيع أن تدبر وندرس ذلك التراث العظيم الذي تركه
محي الدين للفكر الإسلامي والمعارف العالمية . من جولات في عوالم
الأرواح والقلوب . وكشوف لدنية في أسرار الشريعة ومعارفها . وفيوضات
كالبحور الزواجر في الآيات الكونية والنظم الالهية والأسرار الربانية .
المستمدة جميعها . من خزائن القرآن وفيوضات العلم اللدني الذي قوامه
الذكر والفكر . والأشراق والرضا .

العلم اللدني

الكشف الباطني . والفيض الرباني ، هما سر الحياة في محيي الدين .
فقد تدفقت معارفه ، من هذا النبع ، وصيغت علومه من ذلك الفيض ،
وتميز بين رجال الفكر الإسلامي . بل العالمي ، بأنه صاحب النصيب
الأكبر ، والحظ الأوفر ، من هذا العلم اللدني ، أو الحكمة الربانية ، التي
يؤتيها الله من يشاء من عباده ، يقول محيي الدين .

« إن المؤمن المتأدب بأداب ربه . الحافظ على شريعته ، إذا لزم
الخلوة والذكر ، وفرغ فكره من ما سواه . وقعد قفيرا لا شيء له عند
باب ربه . حينئذ يمنحه الله تعالى ويعطيه من العلوم والأسرار الإلهية .
والمعارف الربانية . التي من بها الله سبحانه على عبده الخضر . فقال تعالى :
« عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا . وعلمناه من لدنا علما » . وقال
تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » وقال « إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا »
وقال سبحانه : « ويجعل لكم نورا تمشون به » والنور هو العلم والفرقان
أعلى فيوضات الالهام . »

آيات بينات محكمات ، في حقيقة الفيض الرباني . الذي يفجر الحكمة
والعلم في قلب المؤمن العابد الذاكِر الذي يعيش جالسا على باب ربه عبدا
مجردا خاليا من كل شيء . متوجها إلى الواهب القادر الذي يجعل لمن قصده
نورا يعيش به ، وفرقانا يمشي على هداه .

ثم يقول محي الدين « فحينئذ يحصل لصاحب المهمة في الخلوة مع ربه جلت هيئته وعظمت منته . من العاوم ما يغيب عندها كل متكلم . على البسيطة لأنها من وراء أحكام العقل ، وليست في متناوله ولا طاقته ، لأنها منة الوهاب العليم . »

قيل للجنيد : بما نلت ما نلت ؟ فقال : يجاوسى تحت تلك الدوحة ثلاثين سنة . دوحة المراقبة والطاعة ، والعبودية الكاملة .

وكان أبو يزيد البسطامي يقول في محاججته لعلماء الرسوم : أخذتم علمكم ميتاً عن ميت . وأخذنا علمنا من الحي الذي لا يموت .

ومحي الدين يصرح في كل ما يكتب . بهذه المعاني . فهو يقول « إن جميع ما أكتبه في تأليف ليس عن روية وفكر . وإنما هو عن نفث في روعي على يد ملك الإلهام » ويقول في الباب الثالث والسبعين وثلاثمائة من الفتوحات « وجميع ما كتبته وأكتبه في هذا الباب ، إنما هو من إملاء إلهي وإلقاء رباني ، أو نفث روحاني في روح كياني ، كل ذلك بحكم الإرث للأنبياء . والتبعية لهم ، لا بحكم الاستقلال » ثم يقول « وتصانيفي إنما هي من حضرة القرآن وخزائنه . فإني أعطيت مفاتيح الفهم فيه والإمداد منه . »

ويقصد محي الدين من قوله : بحكم الإرث للأنبياء والتبعية لهم ، قول الرسول صلوات الله عليه « علماء أمتي كأَنْبياء بني إسرائيل » أي في الكشف والعلم ، والنفث في الروح ، والإمداد ، والفيض الإلهي .

والكشف الباطنى ، أثير حوله الجدل والحوار ، فى سائر أنحاء الكوكب الأرضى ، قديماً وحديثاً .

فالماديون لا يرون للمعرفة والعلم باباً إلا الحواس الخمس المتصلة بمعاملنا ، ويقررون أن لا مصدر فوق هذا تصدر منه المعرفة غير الخيال والتصور . وما كان الخيال والتصور يوماً من الأيام حكماً ترضى حكومته فى المعارف اليقينية ، والعلوم الصحيحة الثابتة . وهم شديدو التهمك برجال الدين والكشف الباطنى ومن سلك مسلكتهم من أصحاب الرياضة العقلية ، والصفاء الروحى . أما الصوفية والروحانيون على اختلاف أديانهم وألوانهم ومذاهبهم فيقررون أن للعلم وسائل باطنية يقرها العقل النصف . ويعترف بها الواقع الملموس المشاهد ، أساسها الصلة بين النفس الإنسانية والعالم الروحانى ، كما يقول الروحانيون ؛ أو بين النفس الإنسانية وخالقها كما يقول المتصوفة . أو كما يعبر محي الدين « إن الله هو المعلم الحقيقى ، والمؤدب الحقيقى للوجود كله ، خلق الإنسان علمه البيان ، ويؤتى الحكمة من يشاء ، وعلم الخضر ، ومن يسلك نهجه ويقرب ، قربه من لدنه علماً . وأدب من اصطفى واختار ، فأحسن تأديبه » .

فمن خلصت نفسه من شوائب المادية وظلماتها ؛ وصفت روحه وتطهرت فى محارب الطاعة . ومناجاة الحبة ، ورضى الله عنه فأحبه ، أفيض عليه من أسرار الوجود وآياته . وإشرافات العلوم وأسرارها ما يعلو على الحواس الخمس وما تتركه الحواس الخمس ؛ وظفر بمعارف وعلوم يضيق عنها نطاق

النطق كما يقول الغزالي ، أو كما يقول أستاذه يوسف النساج ، حتى يرى
العرش ومن حوله ، ثم لا يرضى حتى يرى ما لا تدركه الأبصار ، ثم يرق
حتى يسمع الخطاب كموسى « إني أنا الله رب العالمين » .

والمعارف المباشرة من السماء المتفاضة من تحت عرش الرحمن . تتبع
الصفاء وتلازمه . كتب الشاعر الروحاني موسى عن نفسه فقال : أنا
لا أعمل ولكنى أسمع ما أكتب ، فكأن إنساناً مجهولاً يتاجبنى في أذنى .
وكان لا مارتين الذى صقله الحب ، يقول : لست أنا الذى يفكر ، ولكن
هى أفكارى التى تفكر لى . وطاغور زاهد الهند وشاعرها يقول : بأنه يتم
وهو يعمل فى قطعة من الشعر لم تتم فيستيقظ فيجدها تامة فى ذهنه . أما
سقراط فيلسوف اليونان فقد تحدث إلى تلامذته فقال : إني لا أسمع بأذنى
ما تلقيه إلى روح مجهولة ، ومنها استمددت معارفى . وكان فيلسوف
الإسلام الفارابى ، تحل له أعظم مشاكله الفكرية فى المنام ، أما ابن سينا
فيخطو خطوة أخرى نحو السكالم فيقول : إنه إذا استعصى عليه أمراً من
أمر الفكر هرع إلى الصلاة فصرى وسبح ، فإذا بكل شىء كالصبح المبين .
وأرسطو قد بنا فلسفته فى الدراسات النفسية على الفيض والإلهام .

تلك ثمرات الصفاء ، وهبات الروح الجميل المشرق ، ولكن السكالم
فى الفيض والهبات ، إنما هو لرجال الطاعة والعبادة ، والذكر والمناجاة .
والرضا والحمة . فأولئك لهم التلقين والمشاهدة والنور والفرقان .
ويأتى بعد ذلك سؤال ، لا بد أن يدور به اللسان — هل السالكون

لطريق الطاعة والعبادة والذكر والصفاء ، يصلون جميعاً إلى هذه المعارف
 الباطنية والعلوم الربانية ، والاشراقات والفيوضات والمكاشفة .
 يقول محي الدين : إن الفتح على قدر الهمة ، وإن شئت بلغة العجم .
 فعلى قدر الطاقة الروحية للعابد .ذاكر ، فطاقة العقل مختلفة ، وطاقة الروح
 أيضاً . وكما تتباين كفاءات العلماء في الدراسة الظاهرية علواً وانخفاضاً .
 وعبقورية هنا وجموداً هناك ، كذلك تتباين كفاءات المتطهرين العابدين ،
 في الفتح والكشف .

مكانة محي الدين من العلم اللدني

ومنذ قرعت الدعوة الحمديّة ، أسمع الدنيا بالخير والهدى ، إلى يومنا ، على كثرة العابدين الذاكرين المتطهرين في محاريب الحجة والصفاء ، المنقطعين إلى ربهم ، المتجهدين لمآلقهم في تلك الرقعة الحمديّة التي تشغل قلب الدنيا ، والتي ضمت شتيتاً من الأمم ، وألواناً من الشعوب ، والتي أنجبت العباقرة والأئمة ، لم يعرف تاريخ تلك الأمة ، رجلاً ثانياً يزاحم محي الدين في قته الشاخنة ، في علوم الكشف والفيض والهبات ، والعطايا الربانية .

يقول الشعراني في اليواقيت والجواهر :

« إن كلام محي الدين إن نظر فيه مجتهد في الشريعة إزداد علماً إلى علمه واطلع على أسرار في وجود الاستنباط وعلى تعليقات صحيحة لم تكن عنده . أو لغوى أو مقرئ أو معبر للمنامات أو عالم بالطبيعة أو متحدث أو خبير بالطب أو عالم بالهندسة أو نحوي أو منطقي أو صوفي أو عالم بالحديث وطرقه ، وبعلم الأسماء والحروف وأسرارها ، وجدلديه من العلم ما يذهل العقل ويحيره ، فهو يفيد هذه العلوم وغيرها علوماً لم تخطر قط على بال إنسان »
ولقد أشار الشعراني إلى نحو ثلاثة آلاف علم منها في كتابه أسماه « تنبيه الأغبياء إلى قطرة من بحر علم الأولياء » ويقول الشعراني أيضاً « إن كلام محي الدين ومرتبة علومه لغيره من الصوفية ، كرتبة كسير الذهب بالنسبة إلى مطلق الذهب » .

83
وحجى الدين تقف العقول على أبوابه متحيرة ذاهلة ، فأمواج عبابه
طاغية صخابة ، ثم هادئة رقاقة ، ولكنها فى ضجيجها أوفى صفائها ، عميقة
النور ، عمقا مهما غاصت العقول بحثا عن نهايته فهى أبداً ترتد معترفة بالعجز ،
شاهدة بالقصور .

ومرجع هذا إلى أن علوم محي الدين مزاجاً عجبا من علوم الدين والدنيا .
فهو يحدثك عن صفات الله عز وجل وأسرار أسمائه الحسنى ، وما أودع فى
عوالم الحروف والكلمات من آيات وآيات ، ثم يحدثك عن خواص المعادن
وأسرار مزجها وتحولها ، وفرائدها وموازينها ، ثم يثب إلى الكواكب
والأجرام السماوية وسيرها وحركاتها ونواميسها ، ثم يعود بك إلى البحار
وخصائصها وجواهرها وعوالمها ثم يعطف على دروب الروح ومعارجها ،
وينقل إلى النفس والهوى والجوارح . ثم إلى الأديان والشرائع ، مقارناً
وشارحاً ، ثم إلى العماة الأول الذى خلق منه الكون . والماء الذى تكون
منه كل شئ حى . ونجاة إلى العالم الأخرى وصراطه وموازينه وملائكته
وبعثه ونشوره ، ثم إلى دنيا الطب ومعجائب الأدوية ، والنباتات وخواصها .
وقبل أن تفيق يأخذ بأذنك ليعطيك درساً فى الهندسة والمثلثات والزوايا
والدوائر ، فأت معه أبداً على جناحى طائر من عالم مسجور ، عنيف الحركة ،
جبار السرعة يسمعك تسبيح الملائكة وأحاديث الملائكة فى الآفاق العليا .
واصطحاب الأمواج وتلاطمها فى أعماق المحيطات فى طرفى لحظة واحدة .

فاذا دار رأسك من هذه السرعة الرهيبة . وعجز عقلك عن متابعة كل
هذه الفيوضات العلمية المتباينة . ففهمت شيئاً وغابت عنك أشياء ، اسمعك

أشعاره وحدثك بالمقامات والأحوال ، وناجك بقصص الصالحين والأولياء .
وسرد عليك النكت البليانة والدقائق النجوية ، والرفائق الصوفية وما وقع
فيه الفقهاء ، وما تورط فيه المفسرون ، وما أغلق على المتكلمين ، وما ألبس
على المعتزلة والأشاعرة ، فإذا استرددت أنفاسك اللاهثة قليلاً قذف بك
عنيفاً جامعاً إلى دنيا جديدة على صورة عالمنا شكلاً ، وعلى تقيضه معنى .
فهناك الصفاء والجمال والخير الساري والثر الشهى ، الذي يشب إلى يدك .
والأرض التي تطوى تحت قدمك . والتصور التي صاغها الخيال والنظم
الرحيمة الكريمة التي لا يشقى بها إنسان . وفي تلك النشوة التي تحس بها
جميلة ساحرة ، يأخذك إلى مشكلات الجوهر الفرد ، وكروية الأرض .
ونظرية الموازنة . أو ما يسمى اليوم بالنسبة . وقوة التفجير أو ما يسمى اليوم
بالذرة ، فإذا خارت قواك . فلم تستطع بقية التطواف مع محي الدين في
كتبه . فاعلم بأنك في بداية الشوط وما قطعت في ساحاته إلا خطى ضئيلة
كلياً .

فإذا تفكرت فيما مر بك . تذكرت أمراً عجيباً ، إنك مع رجل يعرض
عليك ألواناً من الفكر ، وألواناً من العلم ، وألواناً من المعارف لا تمت بضلة
إلى علوم سابقة ، ولا تمت بنسبة إلى أقلام مبدعة كاتبة . أنها لمن نبع
محي الدين وحده ، فمحي الدين لا يذهب في معارفه وعلومه مذاهب غيره ،
بل قمة شامخة . قائمة وحدها . أو كما يقول الإمام النووي « تلك أمة قد
خلت ، لم تماثلها أمة من قبل وما أحسب أن أمة تخلقها » .

يقول محي الدين « ما عندنا بحمد الله تقليد لأحد . إنما هو فهم
في القرآن أعطيته ومدد من رسولي اختصت به ، وفيض من ربي أكرمني
بأنواره »

ومع هذا . فقد استمسك محي الدين بميزان الشريعة ، لأنه كما يقول
« من رمى بميزان الشريعة من يده لحظة هلك » ويهتف في مسمع الدنيا
« لقد كتبت ما كتبت وأنا أقر بحمد الله تعالى ، إنني لم أذكر أمراً غير
مشروع . وما خرجت عن الكتاب والسنة في شيء ، بل منيما استمددت
وبههما أنير طريقي »

أقسام العلوم ومراتبها

يقول محي الدين

« لقد أجمع رجال التصوف جميعاً على أنه لا تحليل ولا تحريم بعد شريعة رسول الله وخاتم النبيين صلوات الله عليه . وإنما هو فهم يعطى في القرآن لرجال الله كما ثبت من حديث علي . وفيض من العلم يهبه لمن أطاعه فأحبه فألهمه وجعل له نوراً .

وكما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة ، كذلك يحفظ علماء الباطن آدابها وروحها ، وكما أبيع لعلماء الظاهر الاجتهاد في استنباط الأدلة ، واستخراج الحدود والفروع . والحكم بالتحليل والتحريم على ما لم يرد فيه نص ، وترك أمره للاجتهاد والاستنباط ، فكذلك للعارفين أن يستنبطوا آداباً وأذواقاً ونهجاً للمريدين والعابدين »

وإذا فالتصوف علومه واجتهاداته التي يتفرد بها . ولتلك العلوم أثرها ومكانتها ومقامها في التشريع والآداب الإسلامية .

ثم يعطف محي الدين لتوضيح رسالته ، على العلوم وأقسامها ، وأثر العقل فيها ، ومكانة الأحوال والأسرار منها ، فيقسم العلوم إلى ثلاثة أقسام : علم العقل . وعلم الحال . وعلم الأسرار ، وهذه هي جماع المعارف كافة ؛ وما سواها من فروع ، فمنضوى تحت أعلامها .

علم العقل

فعلم العقل ، هو كل علم يحصل نتيجة نظر في دليل . بشرط

الحصول على وجه ذلك الدليل وشبهه . ولهذا يقولون في النظر، منه صحيح ومنه فاسد ، ومنه علم الفلسفة وسواه من العلوم النظرية .
وعلاوة هذا العلم أو من خصائصه ، إنك كلما بسطت عبارته حسن واتضح معناه ، وعذب عند السامع ، وقبله منطقته .

علم الأحوال

والعلم الثانى : هو علم الأحوال . ولا سبيل إليه إلا بالتذوق أو المشاهدة ولا يقدر عاقل على أن يحده ، أو يقيم على معرفته . دليلاً البتة ، وهو علم يتلون مع صاحبه بلون ذوقه أو بلون مشاهداته كالعلم بخلاوة العسل ومرارة الصبر ، ولذة الجماع والعشق والوجد والشوق ، عند الناس كافة ، أو كحالات المتصوفة فى أحوالهم ومقاماتهم وما يتذوقونه من لذائذ روحية .

فهو علم من المحال أن يعرف أحد حقيقته إلا أن يتصف بحالاته ويتذوقها أو شبهها من جنسها فى عوالم الذوق والروح .

وشرط هذا العلم سلامة الإدراك والبراءة من الآفات . فإن من يغلب على طعم فيه المرارة يجد العسل مرراً ، وهو ليس كذلك .

وهذا العلم يترك لأصحابه ، فلا يتحدث به إلا من ذاقه ولا يجوز إنكار الذوق على من ذاق ، بل لا يلتذ بسماع حالاته على تعدد ألوانها إلا أصحاب الأذواق السليمة .

علم الأسرار

وهو العلم الذى فوق طور العقل وإدراكاته ، وهو علم المتصوفة ، أو العلم

الذي وهو والحكمة التي يؤتيها الله من يشاء ، وأساسها الفيض والنفث في الروح ، ولذلك يتسارع إلى صاحبه الإنكار ، لأنه من طريق الإلهام ، وأكثر علوم الكل من هذا القبيل ، وهو صفة أساسية للنبي ومنحة وخلعة على الولي .

وهو نوعان ، نوع منه يدرك بالعقل ، وهي العلوم التي يمكن تحصيلها بالعقل والفكر كالتقسيم الأول من هذه الأقسام ، ولكن العلم به هنا لم يحصل عن نظر ولا عن تفكير ؛ ولكنه ملازم لمرتبة العلم التي يعطاها .

والنوع الآخر من علوم الأسرار على ضربين : ضرب منه يلتحق بعلم الأحوال ، ولكن على مقام أعلى وحالة أشرف ، والضرب الآخر من علوم الأخبار ، وهي التي يدخلها الصدق والكذب ، إلا أن يكون الخبر به قد ثبت صدقه وعصمته فيما يخبر به ويقول به . كأخبار الأنبياء بالجنة وما فيها ؛ فتقوله إن ثمة جنة مثلاً من علم الخبر ، وقوله في القيامة . إن فيها حوضاً أحلى من العسل من علم الأحوال ، وهو علم الذوق ، وقوله . كان الله ولا شيء معه ، وما يشابه ذلك من علوم العقل المدركة بالنظر .

أما علم الأسرار فالعالم به يعلم العلوم كلها ويستغرقها ، فلا علم أشرف من هذا العلم المحيط الخاوي على جميع المعلومات ، وما بقي إلا أن يكون الخبر به صادقاً معصوماً ، وعلى العاقل اللبيب الناصح لنفسه أن لا يرمى ما يرد إليه من هذا العلم ، ولكن يقول هذا جائز عندي أن يكون صدقاً أو كذباً .

وكذلك ينبغي للعاقل ؛ إذا أتاه هذا العلم من غير المعصوم وإن كان

صادق عند الله فيما أخبر به . ولكن كما لا يلزم السامع له بتصديقه ، لا يلزمه تكذيبه ؛ ولكن يتوقف ويتأمل ؛ فإن كان ما أتى به لا تحيله العقول بل تجوزه . ولا يهدر كناً من أركان الشريعة ، ولا يبطل أصلاً من أصولها ؛ أو أتى بأمر جوزه العقل ؛ وسكت عنه الشارع ؛ فلا ينبغي له أن يرده أصلاً ؛ بل له الخيرة في الأمر . فإن كانت حالة المخبر به تقتضي العدالة لم يضره القبول بل هو الأولى . فكما أننا نحكم في الأرواح والأموال بشهادة الشهود ؛ قبل ونحكم بصدق من يأتي بهذه العلوم بشروطها التي ذكرناها ؛ وإن كان المخبر بها غير عدل في علمنا ننظر ، فإن كان الذي أخبر به حقاً بوجه ما من الوجود الصحيحة قبلناه ، وإلا تركناه في باب الجائزات ولم نتكلم في قائله بشيء مسيء . فانها شهادة مكتوبة نسأل عنها . قال تعالى « سنكتب شهادتهم ويسألون » .

والصوفية رضوان الله عليهم أو أصحاب علم الأسرار إنما يأتون لنا بأسرار وحكم من أسرار الشريعة مما هي خارجة عن قوة الفكر والنكسب ولا تنال أبداً إلا بالمشاهدة والإلهام وما شاكل هذه الطرق .

ومن هنا نفهم وعلى هذا الضوء ندرك قول الرسول صلوات الله عليه « إن يكن في أمتي محدثون فنهيم عمر » أي يأتون بالحديث المنطوي على العلم والحكمة ؛ وبقوله في أبي بكر الصديق « ما فضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا قيام ؛ وإنما بما وقر في صدره من هذا الدين .

ثم يقول محيي الدين « هذه هي علوم الأسرار التي اختص بها الأخيار ولو لم يقع الإنكار لهذه العلوم في الوجود وكان الناس كلهم أصحاب عقول

سليمة لم يقد قول أبو هريرة « حفظت عن رسول الله وعاءين من علم . أما أحدهما فبثته وأما الآخر فلو بثته لقطع مني هذا الخلقوم » وقول ابن عباس في قوله تعالى « الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ؛ يتنزل الأمر بينهن » لو ذكرت لكم تفسيره لرجتموني . وفي رواية لقلتم « أنى كافر » . تلك هي أقسام العلوم عند محيي الدين ؛ وفيها تنطوي معارف البشر كافة من علوم ظاهرة وباطنة . فعلم العقل . هو علم الأدلة ؛ علم الجدل والإقناع ؛ علم التفكير والنظر ؛ وبدايته ونهايته محددة ؛ ومعارفه حولها القيود والسدود . لأنه خاضع لإدراكات العقل ؛ وقانون الفكر ؛ ولهذا جاء منه الصحيح والفساد ؛ لاختلاف العقول وتباينها ؛ وهو علم مباح للناس كافة ؛ كما رزق الناس كافة العقول .

أما علم الأحوال ؛ فهو علم التجربة والذوق ؛ لا يعرفه إلا من جرب أو ذاق . كمقامات المتصوفة ودرجات أحوالهم ؛ أو حالات النفس من الرضا والغضب ؛ أو تذوق الحواس المرارة والحلاوة ؛ وشرطه صحة الأداة عند صاحبه حتى لا يفسد حكمه على الأشياء .

وهو علم وسط بين علوم العقل وعلوم الأسرار ، ولهذا يشترك فيه المتصوفة وغيرهم ، لكل إنسان مذاق وشاهد ، وليس لأحد أن يصدر حكماً على ما يذوق أو يشاهده صاحب هذا العلم ، لأنه إنما يذكر ما ذاق خاصة ، وما شاهد وحده .

٩١
٩٢
أما العلم الثالث ، علم الأسرار ، فهو علم المتصوفة وحدهم علم المشاهدة
والمكاشفة العلم الجامع المحيط الشامل المعارف كافة ، العلم الذي هو
للأنبياء أصلا ، وللأولياء خله ومنحة . وعلى العاقل أن لا ينكر ، بل عليه
أن يتقبله باقبول الحسن مادام لا يتعارض مع أصل من أصول الشريعة ،
ولا يهدم ركنا من أركانها بل هو يشرح الأصول ويدعم الأركان ، ومن
هذا الفيض كانت معارف محبي الدين ، والمعتز على هذه العلوم بلا دليل
متهور ناقص العقل ، محروم من الفهم والخير .

علم التجليات

ويستطرد محي الدين ، فيضيف لهذه العلوم تمة تكمل بها . أو إن شئت فهو يحدثنا عن المقام الذي تنزل منه المعارف على أربابها .

والتصوفة يؤمنون بأن المعارف أصيلة في النفس البشرية لا دخيلة عليها ، لأن العلوم كافة من الله ، هو مانحها ، وهو سبحانه واهبها ومفيضها ، علم آدم الأسماء كلها ، ويعلم من يشاء .

يصور لنا محي الدين الكون في صورة جميلة منسقة منظمة متماسكة ، يشد بعضها بعضاً بناموس وقانون إلهي محكم ، ومن قانون هذا الكون الحركة الدائمة ، وهذه الحركة ، كما هي في الكون ، مصدر وجوده أو كما يقول . إن الخلق مع الأنفاس يتجدد . هي أيضاً في الإنسان مصدر أحواله ومعارفه يقول محي الدين .

« العالم في حركة دائمة ، وللإنسان أحوال متقلبة ، حتى ليحدث القلب بين كل نفسين ، ومرد هذه الحركة في الكون إلى قوله تعالى « كل يوم هو في شأن »

وأعلى العلوم هي مرتبة العلم بالله سبحانه ، وأعلى الطرق إلى العلم بالله . علم التجليات ودونها علم النظر . وعلم التجليات هو الذي نزل فيه « وقل رب زدني علماً » أي زدني من كلامك ما تزيدني به علماً بك .

والتجلى أشرف الطرق إلى تحصيل العلوم ، وهي علوم الأذواق ، ولكل

شيء ظاهر وباطن ، وكذلك نفس الإنسان لها ظاهر وباطن ، فهي تدرك بالظاهر أموراً ، وتدرك بالباطن أموراً .

والتجلى يأتي للنفس البشرية بحسب حالتها واستعدادها . فتتبع الزيادة في علوم الأحكام إن كان من علماء الشريعة ، وفي علوم موازين المعنى ، إن كان منطقياً ، وفي علوم ميزان الكلام إن كان نحوياً . وكذلك صاحب كل علم .

أما الصوفي ، فتتبع له الزيادة في عالم الحقائق والمعاني ، في العلوم الإلهية وعلوم الأسرار وعلوم الباطن ، وما يتعلق بعلوم الآخرة ، وتلك منحة المنح لهم . ثم يقول محيي الدين « إن تلك الهبات الربانية الهابطة من مقام التجلى على كل بحسب علمه تجعل الإنسان في زيادة علم أبداً . من ناحية ما تعطيه حواسه وتقلبات خواطره ، ولكن أغلب الناس لا ينتفعون بهذه العلوم . لأن الظن والشك والوسوسة تفسدها ، كما تذهب بها الظلمة ، ولا يسلم دائماً إلا أهل الله الذين برؤا من الظنة والشك ، وليست للوسوسة عليهم سلطان ، ولا للظلمات إلى حياتهم من سبيل ، فهم في نطاق الرحمة والعناية ، وفي زيادة دائمة متلاحقة من العلوم والمعارف .

ثم يقول ولكل رجل من أهل الله . سلم يخصه ، يرق فيه في معارج التجليات ، ولا يرق معه غيره في ذلك السلم .

ولسلم المعارف درجات ، أولها الاتقياء وآخرها الفناء ، وما بين هاتين الدرجتين أنوار وأسرار وفيوضات وهبات لدنية .

ويربط محي الدين على أفواه من يريد أن يتطرق من هذا القول إلى

الظنة ، ورمى المتصوفة بالباطل من القول ، فيمسك بالميزان القسط قائلاً :-
إن الأمر الإلهي التشريعي انتهى بانتهاء الأنبياء وختم بخير الرسل . فما بقي
للولى العابد العالم ، إلا المناجاة الإلهية التي لا أمر فيها ، وإنما سمرأً وحديثاً ،
ومحبة ورضا . فكل من قال من أهل الكشف ، أنه مأمور بأمر إلهي في حركاته
وسكناته مخالف لأمر شرعي محمدى تكليفي ، فقد التبس عليه ، أو زج بنفسه
بيننا وليس منا .

الطريق الأعظم

فإذا انتهى محي الدين من تقسيم العلوم إلى أقسامها الثلاث وإن أشرفها وأسمأها علم الأسرار ، وهو علم الكمل من المتصوفة . وإذا فرغ من مقام التجليات وأثره في العلوم عامة . وعلوم الله خاصة . أخذ يلقى النور على الغاية من الحياة . وعلى الطريق الأعظم الموصل إلى الله . وهو طريق أهل الخلاصة . أو أهل الصفوة المختارة من العباد . الذين هم عطر هذا الوجود . ونحل النظر والعناية من خالقه . فيقول :

«اعلم أن الطريق إلى الله تعالى . الذي سلكت عليه الخاصة من المؤمنين الطالبين نجاتهم . دون العامة الذين شغلوا أنفسهم بغير ما خلقت له . على أربع شعب .

بواعث . ودواعي . وأخلاق . وحقائق . والذي دعاهم إلى هذه الدواعي والبواعث والأخلاق والحقائق . ثلاثة حقوق فرضت عليهم . . . حق الله سبحانه ، وحق للخلق . وحق لأنفسهم . فالحق الذي لله تعالى عليهم أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً ، والحق الذي للخلق عليهم . كف الأذى كله عنهم ، ما لم يأمر به شرع من إقامة حد ، وصنائع المعروف معهم على الاستطاعة والايثار ، ما لم ينه عنه شرع ، فإنه لا سبيل إلى موافقة الغرض إلا بلسان الشرع ، والحق الذي لأنفسهم عليهم أن لا يسلكوا بها من الطرق إلا الطريق الذي فيه سعادتها ونجاتها ، وهو طريق الفطرة . فإن أبت فلجهد قام بها أو سوء طبع ، فإن النفس الأيية إنما يحملها على إتيان الأخلاق

الفاضلة دين أو مروءة . فالجهل يضاد الدين ، وسوء الطبع يضاد المروءة »
وإذن فالإنسان . يعيش في هذه الحياة ، تحت ظلال ، ثلاثة حقوق
مقدسة مفروضة ، يجب عليه أن ينهض بها ، فيؤدي واجبها ، وتلك الحقوق ،
هي مناسط سعادته ، وقوام حياته .

حق لله تعالى . وهو أول الحقوق وأوجبها ، فما خلق الإنسان إلا لهذا
« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » يعبد سبحانه ليلاً ونهاراً عبادة
خالصة لوجهه الكريم المنعم المتفضل . خالية من الشرك الأكبر ومن
أدراكه وهي الشرك الأصغر ، من رياء ونفاق ، وما إلى الرياء والنفاق من
صفات وأخلاق ، أو كما يقول محيي الدين . من خاف أحداً من عباد الله ،
فما تحقق بالعبودية . ولا ذاق معناها ، ولا أدرك سرها .

والحق الثاني . هو حق الناس عليه ، وهو قوام الحياة الاجتماعية
الفاضلة ، الحياة السعيدة الكاملة للعالم . فالدنيا تكونت من فرد . ومن
الأفراد يتكون المجموع ، وبالتالي تتكون الإنسانية فإذا صلحت صلحت
الفرد بالفرد . صلحت صلوات الجماعات . وصلحت حياة الكون ، وصفت
من البغضاء وما إلى البغضاء من صفات تؤدي إلى التناحر والشقاء .

وأول واجبات هذا الحق . كما يقول محيي الدين . كف الأذى كله عن
الناس . وكله هنا آية تحتاج إلى حنف ومجملات . الأذى كله ، حتى مادي
وخفي ، حتى الإيذاء والإشارة البغيضة حتى خاطرة السوء ، وأمنية الأذى .
وليس كف الأذى . وليس حب الخير فحسب . بل أيضاً الإتيار على
النفس ، وهو مقام من الخلق عظيم ، لا يطيقه إلا رجال النور والايقان .

فإذا أدى واجب الناس . بقى عليه واجب نفسه . وهو أن لا يدفع بها
 إلى ظلمات الدنيا وأحزانها . وجحيم الآخرة وعذابها . واجبه أن يتقدها من
 هذا المول العظيم ، فيسلك بها طريق الخير والسعادة . طريق العبادة
 والطاعة ، طريق الرضا والمحبة ، طريق الله عز وجل .
 فإن أبت النفس ، أن تلج هذا الباب الكريم . وأن تسير في هذا
 الطريق القويم . فلجبل أو سوء طبع ، لأن الفطرة تدفع بالنفس إلى هذا
 الطريق الرباني ، الذي فطر الله الناس عليه فلجبل وسوء الطبع ، هما العوائق
 التي تحول بين النفس وفطرتها ، وبين النفس وسعادتها .
 ولا علاج للجبل ، إلا بنور العلم الإلهي . ولا دواء لسوء الطبع ،
 إلا بغير النفس على النهج الصوفي ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وسنته
 التي ارتضاها لعباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

محى الدين . والفرق الاسلامية

فاذا فرغ محي الدين من وضع العلامات ، التي ترشد إلى الطريق الأعظم الموصل إلى الله وهو طريق الطاعة والعبادة ، والصفاء والحجة ، وأوضح لنا حق الله . وحق الناس ، وحق النفس على صاحبها ، بتزكيتها وتطهيرها وتوجيهها إلى فاطرها وموجدها ، عطف على الفرق الاسلامية التي احترفت الجدل وتعبدت في محاريبه ، فتنفرت بها السبل ، وركضت مع الأهواء ، فركبتها حتى الكلام والنقاش تحولت الاسلام من القلوب ، إلى الألسن والعقول . حولته إلى صراع وخصام . وتقاتل وتبارز بالألفاظ ، وضربت على فطرته وصفاته الأول ، بسحب مظلمة مرعدة ، أخذت على المسلمين حياتهم فانصرفوا من محاريب التقوى والعمل والايمان ، إلى منابر الخصومات والجدل والكلام ، وأسلمهم الجدل إلى تلاحى وغناد ، لم تحل عقده ، وإلى فرقة لم يجمع شملها ، لأنهم ضربوا بالسنتهم في بيداء لا حدود لها ، وسبحوا في محيط صخب ، لانهاية لعبابه ، وغضبه أمواجه ، وهل ينتهى القول مادام للجدل بابا ، بل أبوابا ، في مشاكل القضاء والقدر ، وخلق أفعال العباد ، وصفات الله سبحانه ، وما إلى تلك المعضلات ، من شبهات ومثيلات .

ولقد وقف محي الدين . في وجه كل تلك الفرق . المتلاحية المتشدقة المتعالة . وقفة المؤمن العظيم الذي يدعو إلى الله على بصيرة من أمره ونور من عقيدته ، وقف في يمينه كتاب الله وسنة نبيه . يدعو إليها ، ويهتف

بأن الإسلام . تسليم وإيمان وعمل . لا يعرف الشك ، ولا يقر الجدل ، ولا يحتاج إلى حوار . خاصا للتأويل محاربا له . لأن الإيمان يجب أن يكون بما أنزل الله من الألفاظ والمعاني ، لا بما أوله العقل ، وابتدعه التصور أو المنطق . آمن الرسول بما أنزل إليه ، فالحق تعالى ، ما كلفنا ، أن نجادل في القضاء والقدر ، بل أمرنا بالإيمان بهما ، كما عبر عنهما ، وماطلب إلينا بيانا ، بما ينسب من أفعال الإنسان إليه ، وما ينسب إلى خلقه ، وما أمرنا أن نعلم حقيقة نسبة الصفات إليه تعالى ، لعلمه بعجزنا عن ذلك ^(١) ، فإن حقيقة صفاته تعالى مبينة لجميع صفات خلقه وحقائقهم . فليس كمثل شيء ، وهذا هو الفيصل ، فعلام الجدل والحوار ، ولا طاقة للعقل البشرى بذلك اللون من المعارف التي هي من فوقه ، والتي تسمو على امكانياته وخصائصه وماخلق له .

الجدل . والاسلام

ولقد حرم الاسلام الجدل ونهى عنه ، لأن الجدل لا يضاحبه اليقين ولا يعرف التسليم . بل هو علامة من علامات الشك ، أو كما يقول ابن عربي . إيمان بما تتبكر العقول ، من ألوان وصور ، لا بحقائق الإيمان كما جاء بها الفرقان . »

ولقد حذر الرسول صلوات الله عليه أصحابه ، ومن آمن به ، من الجدل وعواقبه . ونهى وأغلظ في الأمر بتجنب البحث وراء القضاء والقدر وسرها ، لأنه يسلم إلى ظلمات من الشكوك ، لا نور معها ولا يقين . وطلب من أتباعه التفكير في آيات الله ، لا في ذاته وصفاته والا هلكوا .

(١) كان الامام الجنييد يقول « لا يعرف الله . لا الله »

ومع هذا ، فقد ألوى المسمون بأعناقهم عن سنة نبيهم ، وضربوا في شعاب الجدل والبحث وأثاروا في أفق الاسلام غبارا لا يزال يخنق ، ولا يزال يرمى بالضحايا .

عن أمانة . قال : قال .. رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل . » رواه الترمذى .

وعن عمر بن شعيب ، عن أبيه عن جده . قال : خرج رسول الله صلوات الله عليه . على أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون في القدر ! فخرج مغضباً حتى وقف عليهم . فقال . يا قوم بهذا ضلت الأمم قبلكم ! باختلافهم على أنبيائهم . وضربهم الكتاب بعضه ببعض . وأن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضاً . ما عرفتم منه فاعملوا ، وما تشابه فامتنوا به . رواه مسلم .

وعن أبي هريرة . قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونحن نتنازع في القدر فغضب حتى احمر وجهه ، ثم قال . أبهذا أمرتم ؟ أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا .

وعن أبي الدرداء وأبي أمامة وأنس بن مالك قالوا . خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في شيء من الدين فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله ، ثم انتهرنا وقال . يا أمة محمد . لا تهبجوا على أنفسكم ثم قال . أبهذا أمرتكم . أوليس عن هذا نهيتكم . إنما هلك من كان قبلكم بهذا . ذلك هو البيان الذي لا يبان بعده ، لا تضرب آيات القرآن بعضها

بعض ، جدلاً وعناداً ، وإنما عمل بما تعرف ، وإيمان بما تشابه ، فلا تنازع
يعقبه القتل ، ولا تخاصم وتنازع وبغضاء تورث الهلاك ، ولا يهيج المسلم على
نفسه غضبا من الله ، بذلك اللحن البغيض ، من القول المسموم .

هكذا كان محمد صلوات الله عليه ، وصحبه رضوان الله عليهم . حتى
فتحت علينا فرق الجدل وعلماء النظر ، وأئمة الكلام . أبواب
هذا الجحيم .

جاء في كتاب « أعلام الموقعين » وقد تنازع الصحابة في كثير من
مسائل الأحكام ، وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيمانا . ولسكن بحمد
الله ، لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال .
بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة . كلمة واحدة ، من أولهم
إلى آخرهم ، لم يسوموها تأويلا ، ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلا . ولم
يبدؤا لشيء فيها إبطالا ، ولا ضربوا لها أمثالا ، ولم يدفعوا في صدورهم
واعجازها ، تلقوها بالقبول والتسليم ، وقابلوها بالإيمان والتعظيم .

صفات الله تعالى

جاء القرآن الكريم ، بكثير من صفات الله سبحانه وتعالى ، تقف
لها العقول ، كقوله تعالى « يد الله فوق أيديهم » « كل شيء هالك إلا وجهه »
« لما خلقت بيدي » « والسماء بيناها بأيدي » « ثم استوى على العرش » .
وجاءت الأحاديث النبوية الصحيحة بالكثير أيضا من تلك الصفات
التي توهم العمول الضعيفة التجسيم والتشبيه ، كقوله صلوات الله عليه ، كما جاء

في الصحيحين « لا تزال جهنم يلقى فيها ، وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فينزوي بعضها إلى بعض » .

وقد فهم الصدر الأول رضوان الله عليهم ، بأن كل هذه الصفات حق ، لأن الله سبحانه كما سمي نفسه . وكما وصف نفسه . والقاعدة التي احتكموا اليها « ليس كمثله شيء » لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله . فكل ما أوجب تقصاً أو حدوثاً أو مشابهة ، فإن الله سبحانه منزّه عنه لأنه تعالى مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه .

وقد علم الرسول صلوات الله عليه ، ما يساور النفوس من وسوسة والقاء بسوء ، فقتل باب الجبل والتأويل والبحث والنظر في هذه الصفات ومدلولاتها ، فأوصى أصحابه بقوله « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا » وفي رواية أخرى « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله » .

تلك وصية أماننا الأعظم صلوات الله عليه . ومع هذا فقد أراق المسلمون من المداد حول صفات الذات ، وحول التجسيم والتنزيه وما إلى التجسيم والتشبيه والتنزيه من صفات ونعوت . طوفانا أغرق الأمة الإسلامية ، وما نظفت أثوابها بعد من سواده ، ولا طهرت من آثاره .

فقد شهد العراق والشام والحجاز ، صياحا من الشيعة والرافضة ، بأن اليد والجسم والأعضاء التي وردت في القرآن لله سبحانه وتعالى ، هي نعوت حقيقة لأعضاء جسمية ربانية ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

وشهدت العواصم الإسلامية ، بل والقرى والكفور ، بعض رجال الحديث يقولون « إن الله سبحانه ينزل إلى السماء الأولى في ليلة النصف

من شعبان ، كنزول من ينزل من السلم من درجة إلى درجة (١).

وجاء المعتزلة ، فتنادوا بتنزيه الله سبحانه عن تلك الصفات وأخذوا يصرفون كل ما يفيد التجسيم إلى المعنويات ، أو إلى صفات أخرى تليق في زعمهم بالله سبحانه ، كقولهم ، الاستواء على العرش ، بمعنى الاستيلاء . واليد بمعنى القدرة ، وهكذا .

أو كما يقول محي الدين « إن المعتزلة بل والأشاعرة أيضا ، تخيلت أنها لما تأولت قد خرجت من التشبيه الذي تعييه على المجسمة ، وهي ما فارقته إلا أنها انتقلت من التشبيه بالأجسام إلى التشبيه بالمعاني ، المحدثه المفارقة للنعوت القديمة في الحقيقة والحد . »

وجاء ابن عربي ، والجلد في عنفوانه والحوار مستغر الأوار في العالم الإسلامي ، بين شتيت الفرق والمذاهب ، حول صفات الذات ، بين المجسمة والمشبهة ، والمنزهة ، فأرسل صيحة جبارة ببطلان كل هذه الآراء ، وخروجها عن صراط الدين السوي للمستقيم ، وبضرورة الرجوع إلى ما كان عليه السلف الصالح من إيمان وتسليم بكل ما ورد في القرآن كما ورد ، وكما وصفه الله سبحانه ، لأن المجسمة قد ألدوا ، إذا أثبتوا لله سبحانه صفات كصفات البشر تفيد المشابهة ، وهو تعالى . ليس كمثله شيء .

والمنزهة من المعتزلة والأشاعرة ، قد أولوا تلك الصفات ، وحملوها معان ارتضتها عقولهم ، فنجوا من التشبيه الجسد ليقعوا في التشبيه المعنوي ، ثم هذه الصفات المعنوية التي ابتدعوها ، أليس من الجائز ، أن تكون خاطئة ، والعقل يصيب ويخطئ فإذا كانت خاطئة ، فقد نسبوا الله تعالى ما لم يقله .

(١) ينسب هذا القول إلى الامام ابن تيمية

يقول محيي الدين « اعلم أن الخير كله في الإيمان بما أنزل الله ، والشر كله في التأويل فمن أول فقد أخرج إيمانه ، وما كان ينبغي له ذلك ، وفي الحديث « كذبني عبدني ، وما كان ينبغي له ذلك » فلا بد أن يسئل كل مؤول عما أوله يوم القيامة ، ويقول له تعالى . كيف أضيف إلى نفسي شيئاً فتبزهني عنه ، وترجح عقلك على إيمانك ، وترجح نظرك على علم ربك ، فاحذر يا أخي أن تنزه ربك عن أمر أضافه إلى نفسه على السنة رسله ، فإن العقل يخطئ في الإلهيات فلا يعول عليه . ثم يقول : ومن العجيب أن الإنسان يعتمد على عقله في أن يقلد ربه صفات ، ولا يأخذ بما أخبر عن نفسه تعالى في كتابه وسنة نبيه ، فهذا من أعجب ما طرأ في العالم من الغلط وكل صاحب فكر أو تأويل فهو تحت هذا الغلط بلا شك .

ومن العجب . أن الله تعالى يخبر بشيء عن نفسه في كتابه المحكم . فيأتي الإنسان بعقله القاصر صاحب الآفات والعلل ، فيقول إن عقلي يرد ذلك ؟ وفكري لا يحتمل ذلك ؟ وإنما يجب التأويل أليس يقول ما أخبر به الله عن نفسه ، أولى من قبوله من فكره ، وأليس عاقبة هذا التأويل المعتمد على الفكر والعقل أن يصوغوا من خيالهم وتفكيرهم خالفاً غير ما في كتاب الله . »

ويتابع محيي الدين حملته التقوية على المعتزلة فيقول ناحياً وموجهاً « اعلم أن من الأدب عدم تأويل آيات الصفات ووجوب الإيمان بها مع عدم الكيف كما جاءت ، فإننا لا ندرى إذا أولنا على ذلك التأويل مراد الله فنعتمد عليه ، أم ليس هو بمراد له فيرده علينا . فلهذا الزمنا التسليم في كل

ما لم يكن عندنا فيه علم من الله تعالى ، فإذا قيل لنا كيف يعجب ربنا ،
أو كيف يفرح مثلاً ، أو كيف يغضب ، كما ورد في القرآن والأحاديث ، قلنا
إيانا مؤمنون بما جاء من عند الله على مراد الله ، وإيانا مؤمنون بما جاء من
عند رسول الله على مراد رسول الله ، ونكل علم الكيف في ذلك كله إلى
الله وإلى رسوله ، وهذه كانت طريقة السلف ، فلا تأويل ولا تجسيم
ولا تشبيه ، وإنا ليس كمثل شيء .

ثم يقول « اعلم أن جميع ما وصف الحق تعالى به نفسه من خلق وأحياء
وإماتة ، ومنع وعطاء ، ومكر واستهزاء ، وفرح وتعجب وغضب ورضا
وتبشيش وقدم ويد وعين وأعين ، وغير ذلك ، كله نعت صحيح لربنا فإننا
ما وصفناه به من عند أنفسنا ، وإنا هو تعالى الذي وصف بذلك نفسه
على السنة رساله قبل وجودنا ، وهو تعالى الصادق وهم الصادقون بالأدلة
العقلية ، ولكن ذلك على حد ما يعلمه سبحانه وتعالى ، وعلى حد ما تقبله
ذاته ، وما يليق بجلاله ، لا يجوز لنا رد شيء من ذلك ، ولا تكيفه ولا نقول
بنسبته إلى الله . إلا على الوجه الذي أراده . وعلى غير الوجه الذي ينسبه
إلينا ، ونعوذ بالله أن نضيف ذلك إلى الله على حد علمنا نحن به ، فإننا
جاهلون بذاته في هذه الدار ، وفي الآخرة لا ندرى كيف الحال .

وما جئنا صاحب العقل إلى التأويل إلا لينصر جانب العقل والفكر
على جانب الإيمان . فإنه ما أول حتى توقف عقله في القبول . فكأنه في
حال تصديقه لله غير مصدق له ، فإيمانه في حال تأويله إنما هو إيمان
بما أول ، لا بما آتى به الخير . »

صفات الله عند العارفين

يقول محيي الدين . أن العقلاء وأصحاب الأفكار اختلفت مقالاتهم في الله تعالى على قدر نظرهم ، فالله الذي يعبد بالعقل مجردا عن الإيمان ، كأنه ، بل هو إله موضوع ، بحسب ما أعطاه نظر ذلك العقل ، فاختلفت حقيقته بالنظر إلى كل عقل ، وتفاوتت العقول ، وكل طائفة من أهل العقول تجهل الأخرى بالله ، وإن كانوا من النظائر الاسلاميين المتأولين ، فكل طائفة تكفر الأخرى . والرسول من عهد آدم إلى محمد عليه السلام ما ثقل عنهم اختلاف فيما ينسبونه إلى الله من النعوت . بل كلهم على لسان واحد في ذلك ، والكتب التي جاؤا بها ، كلها تنطق في حق الله بلسان واحد ما اختلف فيها اثنان . بل يصدق بعضهم بعضا مع طول الأزمان وعدم الاجتماع .

وكذلك المؤمنون بهم على بصيرة ، فهم المسمون المصدقون الذين لم يدخلوا نفوسهم في تأويل ، فهم أحد رجلين . أما رجل آمن وسلم ، وجعل علم ذلك إليه ، إلى أن مات وهو المتولد ، وأما رجل عمل بما علم من فروع الأحكام واعتقد الإيمان بما جاء به الرسول ، فكشف الله عن بصيرته وصيره ذا بصيرة في شأنه كما فعل نبيه عليه السلام وأهل عنايته ، فكاشف وأبصر ودعا إلى الله على بصيرة ، كما قال في حق نبيه صلوات الله عليه خبرا .

« أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني » وهؤلاء هم العلماء بالله العارفون وإن لم يكونوا رسلا ولا أنبياء ، فهم على بينة من ربهم في علمهم به . وبما جاء من عنده ، وكذلك وصف نفسه بكثير من صفات المخلوقين من المجيء والالتيان ، والغضب والفرح ، والتجلى للأشياء ، والوجه واليد ، والرضى والكره في كل خبر صحيح ورد في كتاب أو سنة نبيه والأخبار أكثر من أن تحصى . مما لا يقبلها إلا مؤمن بها من غير تأويل ، أو بعض أرباب النظر من المؤمنين ، بتأويل اضطره إليه إيمانه .

فانظر مرتبة المؤمن ما أعزها ، ومرتبة أهل الكشف ما أعظمها حيث لحق أصحابها بالرسل والأنبياء ، فيما اختصوا به من العلم الآلهي الذي لا يدخله الشك ولا الريب ، لأن العلماء ورثة الأنبياء وما ورثوا دينارا ولا درهما بل ورثوا العلم بقوله صلى الله عليه وسلم « إنما نحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » .

العقل لا يدرك الله

فإذا أوضح لنا محيي الدين مكانة العلماء العارفين بالله الذين يؤمنون بربهم إيمانا يقينيا لا يعرف الشك ولا التأويل ، أخذ يحدد وظائف العقل البشري ، ثم أوضح أنه لا يستطيع إدراك صفات الله تعالى وما يتعلق بها لأنه لا مشاركة بينه وبين خالقه . فقال :

« والعقل البشري لا يدرك الله تعالى ، لأن العقل البشري يعلم أو يدرك ما بينه مشاركة في النوع أو الجنس أو الطبيعة . وإنما يدرك الله

بالقلب والكشف والوحي ، فانظر إلى ما وصف الله به نفسه في كتابه
تعرف لباب التوحيد .

ثم يقول « لقد نظرنا بقوة العقل ، وما أعطاه العقل الكامل ، بعد
جده واجتهاده الممكن ، فلم نصل إلى المعرفة به سبحانه إلا بالعجز عن
معرفته ، لأننا طلبنا أن نعرفه كما نطلب معرفة الأشياء كلها من جهة الحقيقة
التي الأشياء عليها ، فما عرفنا إلا أن ثم موجودا ليس له مثل ولا يتصور في
الذهن ولا يدرك ، فكيف يضبطه العقل ؟ وهذا مما لا يجوز مع ثبوت العلم
بوجوده ، فنحن عالمون بالوجود وهو العلم الذي طلب منا ، وما كان تعالى
لا يشبه شيئا من المخلوقات ولا يشبه شيء منها ، كان الواجب علينا أولا
كما قيل لنا « فاعلموا أنه لا إله إلا الله » ان نعلم ما العلم ، قال صلوات
الله عليه « ان الله احتجب عن الأبصار ، وإن الملائكة الأعلى يطلبونه كما
تطلبونه أنتم » فاخبر صلى الله عليه وسلم ، إن العقل لم يدركه بفكرة
ولا بعين بصيرته كما لم يدركه البصر .

هكذا فليكن التنزيه ونفى المماثلة والتشبيه ، وما ضل من ضل من
المشبهة إلا بالتأويل ، وحمل ما وردت به الآيات والأخبار على ما يسبق منها
إلى الافهام من غير نظر فيما يجب لله تعالى من التنزيه ؛ فقادهم اعتمادهم على
العقل إلى الجهل المحض والكفر الصراح ؛ ولوطلبوا السلامة وتركوا الآيات
والأخبار على ما جاءت من غير عدول منهم فيها إلى شيء ألبته ووكلا علم
ذلك لله ورسوله ، وقالوا لا ندرى لكان يكفيهم قوله تعالى — ليس
كمنه شيء — فتى جاءهم حديث فيه تشبيه ، فقد أشبه الله شيئا وهو

سبحانه قد نفى التشبيه عن نفسه ، فما بقي إلا أن ذلك الخبر له وجه من وجوه التنزيه يعرفه الله تعالى ، فمن أول أو شبه ، فقد تعدى على الله سبحانه ، قال تعالى « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » وما قدروا الله حق قدره لما يسبق إلى القول الضعيفة من التشبيه والتجسيم عند ورود الآيات والأخبار التي تعطى من وجه ما ، من وجوها ذلك . ثم قال بعده هذا التنزيه الذي لا يعقله إلا العالمون . والأرض جميعا قبضته ، عرفنا من اللسان العربي أن يقال فلان في قبضتي ، ويريد أنه تحت حكمي . وإن كان ليس في يدي منه شيء البتة ، ولكن أمرى فيه ماض وحكمي عليه قاض ، مثل حكمي على ما ملكته حسا وقبضت عليه ، ومن ذلك أيضا التعجب والضحك والفرح والغضب . فالتعجب إنما يقع من موجود لا يعلم ذلك التعجب منه ثم يعلمه فيتعجب . وهذا محال على الله »

ذلك هو الفيصل في معركة ، التشبيه والتنزيه ، بين المعتزلة والمجسدة ورجال الحديث ، الفيصل في ذلك الجدل والحوار الذي شغل العالم الاسلامي في القرن السادس ، حتى أوقدت نار الحرب بسببه في ربوع الشام . وهو الرجوع إلى منهج الصحابة رضوان الله عليهم في الصدر الأول فلا جدال ولا حوار ، وإثبات إيمان بما جاء به القرآن على ما جاء ، والله سبحانه صفات الكمال والجلال وليس كمثل شيء ، فهو مخالف للحوادث والصفات وللأفعال مخالفة مادية ومعنوية ، فلا تشبيه ولا تأويل للتنزيه ، فالتشبيه

كما يقول محي الدين « تثنية المشبه ، والتنزيه تحديد المنزه ، وكلاهما باطل لا يليق .

وبذلك أغلق محي الدين بابا من أبواب جهنم ، فتح على العالم الإسلامي واطفاً خصاماً ، طال مداه واشتد خطره ، وعاد بجمهرة الأمة من الجرى وراء هذه الأوهام ، إلى حقائق الدين الثابتة ، إلى الايمان والتسليم والاقبياد لمنطق القرآن ، وسنة الرسول .

ومحي الدين ، يقول أن هذا هو حد الايمان الواجب على المؤمنين كافة أما من يريد بعد ذلك ، أو فوق ذلك فهما لما يراد من حقيقة صفات الله سبحانه ، فليس سبيله العقل والفكر ، وإنما هو الالهام من الله تعالى : يقول «فاذا خلع الله تعالى على عبده من علمه . أعلمه من طريق الالهام بمراده من تلك الآية أو الحديث ، وهو من علوم العارفين .

القضاء والقدر

وأفعال العباد

فاذا انتهى محيي الدين من صراعه مع الفرق الإسلامية المختلفة ، حول صفات الذات والتشبيه والتنزيه والتأويل ، انتقل إلى ميدان آخر من مشكلات الفكر ، ومعضلاته ، مشكلة القضاء والقدر — وخلق أفعال العبد ونصيبه من عمله . وهو ميدان لعب فيه التأويل والجدل والحوار أيضاً دوراً كبيراً خطيراً .

ومسألة الكسب ، اعترف رجال الأصول بأنها من أدق مسائلهم وأغمضها وأعصاها على الفكر والعقل ، هل الإنسان مجبر على ما يفعل ، مقدر له ما يكسب ؟ وأذن فعلام الجزاء والعقاب ؟ أم الإنسان مخير يصنع نفسه ، ويخلق الحوادث ، ويسهم في تكيف ما قدر له ؟

وقد تلفف رجال الفكر والنظر ، هذا الاشكال فداروا به حول عقولهم . ودارت عقولهم به فراحوا يشققون الاحاديث حوله ويتدعون الحلول والاقاويل ، ولكنهم ابداً يجدون أنفسهم ، في حلقة مفرغة تأخذ باعناقهم ، يبدوون من حيث ينتهون . وينتهون من حيث يبدؤون . فما سلم لهم رأى ولا خلاص لهم فكر .

هتف رجال الجبر بأن كل شيء من الله ، والإنسان آلة مجبورة

متصورة على ما تفعل ، لأرادة لها ولا تصريف ، كالقلم في يد الكاتب .
وللشار في يد النجار ، وراحوا يضربون الأمثال للناس ، حتى إذا قيل لهم
فكيف أذن يعاقب هذا المحبور المتهور على ما يفعل ، صمت منهم اللسان
واغضوا الطرف حيرة وارتباكا .

وقالت المعتزلة هذا لا يليق ، لأن فيه نسبة الظلم إلى الله تعالى وهو
سبحانه العادل الذي تسمو عدالته على الريب والظنون ، وابتدعوا لهذا
شيئا عجبا ، هو أن القضاء والتقدير معلق يقع عند العمل ، وأرادة الإنسان
هي الحكم ، بين حدوث الفعل أو عدمه ، ولكن هل أغنى قولهم من
الحق شيئا ؟ وهل أشفى النفوس من الريب والشكوك . وتلك النفوس
تشهد بأن كل شيء لله ، ومن الله ، بهذا نطق القرآن ، وجاءت الأحاديث .
أما المتصوفة . فقد نهجوا مسلكا وسطا هو نهج السلف الصالح .
كل شيء من الله ، هذا حق ، ولكن الإنسان مكلف . وهو لهذا يعاقب .
وكل إنسان يسره خالقه لما خلق له في علم الله الأزلي وهو لهذا محل
للعقاب والثواب .

وبهذا لم يدور المتصوفة مع الجدل . ولم يركضوا عقولهم مع شبهة
الحوار . بل سلموا الأمر لله مع الأدب . فما يصيب الإنسان من خير فمن
الله . وما يصيبه من سوء فمن نفسه . التي علم الله خصائصها منذ الأزل .
فيسرها لاستعدادها وطاقاتها ، وما انطوت عليه .

آمن رجال التصوف بأن كل شيء من الله . وأنه خالق الأشياء .

وخالق أسبابها . وأنه سبحانه يكون عند السبب وحاصله ونتيجته . وأن
حكمة الله فوق عقولنا .

« عن جابر رضى الله عنه » قال : جاء سراقه بن جعشم ؛ فقال :
يا رسول الله ؛ بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن ؛ فيم العمل الآن ؛ فيما
جفت به الأقلام ؛ وجرت به المقادير ، أم فيما يستقبل ؛ قال : لا بل فيما
جفت به الأقلام ، وجرت به المقادير ؛ قال : فقيم العمل ، قال : أعملوا فكل
ميسر لما خلق له ؛ وكل عامل بعمله ؛ أخرجه مسلم

وهذا هو القول الفصل ؛ والنبا اليقين ؛ كل ميسر لما خلق له ، في علم
الله المحيط بالأشياء عند حدوثها وقبل وجودها

يقول الشعراني رواية عن الشيخ طاهر الصوفي (هذه مسألة من تأملها
وكرر النظر فيها علم غموض معانيها ، وصعوبة مراقبتها ، وما يخص الأمر أن
من زعم أن لا عمل للعبد أصلا ، فقد عاند وجحد ، ومن زعم أنه مستبد
بالعمل فقد أشرك ، وابتدع ، وما بقى مورد للتكليف ، إلا ما يجده العبد
في نفسه من الاختيار للعمل وعلمه)

ويقول محيي الدين : (إنما أضاف الله تعالى الأعمال إلينا ، لأننا محل
الثواب والعقاب ، وهى لله حقيقة ، ولكن لما شهدنا الأعمال بارزة على
أيدينا وادعينها لنا أضافها تعالى إلينا بحسب دعوانا ، ابتلاء منه لأجل
الدعوى ؛ ثم إذا كشف الله تعالى عن بصيرتنا رأينا الأفعال كلها لله تعالى
ولم نر إلا حسنا ، فهو تعالى فاعل فيما نحن العاملون ، ثم مع هذا المشهد

العظيم لا بد من القيام بالأدب ، فما كان من حسن شرعا ، أضفناه إليه خلقا وإلينا محلا ، وما كان من سيء أضفناه إلينا بإضافة الله تعالى ، فنكون حاكين قول الله تعالى ، وحينئذ نريتنا الله عز وجل وجه الحكمة في ذلك المسمى سوءا ، فتراه حسنا ، من حيث الحكمة ، فيبدل الله سيئاتنا حسنات تبديل حكم لا تبديل عين)

ذلك هو الأدب العالى فى التعبير ، وذلك هو اللائق بالثؤمن أن يسلم لله بكل شيء ، وأن يعلم فى الوقت نفسه بأنه خلق ليكون محلا للجريان الأحكام الآلهية بحسب الحكمة الآلهية ، فما كان حسنا فهو إلى الله ينسب وما كان سوءا ، أضفناه إلى أنفسنا محلا ، وإلى الله سبحانه خلقا ، ولو تأمل الإنسان قليلا لعرف الحكمة ولرأى الشيء الذى ظنه سيئا جميلا نافعا ، وحينئذ نرى بفضل تسليمه وإيمانه يبدل الله سيئاته حسنات ، تبديل حكم لا تبديل عين وذلك هو الفضل العظيم ، وتلك حكمة لا يدركها إلا الرجال من عباد الرحمن

ثم يقول (أعلم أن الله تعالى ما أضاف الفعل إلى العبد ؛ إلا لكونه تعالى هو الفاعل حقيقة ، من خلف حجاب جسم العبد ؛ فلم يكن الفعل إلا لله تعالى ؛ غير أن من عباد الله من أشهده ذلك ومنهم من لم يشهده ذلك ؛ قال تعالى — فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ؛ فالتقسيم الذى هداه الله ؛ هو الذى حفظه من دعوى الفعل لنفسه حقيقة — وأما القسم الذى تحق عليه الضلالة ؛ فهو الذى حار ولم يدر ؛ وهم القائلون بالكسب وبخلق الأفعال

قال ابليس : يا رب كيف تقدر على عدم السجود لآدم ثم تؤاخذني
به : فقال جل وعلا ، متى علمت أنى قدرت عليك إلا بآية عن السجود ، بعد
إلا بآية منك أم قبلها ؛ فقال بعدها ؛ فقال ، وبذلك آخذتك

ما يحرى فى البكون جفت به الأقلام ، هكذا يقول الرسول ،
لأن كل ميسر لما خلق له بحسب علم الله القديم الأزل ولا يظلم
ربك أحدا .

بين الفلسفة والتصوف

إنّقى محيي الدين في مطلع شبابه بآبن رشد . فسأله آبن رشد ، هل التّمة التي وصل إليها الفلاسفة بالعقل والفكر ، هي التّمة التي وصل إليها المتصوفة ، بالتّصفية والتّجرد والذكر ؟ فقال له محيي الدين ، نعم ، ولا . وبين نعم ولا تطير الأرواح .

نعم ، لأنّ العقل ، قد يهّدي إلى الله ، ويدرك وينفس أسرار الكون ومعجائبه . وآياته . واسكن العقل التّجرد ، مع وصوله إلى تلك التّمة يتحدّر وينزلق ويضل في التشابهات ، ويضل في تفهيم ذات الله سبحانه ، فضلاً عن ابتعاده عن التّعبّد والتّطهير ، وتحلله من الكمالات الشرعية والعبادات الربانية أو كما يقول محيي الدين ، في حديثه عن آبن رشد . كان بيننا حجاب رقيق ، فكنت أراه ولا يراني .

والعقل التّجرد ، ليس له من القيود ما يعصمه . من سبحانه ، التي تنطير حول المعارف مع الريح في شتى الاتجاهات والغايات . فتصيب حيناً وتخطأ أحياناً . ولهذا قال محيي الدين وبين نعم ولا تطير الأرواح^(١) . ولا جدال في أنّ الفلسفة قد وثبت بالمعارف الانسانية والعلوم النظرية وثبات لها أثرها ومكانتها في الفكر الانساني ، ولكن الفلسفة قد ضلت .

(١) يقول عوسناف لوبون آخر ما وصلت إليه الفلسفة أنّه لا القدرة للعقل حتى الآن .

على فهم أسرار العالم

في الآلهيات ، لأن ما وراء الطبيعة من فوق مدارك العقل ولا أمان فيها إلا
ن طريق الوحي والالهام .

يقول الغزالي في مقدمة كتابه « تهافت الفلاسفة » « ان الفلاسفة
من عهد أرسطو إلى عهدنا هذا ، قد بنوا مذاهبهم في الآلهيات على ظن
وتخمين ، من غير تحقيق و يقين ، ويستدلون على صدق علومهم الإلهية
بظهور العلوم الحسائية والمنطقية ، ولو كانت علومهم الإلهية متينة البراهين ،
تقية من التخمين كعلومهم الحسائية والمنطقية ، لما اختلفوا فيها كما لم يختلفوا
في الحسائية والمنطقية » .

وهو قول صريح في أن الفلسفة ، قد وصلت إلى معارف يقينية في
علوم الحياة . ولهذا انتقت العقول على صحة هذه المعارف ولم تختلف فيها .
وانما وقع الخطأ ، وإنما وقع الاختلاف في علوم الآلهيات وما وراء الطبيعة ،
ولهذا لم يتفق الفلاسفة على رأي واحد في تلك المعارف ، فبين أرسطو
وأفلاطون على ما بينهما من صلات وتلمذة ، خلاف ظاهر ملموس في نظرتهم
إلى حقيقة الخالق ، وحقيقة اتصاله وهيمته على مخلوقاته ، وحقيقة صفاته وعلمه
بالكليات والجزئيات والهامه للأصفياء من عباده والمختارين من رسله .

اختلفوا في النهج والطريقة ، كما اختلف الفلاسفة قاطبة حول هذه
المعرفة . بينما رجال الله من الأنبياء والرسل والأولياء والمتصوفة ، قد اتفقوا
كما يقول محي الدين من لدن آدم إلى يومنا ، على نهج واحد ، ودين واحد
في الايمان بالله ، وما يجب له وما يتصف به . « شرع لكم من الدين ما وصى
به نوحا . واتمى أوحينا إليك . وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى . أن
أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

والتصوف هو بلاريب فلسفة الاسلام . والمتصوفة هم فلاسفة الاسلام
يالتعريف الحمدي والحدود الربانية .

عرف الكندي الفلسفة : بأنها العلم بجميع الأشياء ، وعرفها الفارابي
بأنها العلم بالموجودات بما هي موجودة ، وقال الشيرازي . ان الفلسفة
استكمال النفس الانسانية بمعرفة حقائق الموجودات على ما هي عليها ،
والحكم بوجودها تحقيقا بالبراهين ، لا أخذا بالظن والتقليد ، وأن
شئت قلت نظم العالم نظما عقليا على حسب الطاقة البشرية لتحصل
السعادة العظمى .

ويقول ابن سينا في « فصل ماهية الحكمة » الحكمة صناعة نظر
يستفيد منها الانسان تحصيل ما عليه الوجود كله في نفسه ، وما الواجب
عليه عمله ، مما ينبغي أن يكتسب فعله ، لتشرف بذلك نفسه وتستكمل
ويصير علما معقولا مضاهيا للعالم الموجود ، وتستعد نفسه للسعادة القصوى ،
وذلك بحسب الطاقة البشرية .

فالفلسفة إذن كما عرفها الفلاسفة . هي علم العلوم . أو العلم الجامع
الحيط ، أو العلم الذي يفلسف المعارف ، أو العلم الذي يبحث في حقائق
الأشياء ، ويتلمس أسبابها وعلاها ، لتستكمل النفس معارفها ، فتحصل على
السعادة العظمى ، هذه هي تعريفات الفلسفة ، وهي بذاتها تعريفات التصوف ،
وأما الخلاف في النهج والطريقة .

فالفلاسفة ، يعتمدون على عقولهم وأفكارهم ، ويؤمنون بالتصنيفية
والتجرد ، بل لقد جعل أفلاطون وفلاسفة مدرسة الاسكندرية ، التجرد

والتصفية أساساً لمعارفهم وفلسفتهم ، والنلسنة الاشراقية بأسرها تقوم على التجرد والتصفية .

وهي قربي واضحة للتصوف ، واعتراف صريح بطريقته ونهجه ،
وانما التصوف الاسلامي يمتاز باعتماده على الدين والوحي ، واستمداد معارفه
في الالهييات من الدين وما أتى به الوحي ، ولهذا سامت فلسفته من الخطأ
في الالهييات ، فامتاز بأنه الفلسفة العالئية الوحيدة التي ظفرت بالمعارف
وآمنت في الالهييات ، بينما ضل وأخطأ سواها .

ولسنا نأتى بيدع من القول ، إذ تقول أن التصوف هو الفلسفة الكاملة
المبرأة من الخطأ والضللال ، وأن المتصوفة ، هم فلاسنة الاسلام بمعنى الفلسفة
الاسلامية الكاملة ، فأهداف الفلسفة كلها تنطوي تحت أجنحة المتصوفة ،
ولهم بعد ذلك الصفاء والطاعة ، والسجدة المؤمنة في محاريب الرضا والحبّة -
يقول مصطفى بن عبد الله جلي - المشهور باسم حاجي خليفة -
في كتاب : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون .

« وأما حكمة الاشراق فهي من العلوم الفلسفية بمنزلة التصوف من
العلوم الاسلامية . كما أن الحكمة الطبيعية والالئية منها بمنزلة علم الكلام
فيها . وبيان ذلك أن السعادة العظمى والمرتبة العليا للنفس الناطقة ، هي
معرفة الصانع بما له من صفات الكمال والتزده عن نقصان . وبما صدر عنه
من الآثار والأفعال في النشأة الأولى والآخرة ، وبالجملة معرفة المبدأ والميعاد ،
والطريق إلى هذه المعرفة من وجهين . أحدهما طريقة أهل النظر والاستدلال ،
وثانيهما طريقة أهل الرياضة والمجاهدات . والسالكون للطريقة الأولى ،

ان التزموا ملة من ملل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهم المتكلمون، والا فهم الحكماء المشاءون، والسالكون إلى الطريقة الثانية، إن وافقوا في رياضتهم أحكام الشرع، فهم الصوفية. والا فهم الحكماء الاشراقيون»
ويقول ابن حزم في كتابه — الفصل في الملل والنحل — « الفلسفة على الحقيقة إنما معناها وثمرتها والغرض المقصود من تعلمها؛ ليس هو شيئاً غير إصلاح النفس بأن تستعمل في دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها في الميعاد، وحسن سياستها للمنزل والرعية، وهذا نفسه لاغيره هو غرض الشريعة » .

ويقول ابن رشد في كتابه — فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال — « وينبغي أن تعلم أن مقصود الشرع إنما هو تعليم العلم الحق، والعمل الحق، والعلم الحق، هو معرفة الله تعالى، وسائر الموجودات على ما هي عليه وبخاصة الشريعة منها، ومعرفة السعادة الأخروية، والشقاء الأخرى، والعمل الحق. هو امتثال الأفعال التي تقيد السعادة؛ وتجنب لأفعال التي تقيد الشقاء؛ والمعرفة بهذه الأفعال هو الذي يسمى العلم العملي — أي الفلسفة — » .

تلك هي الصلات بين الفلسفة والتصوف؛ فغاية الفيلسوف أن ينبجلي لعقله الكون بمعارفه وأسراره، وغاية الصوفي، أن تنزل على قلبه الهامات المعرفة العامة الشاملة عن طريق العبادة، والفيلسوف يرى أن هذه غاية الغايات، أما الصوفي فيرى غاية الغايات، رضا الله والفوز ببقائه، ونعيمه في الآخرة. ولقد تنبه لهذا التشابه في الأهداف بعض رجال الاستشراق؛ حتى

ان « ماسنيون » اعتبر الكندي والفارابي وابن سينا ، من متصوفة الاسلام .
ولقد أصاب ماسينيون هنا وخطأ ، أصاب إذ تنبه لأن التصوف تنطوي
تحت المعارف الفلسفية كافة ، وأخطأ لأنه لم ينتبه إلى أن أساس التصوف
وقوامه ، هو العبادة والصفاء والتمسك الكامل بالشريعة المحمدية وآدابها
ومناهجها ، وهي الشريعة التي انحرف عن شروطها كثير من الفلاسفة
ولا أبرؤ من هذا الانحراف الكندي والفارابي وابن سينا ، الذين جعلوا
العقل الكامل في مرتبة الوحي ، وجعلوا حجة العقل آية يحتكمون إليها حتى
في أحكام الاسلام ، وهو ما يبرأ منه المتصوف وينكره ويحاربه .

ولقد تعرض المتصوفة للفلاسفة ، في معارك متعددة دارت رحاها حول
الالهيات ، وهي التي أخطأت فيها الفلسفة وضلت ، لاعتمادها على العقل ، وعدم
تقيدها بالدين .

وتعرض بعض الفلاسفة للمتصوفة ، منكرين عليهم الزهد والاستغراق
في العبادة والنفور من الدنيا ومهوين شأنها ، واتخاذهم التطهير والتصفية
والتجرد طريقاً للوصول إلى المعارف والعلوم النظرية والربانية ، ولكن
الكثرة الغالبة من رجال الفلسفة لم تنكر التطهير والتجرد والتصفية كمعراج
إلى العلوم ، وإنما قالوا ، إنه ليس بالطريق السلطاني المباح للناس .

يقول ابن رشد . وأما الصوفية فطريقهم في النظر ليست طرقاً نظرية
أعنى مركبة من مقدمات وأقيسة ، وإنما يزعمون أن المعرفة بالله وبغيره من
الموجودات ، شيء يلقى في النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية
وإقبالها بالفكرة على المطلوب ، ويحتجون لتصحيح هذا بظواهر من الشرع

كقوله تعالى « واتقوا الله ويعلمكم الله » « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » « إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » وأشبه ذلك من الآيات التي يستدلون بها كثيرة ، ونحن نقول . إن هذه الطريقة وإن سلمنا وجودها ، فإنها ليست عامة للناس »

هذا ما يقوله ابن رشد وهو اعتراف كامل للمتصوفة بصحة النهج واعتراف كامل من رجل من أعلام الفلسفة الذين يؤمنون بالعقل والتجربة ، بأن التجرد والتصفية طريقا للعلم والمعرفة وهو ليس عاما للناس وليس معراجا لكل متعبد زاهد ، وما قال المتصوفة غير هذا .

والأبلغ من هذا في الدلالة ، على صدق النهج الصوفي ، الذي يميزه كثير من المتعلمين جهلا وطمشا ، إن فلاسفة اليونان أنفسهم وهم أساتذة الفلسفة قد سلكوا إلى المعرفة نهجا صوفيا .

يقول طاش كبرى زاده في كتابه « مفتاح السعادة » (ثم اعلم أن أفلاطون الحكيم كان يعلم بعضا من تلاميذه بطريق التصفية ، وأعمال الفكر الدائم في جناب القدس ، وسموا بالاشراقين لأن فيوضاتهم كانت إشراقا نفسيا ، وبعضاً منهم بطريق البحث والنظر ، فسموا المشائين) .

وإذن فالفلسفة تؤيد التصوف في أن التصفية والتجرد والتطهير ، يكسب الروح إشراقا تصل به إلى المعارف كافة .

وإذن فهناك قرينة وثيقة بين التصوف والفلسفة ، إذا جردت الفلسفة من ضلالها فيما وراء الطبيعة ، لأنها اعتمدت على العقل دون الشرع في فهم

الأدبيات ، وليس هذا للعتل ، وما ينبغي له أن يلج في معارج أعلى من طاقته ، ومن فوق إمكاناته وطبيعته .

يقول محي الدين : اعلم أن الفلاسفة مازمت لجرد ذلك الاسم ، وإنما هو لنا أخطأ فيه من العلم المتعلق بالالهيات . فإن معنى الفيلسوف ، المحب للحكمة ، والحكمة غاية كل عاقل .

ثم يقول . إياك أن تبادر إلى إنكار مسألة قالها فيلسوف وتقول هذا مذهب الفلاسفة ، فإن هذا قول من لا تحصيل له ، إذ ليس كل ما قاله الفيلسوف يكون باطلا ، فمعنى أن تكون تلك المسألة مما عنده من الحق ، وقد وضع الحكماء من الفلاسفة كتباً كثيرة مشحونة بالحكم والتبرير من الشهوات . ومكايد النفوس وما انطوت عليه من خنايا الضمائر . فكل ذلك علم صحيح موافق للشرائع . فلا تبادر يا أخي إلى الرد في مثل ذلك وتمهل واثبت قول ذلك الفيلسوف ، حتى تحدد النظر ، فقد يكون ذلك حقاً موافقاً للشرعية .

وتلك آية من آيات السماحة الفكرية التي يمتاز بها محي الدين ، بل يمتاز بها كل رجال الحقائق وذلك هو موقف المتصوف المنصف من الفلسفة ، لا ينكر منها إلا ما أنكر الشرع ، ويقبل منها ما يتقبل الشرع فميزان المتصوفة القسط الذي يزنون به كل ما يرد إليهم ، هو الشريعة ، وهو ميزان لا يضل صاحبه أبداً .

وعند محي الدين ، أن الفلسفة كانت شريعة إدريس عليه السلام ، وإنما من المعارف السناوية ، وإنه أعمل فكره كثيراً ليصل إلى سر ما أصابها

من ضلال في المعاني الالهية فيقول « لقد دخلت الخلوة وعملت على الاطلاع على الحقيقة الادريسية ، فرأيت الخطأ إنما دخل على الفلاسفة من التأويل ، وذلك لأنهم أخذوا العلم عن أدريس عليه السلام ، فلما رفع إلى السماء اختلفوا في شريعته ، كما اختلف علماء شريعتنا فأحل هذا ما حرم ذلك وبالعكس ، ثم جرت بهم الأيام فارتكبوا هذه الأخطاء في فهم الالهيات » .

وهي نظرة إلى الفلسفة ما أحسبها لغير محي الدين ، وهي تحمل أشكالا من مشا كل الفكر ، كيف نشأت الفلسفة ، وكيف تكونت علومها ، لقد كانت شريعة سماوية لإدريس عليه السلام ثم اختلف أتباعه بعد رفعه في ميراثهم وتجادلوا وأولوا وحرفوا الكلم عن مواضعه ، فسامت علوم النظر ، وتطرق الخطأ والضلال إلى علوم ما وراء الطبيعة .

ولهذا يرى محي الدين أن ما سلم من علوم الفلسفة هو ميراث لكل صوفي ، لأنه من المعارف الصحيحة ، والمعارف الصحيحة ينالها المتصوفة بتنهجهم التعبدى القائم على الطاعة والتجرد ، وبالفيوضات الربانية ، القائمة على المحبة والرضا .

والفلسفة الحقنة ، غايتها الحكمة ، والحكمة ضالة كل مؤمن ، وهدف كل صوفي ، فالتصوف الإسلامى ، هو صاحب العلم المحيط الشامل لجميع الحقائق ، هو الفيلسوف العالمى ، الذى جمع المعارف كافة ، وتميز بإيمان يمشي في مواكب الأنبياء ، وهدى الرسل ورضاء الله ومحبته .

مملكة التصوف

مملكة التصوف ، أو عالم الأنفاس ، مملكة أشبه بالأحلام الجميلة ، أو الأمانى الحلوة ، التي يتصورها الأصفىاء من رجال الفكر ، عن العالم السعيد ، أو المدينة الفاضلة ، التي يعيش الخيال على ضفافها مرحاً طروباً في آفاق من النور والأشراق . لأمس فيها من ألم ، ولا لغوب فيها من شقاء . وإنما عبادة وذكر وصفاء ، وطهارة ومحبة وإخاء .

وتلك المملكة الروحية ، قد ينكرها الماديون ، الذين استعبدوا للحياة فذلتهم واتخذتهم مطايا لشهواتها ، وعبيداً لأباطيلها .

وقد يخاصمها الجبناء الذين خدعتهم أنفسهم فظنوا بالصوفية ظن السوء ، حتى حسبوها هذه العامم المسكورة . واللحن المرسل ، والمسابع ذات البهجة والحركة .

وقد يستخر منها المتعالمون . الذين يرمون الصوفية بالزور من القول ، والإثم من اللحن ، فهم متهمون لديهم . تارة بالتحلل والانحلال ، وتارة بالضعف والهوان .

وقد يلمزها أهل السفسطة ، الذين يتضغون الحقد ، ويتقاتلون بالموجدة ، والذين يتعبدون بالجلد ، ويعيشون في محاربيه .

قد تنكرها تلك الطوائف ، ولكنها رغم أمانيتهم ، مملكة مشرقة بالرحمة ، محلاة بالطهارة . سعيدة بالعبادة . منيرة بالحجة . مؤمنة عابدة عن

يقين ومشاهدة . آمله بربها أبداً . متبهجة في محاريبه تسمر وتغني بلحن
أنسه . وأغاريد حمده . وآيات نعمه . وسبحات وجهه التي أشرفت به
السموات والأرض . انهم ليعيشون في دنيا لانعرفها . دنيا أطلقت فيها
الأرواح من قيودها وتحررت من أثقالها . فانطلقت ترفرف حول الملأ
الأعلى . وتحوم حول العرش وسدرة المنتهى .

وسر الخطأ في فهم التصوف . إنما نشأ من الإسراف في تعظيم الدين
والكبار متاعها وتضخيم لذائذها . لقد أكبروها وأجلوها حتى نسوا الآخرة ونسوا
الله فأنساهم أنفسهم . وأقبلوا على الدنيا يركضون فتركها لهم وأنساهم ما خلقتوا
له . فانطلقوا يرتعون ويتخاصمون ويتقاتلون على الفئات وسيف القدر فوق
رؤوسهم . حتى غرقوا في بحار الدم . واحترقوا بالشهوات وتقلبوا في شقاء لا ينفد .
أما الصوفية فحياتهم . كما قال حارثة الأنصارى في الحديث المشهور .
حينما سأله الرسول صلوات الله عليه . كيف أصبح ؟ « فقال . مؤمناً بالله
حقاً . فقال له أنظر . فان لكل قول حقيقة . قال . يارسول الله . عرفت
نفسى عن الدنيا . فأسبرت ليلى . وأظلمات نهارى . فكأنى بعرش ربى
بارزاً . وكأنى أنظر إلى أهل الجنة . كيف يتزاوون فيها . وإلى أهل النار
كيف يتعاوون فيها » .

فقال له صلوات الله وسلامه عليه : أبصرت فالزم .

كان الفتى الأنصارى يعيش في الدنيا ولا يراها لهوانها . وضالة شأنها
وتافه متاعها . كان يعيش وعينه على عرش ربه ، وجلال خالقه ساجداً متعبداً
ويحيا بقلب معرض عن الدنيا معلق بآخرته ، حتى لكأنه يرى عرش ربه .

بارزاً . وحتى لكانه يرى أهل النار وهم يتقلبون في لظاها . وأهل الجنة وهم ينعمون بريها . وكذلك الصوفية ، يعيشون على نور اليقين والملاحظة ، انمداً أطلقوا الروح في ساحات المحبة والمناجاة ، فظفرت أرواحهم بقوى عظمى مستمدة من الصفاء والرضا .

وإذا كانت الحضارة الحديثة ، قد ظفرت بفتوحات هائلة في ميادين فلعمل والمادة ، فانتجت مصانعها عجائب الرادار ، وآيات الأثير والكهرباء ، تيان المتصوفة ، قد ظفروا في عالم الأرواح بفتوحات وفيوضات وقوى واسرار تضائل حيالها فتوحات المادة وفيض مصانعها

لقد ظفروا بفتوحات وفيوضات فتحت لهم ابواب السعادة والجنة . وسخرت لهم قوى المادة وعجائبها . وقوى الروح وأسرارها ، امتلأت أيديهم بتلك الكنوز فامتطوها للمعارف والعلوم وأطلقوها للخير والسلام ، وأدعوا لها لهدى والإيمان ، فلم يدمروا عمارا ، ولم ييشوا شقاء ، ولم يزرعوها لهما ونارا . ولمملكة التصوف ، أقسامها وأسرارها ، ومراتبها وحكامها ، وملوكها وأمرائها وأولى الأمر فيها ، ولمملكة التصوف نظم ودرساتير وآداب ومثل ، وحظوظ مقسمة ؛ وأرزاق موهوبة ؛ وثمار مصفوفة ؛ وعجائب مبسوسة ؛ ومعارف لدنية وهبات ربانية وفتحات نبوية ومعارج سماوية وعجائب تذهل العقول ، ولكنها ترضى القلوب ، وفي رضا القلوب نعيم الإيمان ورضا الرحمن . فلتتوجه بقلوب راضية صافية ، ولتسبح باسم العلى الكريم ، ولتتوكل عليه ، ثم لتمسك بمصباح محيى الدين وهو أقوى المصابيح الكاشفة لحقائق تلك المملكة وأسرارها . ثم لندخل معه إلى ساحاتها وعجائبها .

الكون الحى

هذا الوجود ، بل هذا الكون العجيب ، بسمواته وأرضه وإنسه وجهه ،
 وجماده ونباته ، وحروفه وكماته ، عند ابن عربى ، صورة جميلة متماسكة
 تنظمها روح عامة نابضة بالحركة ، مسبحة بالقدرة ، فليس فى الكون إلا حياة
 مشرقة ، منسقة مدبرة ، محددة مسخرة ، تجرى إلى ما قدر لها ، وخلق من أجله .
 والكون كله بما حوى ، عابد مسبح ، كل من فيه قد ألهم صلاته
 وتسيحه ، كون منعم منعم ، بموسيقى ربانية أو كما يقول محى الدين ،
 « بالايقاع الإلهى والقول الربانى » الكون كله سماع لمن ألقى السمع ، ورفع
 عنه الغطاء . « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن . وإن من
 شىء ألا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .
 وإذا كانت أمواج الموسيقى السابحات فى الجو من محطات الأرضية ،
 تمر بالأذن ولا تسمعها إلا بالجهاز المعد لها ، فكذلك تلك الموسيقى فى حاجة
 إلى محطات وأجهزة فى قلوبنا ، أجهزة لا تفتح إلا بالذكر والتقوى ، وم
 للذكر والتقوى ، من أسرار وأسرار .
 كل شىء يقع تحت ابصارنا ، له حياته وله عباداته وله عجائبه وفنونه ،
 تحركه يد الخالق المدبرة الحاكمة ؛ التى أحسنت وأبدعت خلق كل شىء ؛
 وأودعته ما شاءت وأرادت ؛ وكشفت مما أودعت لمن شاءت ومن أحببت .
 ليست الحياة فى هذا الكون الممات والإنسان والجن والحيتان والنبات
 فحسب . بل الحياة لكل شىء . حتى تلك الجبال التى تحسبها جامدة وهى

تمر مر السحاب ؛ حتى تلك الأحجار منها ما يتفجر منه الماء ؛ وإن منها ما يهبط من خشية الله ؛ ومنها ما يسبح بحمده ويذكر بآياته . يقول ابن عربي : « إن آلة النجار ، ربما تعلم أكثر مما يعلم الصانع بها . فأنها حية عالمة بخالقها . مسبحة بحمد ربها عالمة بما خلقت له . فكل شيء في الطبيعة . قد أوحى إليه بما يراد منه » .

وهذه الحروف التي تكتبها لها أسرارها ودنياها ؛ فهي أمة قائمة بذاتها لها صلاتها بالسماء والنجوم ؛ ولها مساس بالإنسان ؛ وعلاقة برسالات الرسل والأنبياء .

ثم الكلمات أيضا ؛ أليس عيسى كلمة الله ؛ وأليست الكلمة الطيبة كالشجرة المباركة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء ؛ فلا عجب إذا كانت أمة مسخرة ، طائعة وعابدة .

انه لعالم جميل أبدعته القوة الإلهية ؛ تعالت وجلت قدرة الله . عالم جميل عجيب ذلك الذي نعيش فيه ؛ لو نظرنا إليه بالقلب والروح ؛ ولو مرقنا عن أرواحنا أقنعة الشهوات وحجب الظلمات .

ان مكاشفات القلب ، لتدلف بنا إلى عوالم مسحورة جميلة محبة مؤمنة عاقلة تهتف بالإيمان وتنادى بقدرة الرحمن ، وإلى علوم وفنون من فيض القدرة الإلهية يهبها الله من يشاء ويعلمها من لدنه ، من اجتبي واصطفى ، انما مملكة التصوف ، وانها لدنيا الصوفية .

يقول محيي الدين : فاعلم أن في الخبز والماء وجميع المطامع والمشارب والملابس والمواكب والمجالس والزهر والثمر أرواحا لطيفة غريبة ، فيها

استجابة مودعة لما يراد منها ، هي سر حياتها وفيها تجلى من حب الله لعبده
وعلو منزلته ، حتى سخر له ما فيه السعادة والعلم والبقاء .

وتلك الأرواح أمانة عند تلك الأشياء ، مجبوسة في تلك الصور حتى
تؤديها إلى هذا الروح الإنساني ، التي قدرت له . ورجال الله . الذين
كشف الله عن أبصارهم . تناديهم أحجار الأرض ونباتاتها . بمنافعها
ومضارها .

ولأسماء الله الحسنى أيضاً سرها وأثرها في حياة الإنسان والكون .
أو كما يقول محيي الدين ، هي المؤثرة في هذا العالم ، وهي المفاتيح الأولى التي
لا يعلمها إلا هو ، وأن لكل حقيقة اسماً يخصها من هذه الأسماء .

فأسماء الأسماء ، هي : الحى . العالم . المرید . القادر . القائل . الجواد .
المتقسط . وهذه الأسماء من الاسمين المدبر والمنفصل . فالحى يثبت وجودك ،
والعالم يثبت أحكامك في وجودك ، وقبل وجودك يثبت تقديرك ، والمرید
يثبت اختصاصك ، والقادر يثبت عدمك . والقائل يثبت كلامك . والجواد
يثبت إيجادك ، والمتقسط يثبت مرتبتك ، فهذه حقائق لا بد من وجودها ،
فلا بد من أسمائها التي هي أربابها .

وهكذا لكل اسم من أسماء الله الحسنى ، أثر في الكون يقوم به ،
فأسماء الله تعالى ، هي سر هذا الكون ، وهي التي تقوم بها الأشياء ! ولكل
اسم سره في العبادة التي لولمسه المرید لظفر بالخير وترت يداه بالبركات
والنعم والهبات

وهكذا يطوف ابن عربي بك مملكة التصوف ، عارضا عليك أسرار
الحروف ، وأسرار الكلمات ، وأسرار أسماء الله الحسنى وأسرار النجوم
والكواكب والجنال والبحار والأنهار ، والنباتات والمعادن وخصائصها
وأسرارها ، وما أودع الله فيها من قوى ، ومرتبها وتحولها من أدنى إلى
أعلى ، وتقلبها في الصور ومنافعها للإنسان ، حتى إذا ملأ مسامع الدنيا بهذه
العلوم ! أخذ يتحدث عن مراتب أهل الله ! وأقسام عالم الأناس



أقسام المتصوفة

يقول ابن عربي « واعلم أن رجال الله في هذه الطريقة ، هم المسمون بعالم الأنفاس ، وهو اسم يعم جميعهم ، وهم على طبقات كثيرة ، وأحوال مختلفة ، فمنهم من تجمع له الحالات كلها والطبقات ومنهم من يحصل ما شاء الله ، وما من طبقة إلا ولها لقب خاص من أهل الأحوال والمقامات ، التي يظهرون عليها في قوله تعالى « ومعارض عليها يظهرون » كل طائفة في جنسها ، ومنهم من يحصره عدد في كل زمان ومكان ، ومنهم من لا عدد له لازماً فيقتلون ويكثرون .

ولأهل الأنفاس ، مراتب من حيث النظر إلى الذات العلية ، وتختلف حظوظهم باختلاف مراتبهم ، فمنهم من حظه من النظر لذة عقله ! ومنهم من حظه من ذلك لذة نفسية ، ومنهم من حظه من ذلك لذة حسية ، ومنهم من حظه من ذلك لذة خيالية ، وهكذا ثم تلح عليهم خلع إلهية أورشها النظر إليه سبحانه ثم يفاض عليهم من نور الربوبية ما يكسبهم البهاء والجلال .

الآقطاب ، والأئمة والابدال

ثم يقول ابن عربي : ومن رجال الأنفاس الآقطاب ، وهم الجامعون للأحوال والمقامات بالاصالة أو النياحة ، ولا يكون منهم في الزمان إلا واحد ، وهو الغوث أيضاً ، وهو سيد الجماعة في زمانه .

ومنهم من يكون ظاهر الحكم فيحوز الخلافة الظاهرة كما حاز الخلافة
الباطنة من جهة المقام كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز
والمتوكل ، ومنهم من حاز الخلافة الباطنية خاصة ؛ ولا حكم له في الظاهر ،
كأحمد بن هارون الرشيد والسبتي والبسطامي ، وأكثر الأقطاب ؛ ولا حكم
لهم في الظاهر

ومنهم الأئمة ، ولا يزيدون في كل زمان عن اثنين لا ثالث لهما ،
وهما اللذان يخلفان القطب إذا مات وهما للقطب بمنزلة الوزيرين

ومنهم الأوتاد ، وهم أربعة في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون ، وقد
يكون منهم النساء ؛ ولكن يغلب عليهم الرجال

ومنهم الأبدال : وعددهم سبعة لا يزيدون أيضا ولا ينقصون ، كل
واحد منهم على قدم نبي فالأول على قدم الخليل ؛ ثم الكليم ثم هارون ثم
ادريس ، ثم يوسف ، ثم عيسى ، ثم آدم عليهم السلام

وهؤلاء يعلمون علم الكواكب وأسرار سيرها ونزولها في المنازل المقدرة
لها ، وقد كان الأبدال بهذه المكانة بالأمور الأربعة التي اشترطها أبوطالب
المكي وهي : الجوع والسهر والصمت والعزلة

ثم النقاء وهم اثنا عشر نقيبا في كل زمان ومكان لا يزيدون ولا
ينقصون على عدد أبراج الفلك الاثنى عشر برجاً ، كل نقيب عالم بخاصة
كل برج وبما أودع الله فيه من الأسرار والتأثيرات ، وبأيديهم علوم
الشرائع المنزلة ولهم الاطلاع على خبايا النفوس ؛ وبليس عندهم مكشوف

يعلمون من أمره ما لا يعلم من أمر نفسه ، ويعلمون أثر الأقدام ، فيقول هذا قدم شقي ؛ وهذا قدم سعيد

ومنهم النجباء ؛ وهم أهل الكشف والاطلاع ، والحواريون ، ومتماهم التحدى والنجدة ، والرجزيون ولهم التجليات والكشوفات

ومنهم رجال الأنفاس : وهم أهل خشوع لا يتكلمون إلا همساً ، وهؤلاء هم المستورون الذين لا يعرفون ، خباياهم الحق سبحانه في أرضه فلا يناجون سواه ، ولا يشهدون غيره ، يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، دأبهم الحياء ، إذا سمعوا أحداً يرفع صوته في كلامه ترتعد فرائضهم ويتعجبون . وذلك لأنهم لعلبة الحال عليهم يتخيلون أن التجلى الذى أورث عندهم الخشوع والحياء يراه كل انسان ، ويرون أن الله قد أمر عباده أن يعضوا أصواتهم عند رسول الله صلوات الله عليه ، فإذا تلى حديث رسول الله لا يجب رفع الصوت عليه كما يجب الصمت عند تلاوة القرآن .

ومنهم الظاهرون ، وهم قسمان ظاهرون بأمر الله في الدنيا قائمون بحقوقه ، تحرق العوائد لهم عادة ، وظاهرون في العالم الأعلى لا يعرفون في الدنيا ، وهؤلاء لا يرون سوى الله في الأكوان والآكوان عندهم مظاهر الحق .

وهو أهل طبقات ومقامات وكل طبقة عاشقة لتماها ، تذب عنه . ومن هؤلاء من هم في مقامات لا يعرفها إلا من ذاقها ، لأنه يعرف عن مشاهدة ،

١٣٥
ومنهم أهل الفتوة : وهم رجال القوة الإلهية . آيتهم من كتاب الله
« أشداء على الكفار » لاتأخذهم في الحق لومة لائم .

ومنهم أهل الصفاء : وهم رجال الحنان والعطف الإلهي ; آيتهم من
كتاب الله . آية الريح السليمانية ، تجري بأمره رخاء حيث أصاب ; لهم
شفقة على عباد الله مؤمنهم وكافرهم . ينظرون إلى الخلق بعين الجود «

وهكذا يعدد ابن عربي لنا المقامات والطبقات وهي مئات ومئات ،
إلى أن يصل إلى طبقة الصوفية وهؤلاء لاعدد يحصرهم بل يكثرهم ويقلون
وهم أهل مكارم الأخلاق ، فكل من زاد في خلقه عليك ، فقد زاد في
التصوف عليك

فاذا انتهى محي الدين من هذا التقسيم أخذ يحدثنا عن ذروة أهل
المملكة أو عالم الأنفاس وهم الملامتية ، وعن خاصة من هؤلاء الرجال ، وهم
أهل الليل .

الملامتية

وفي تلك المملكة، عباد لله سبحانه، أدبهم وعلمهم واجتباهم، وصان نفوسهم، وطهر قلوبهم واصطفاهم لعبادته، هم ذروة تلك المملكة، وقد أسماهم محي الدين «بالملامتية» وهم الذين حلوا من الولاية في أقصى درجاتها ونهلوا من العلوم أصفى معانيها، وما فوقهم في تلك المعارج الدنيية إلا درجات النبوة، ومقامهم يسمى مقام القربة، وهو مقام الانشغال بالخالق عن الخلق، وعلامتهم الاختفاء والانطواء، فلا يعرفون بخرق عادة، ولا يعظمون بين الناس، ولا يشار إليهم بالصلاح الذي تعرفه العامة. فهم الأصفياء الأمناء الأبرار أحباب الله، يعرفهم الملاء الأعلى ويذكرون في السماء، وهم في الناس الغامضون.

وهم الذين قال فيهم رسول الله صلوات الله عليه عن «ربه عز وجل»
 إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ، ذو حظ من صلاة؛ أحسن عبادة ربه؛ وأطاعه في السر والعلانية؛ وكان غامضا في الناس»

ومسألة الظهور في الحياة؛ وخوض عبابها؛ والسيادة في الدنيا؛ وما إلى السيادة من أغراض وأهداف؛ لمحبي الدين في كل هذه الأشياء؛ رأى أوضحه ونادى به؛ فهو يرى أن الجهر بالدعوة والسيادة في الدنيا؛ كمال للأنبياء. وتخص في الأولياء

لأن الرسل صلوات الله عليهم؛ مضطرون إلى الظهور والدعوة لأجل التشريع والتبليغ. والأولياء ليس لهم ذلك؛ ألا ترى أنه سبحانه؛

لما أكمل الدين وأتم نعمته على الناس بالقرآن العظيم ؛ كيف أمر رسوله
الأمين ؛ في الصورة التي نعاها فيها إلى نفسه ؛ بالاستغفار والالتقاط إليه
تعالى « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله
أفواجا فسيح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » .

أى أشغل نفسك بتزنيه ربك ، والثناء عليه بما هو أهله . فاقطعه بهذا
الأمر الربانى من العالم لنفسه ، لما أكمل ما أريد منه من تبليغ الرسالة وطلبه
بالاستغفار ليسترد عن خلقه ، في حجاب صونه ، لينفرد به دون خلقه دائما .
والأولياء الكمل السادة الأصفياء : إذا تركوا وأنفسهم ، لم يحتج أحد
منهم الظهور أصلا لأنهم يعامون أن الله تعالى ما خلقهم لأنفسهم ولا لأحد
من خلقه . وإنما خلقهم له سبحانه . فشغلوا أنفسهم بما خلقوا له .

فإن أظهرهم الحق من غير اختيار منهم ، بأن يجعل في قلوب الخلق
تعظيمهم والالتفاف حولهم للالتقى من علومهم ، فذلك إليه سبحانه ، وما لهم
فيه تعمل ولا قصد ، فلا اختيار لهم مع اختيار الحق سبحانه ، فإن خيرهم
ولا بد ، اختاروا الستر عن الخلق والالتقاط إلى الله ، كما قيل لأبى اليزيد
البسطامى ، حين خلع عليه بجملة النيابة ، وقيل له اخرج إلى خلقى ، فلم
يسعه إلا امثال أمر ربه فخطا خطوة فغشي عليه ، فإذا النداء ردوا على
حبيبي ، فلا صبر له عني .

لقد كان أبو اليزيد ، فانيا عن كل شئ مستغرق القلب والحس والروح
في النجوى والتفرغ الكامل لعبادة ربه ، فلما أخرج إلى الناس ، خشى
أن يشغل لحظة من زمن عن عبادة ربه ، ونجوى خالقه فغشى نفسه من

73
134
هذا الخوف ما يشبه الساعة ، فرد رحمة به إلى مقام الفناء ، وهو مقامه ،
وخلعت عليه خلع الذلة والافتقار والانكسار ، وهى أسمى الخلع ، فى عالم
الأنفاس والمهبات ، فطاب عيشه ، وسجد قلبه . ثم دنا واقترب . فظفر
بالمشاهدة ، فزاد أنسه ، واستراح روحه من أعباء الأمانة .

يقول محي الدين . ثم إن هذه الطائفة إنما نالوا هذه المرتبة عند الله .
لأنهم صانوا قلوبهم أن يدخلها غير الله ، أو تتعلق بسوى الله . فليس
لهم جلوس إلا مع الله ، ولا حديث إلا مع الله فهم بالله قائمون . وفى الله
ناظرون ، وإلى الله راحلون ومنقلبون ، وعن الله ناطقون ، ومن الله
آخذون ، وعلى الله متوكلون ، وعند الله قاطنون ، فما لهم معروف سواه
ولا مشهود إلا إياه ، صانوا نفوسهم عن نفوسهم فلا تعرفهم نفوسهم ؛ فهم
ضنائن الحق سبحانه .

ومن صفات هذا المقام أيضاً عنده . أن صاحبه لا يرى لأحد من
الناس ولا لقوة من قوى الخلق عليه سلطان ؛ وإبليس لديهم دليل ضعيف
« إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » يقول محي الدين .
فكل عبد إلهى توجه لأحد من الخلق ؛ أو يوجد عليه لأحد من
الناس حق ؛ فقد نقص من عبوديته لله بقدر ذلك الحق ؛ فإن ذلك المخلوق
يطلبه بحقه ؛ وله عليه سلطان به ؛ فلا يكون عبداً محضاً خالصاً لله تعالى ؛
وهذا هو الذى رجح عند المنقطعين إلى الله تعالى ؛ انقطاعهم عن الخلق
وإزومهم السياحات والبرزارى ؛ والسواحل والمجاهل ؛ والفرار من الناس ؛
والانقطاع إليه تعالى ؛ حتى يفوزوا بمقام العبودية الكاملة ؛ وإنه هو
الفوز العظيم .

رجال الليل

الليل وقت الخلوة والجلوة، وقت الأنس والسمر، وقت الذكر والصفاء
وقت التجلي والتجلي، وقت الشوق والأنين والحنين، والومضات والوثبات
واللمحات .

ورجال الأنفاس، هم رجال الليل يضيئون ظلمته بنور الإيمان، ويملاؤن
صمته بدعوات الرحمن، حتى إذا جاء وقت السحر، وما إدراك ما وقت
السحر، تجلت الأرواح واستيقظت القلوب فتلفت من ربها ما تلتقت،
وتجملت وتجلت، وأذنت لربها وحققت، فلكل نصيبه المقدر، على قدر
الهمة والطاقة، وعلى قدر الذكر والعبادة .

ولليل عند رجال الله مقام أى مقام، لأنهم نظروا إلى آيات الرضا؛
فوجدوا ثناء من الخالق سبحانه على الأصفياء الأخيار؛ الذين تتجافى
جنوبهم عن المضاجع؛ والذين كانوا « قليلا من الليل ما يهجعون » فأقبلوا
على الليل يقطعونه راكضين إلى ربهم؛ مهلين ومكبرين .

يقول محي الدين كان عندنا بأشبيلية رجل عابد حسن الصوت كثير
الاجتهاد سريع الدمعة دائم العبرة؛ كثير التذكر والتعبد؛ بت معه ليالى
عدة؛ فلم يكن يفتر؛ فربما أسمع بعض الأحيان ينشد بصوت طيب غرد
ودموعه تنحدر على خديه .

قطع الليل رجال ورجال وصلوه

رقدوا فيه أناس وأناس سهر
 لا يميلون إلى النوم ولا يستعذبونه
 فكان النوم شيء لم يكونوا يعرفونه
 لبسوا ثوبا من الخلد مئة حتى خلعهوه
 مع جلاباب من الخز ن فما أن نزعوه

لم تنم أعين ونامت عيون ؛ وجمع قوم وآخرون لا يهجعون ؛ لا يعرفون
 النوم ولا يستعذبونه ؛ حتى لكان النوم شيء لا يعرفونه . فقد أسهدهم حب
 ووجد . وحزن وشوق . وتطلع إلى النور الأسنى والمقام الأعلى ؛ وتلفف
 على الرضا ؛ وتطلع إلى المشاهدة في الخلوة والجلوة وأمل في القرب والمغفرة .
 وصلوات الله على الأمين الحبيب ؛ لقد قام الليل حبا وشكراً حتى
 أدميت قدماه ؛ وحتى أشفت عليه عائشة رضوان الله عليها ؛ فرجته الرفق
 بنفسه ؛ والرحمة بشوقه ؛ قائلة « لقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما
 تأخر ؛ فترفق .

فقال الحبيب الأمين . صلوات الله عليه . يا عائشة . ألا أكون عبدا
 شكورا . ذلك هو مقام الشكر . وليل المقامات بأسرها . فان للانسان في
 الليل سبعا طويلا . لمن اراد أن يذكر أو اراد شكورا . ويقول محي الدين :
 « اعلم أيديك الله بروح القدس منه . أن الله جعل الليل لأهله . مثل
 الغيب لنفسه ؛ فكما لا يشهد أحد فعل الله في خلقه لحجاب الغيب الذي
 أرسله دونهم ؛ كذلك لا يشهد أحد فعل أهل الليل مع الله في عبادتهم
 لحجاب ظلمة الليل التي أرسلها الله دونهم ؛ فهم خير عصبة في حق الله ؛

وهم شرفية في حق أنفسهم ؛ ليسوا بأنبياء تشريع لما ورد من إغلاق باب النبوة ؛ ولا يقال في واحد منهم عندهم إنه ولي . لما فيه من المشاركة مع اسم الله ؛ فيقال فيهم أولياء ؛ ولا يقولون ذلك عن أنفسهم وإن بشروا . فجعل الليل لباساً لأهله يلبسونه فيسترهم هذا اللباس عن أعين الأغيار ، يتمتعون في خاواتهم الليلية بحبيبتهم . فيناجونهم من غير رقيب . لأنه جعل النوم في أعين الرقباء سباتاً ، أى راحة لأهل الليل الهمة ، كما هو راحة للناس طبيعية فإذا نام الناس استراح هؤلاء مع ربهم وخلوا به حساً ومعنى فيما يسألونه من قبول توبة وإجابة دعوة ومغفرة وغير ذلك . فنوم الناس راحة لهم ، وأن الله تعالى ينزل إليهم بالليل إلى السماء الدنيا ، فلا يبقى بينهم وبينهم حجاب فلكى ، ونزوله إليهم رحمة بهم ، ويتجلى لهم في سماء الدنيا كما ورد في الخبر ، يقول الله كذب من ادعى محبتي ، فإذا جنة الليل نام عنى . كل محب يطلب الخلوة بحبيبه ، فيها أناذا قد تجليت لعبادى . هل من داع فاستجيب له . هل من تائب فأتوب عليه . هل من مستغفر فأغفر له حتى ينصعد الفجر ، فأهل الليل هم الفائزون بهذه الخطوة في هذه الخلوة ، وهذه المسامرة في محاربتهم ، فهم قائمون يتلون كلامه ويفتحون أسماعهم لما يقول لهم في كلامه سبحانه .

إذا قال : يا أيها الناس . يقولون : نحن الناس ، فما تريد منا يا ربنا في ندائك هذا ، فيقول لهم عز وجل على لسانهم بتلاوتهم كلامه الذي أنزله . اتقوا ربكم أن زلزلة الساعة شيء عظيم . ويقول يا أيها الناس ، فيقولون لييك ربنا فيقول لهم ، اتقوا ربكم الذي جعل لكم الأرض فراشا

والسما بناء وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم ،
 فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ، فيقولون ربنا خاطبتنا فسمعنا وفهمنا
 ففهمنا ، فيا ربنا وقفنا واستعملنا فيما طلبته منا من عبادتك وتقواك ، إذ
 لا حول لنا ولا قوة إلا بك . ومن نحن حتى تنزل إلينا من علو جلالك
 وتنادينا وتطلب منا ، فيقول يا أيها الناس ، فيقولون لبيك . فيقول : ان
 وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، فيقولون يا ربنا اسمعتنا فسمعنا ،
 واعامتنا فعملنا فاعصمنا وتعطف علينا ، فالنصور من نصرته ، والمؤيد من
 أيدته ، والمخدول من خذلته ، فيقول يا أيها الإنسان . فيقول الإنسان
 منهم لبيك يا رب ، فيقول ما غرك بربك الكريم ، فيقول كرمك ،
 فيقول صدقت . ويقول يا أيها الذين آمنوا ، فيقولون لبيك ، فيقول اتقوا
 الله حق تقاته ، وقولوا قولا سديدا فيقولون . وأى قول لنا إلا ما تقولنا ،
 وهل لمخلوق حول ولا قوة إلا بك . فاجعل نطقنا ذكراً وقولنا تلاوة
 كتابك . فيقول . يا أيها الذين آمنوا . فيقولون لبيك ربنا ، فيقول .
 عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، فيقولون ربنا اغريتنا بأنفسنا
 لما جعلتها محلا لإيمانك ، فقلت « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وقلت
 « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » والآيات
 ليست مطلوبة إلا لما تدل عليه ، وأنت مدلولها ، فكأنك تقول في قولك
 عليكم أنفسكم ، أي الزمونا وثابروا علينا .

ذلك هم رجال الليل الذين يقطعونه استغفارا وذكرا . ذكرا بقرآنه
 الحكيم . وفي الحديث أن المصلّي الخاضع القلب ، هو من يقف في صلاته

عند التلاوة ، وهو يحس أن الله يسمعه ، أو يتلو ، وكأن الله سبحانه هو الذي يتلو على لسانه . لأن القرآن كلام الله تعالى .

وهكذا أهل الليل . يقرأون وكأنهم يستمعون إلى ربهم ، يكلمهم بقرآنه ، فكل آية عندهم سؤال وجواب ، وذلك لون من التذوق ، هبة من هبات الرحمن لأهل الليل ومقدار تلك الهبة إنما يعرفها من ذاق .

ثم يقول « وأهل الليل تختلف طبقاتهم في ذلك ، فالزاهد حاله مع الله في ليله من مقام زهده . والمتوكل حاله مع الله من مقام توكله ، وكذلك صاحب كل مقام ، ولكل مقام لسان هو الترجمان الإلهي فيهم ، وهم لهذا متباينون في أراتب بحسب الأحوال والمقامات ، وأقطاب أهل الليل هم أصحاب المعاني المجردة عن المواد المحسوسة والخيالية ، فهم واقفون مع الحق بالحق ، فيعطى كل من المعاني والمعارف والأسرار بحسب منازلهم ، فهؤلاء هم حكماء القلوب ، وسادة الرجال ، أهل الوفاء والصفاء والذكر والسر ، فإذا ادعت لك نفسك أنك من أهل الليل . فانظر . هل لك قدم مع من ذكر ؟ .

أسرار الروح

فاذا طاف بنا محي الدين على أقسام المتصوفة ، داخل مملكتهم العظمى أخذ يعرض ألوانا من عجائبها وأسرارها الروحية .

وللروح في عالم التصوف المكان الأعلى والسر الأعظم . ولست أغالى إذا قلت . أن المذاهب الروحية العالمية ، رغم ما وصلت إليه من كشف عميقة في هذا الميدان ، لا تزال تحبو . ولا تزال فتوحاتها اقتراما بنحوار الجبابة الأئمة من رجال التصوف . الذين راضوا أرواحهم على نور من هداهم ، فتحكموا لا في ذواتهم عند اليقظة والسجود ، بل في منامهم وعند الهجود ، حتى ليوجهون كما يقول محي الدين خواطرهم في المنام إلى ما أرادوا وأحبوا . ولسوا أسرارها . وتنقلوا في آفاقها ، سخرت لهم قوى الأرواح وما أدراك ما قواها . وما أدراك ما تجلى لهم .

تقول دائرة المعارف لوجدى بك « ان كل من اطلع على كتب محي الدين ، وكان واقفا على مرامي الفلسفة الروحانية العصرية . تحقق أنه سبق كل متكلم في هذه المعارف العالية فلا يقال الآن مهما علا وغلا إلا ما هو مقتبس من كلامه . أو صدر ممن هو منتهى إلى ما انتهى إليه » .

الاذاعات الروحية

ولنمسك مرة أخرى بمصباح محي الدين ولنتقدم على نوره
خطوات لنشاهد تلك المحطات الروحية التي تذيع الأنباء الصوفية على
رجال المملكة .

ولرجال التصوف إذاعاتهم الخاصة التي تربط أجزاء مملكتهم
بعضها ببعض ، والتي تنقل أخبارهم إلى مشارق الأرض ومغاربها .

ولا تعجب ؟ ولا يضرب الانكار على بصيرتك غشاوة قسخر !
فلقد كشف الله سبحانه الغطاء عن عيني عمر بن الخطاب رضوان الله عليه .
وهو على منبر المدينة يخاطب أصحابه . فرأى سارية وجيش سارية وهو
بنهاوند بأرض العراق . يقاتل خصوم الرحمن . وقد أحيط به ولا نجاة
له إلا بأن يعتصم بجبل بجواره . فهتف عمر : يا سارية الجبل . فسمع
سارية الصوت في لحظة ، على بعد المسافة التي يقطعها الراحل المجد في عشرات
الأيام . وعرف أنه صوت عمر ، فالتجأ إلى الجبل فنجوا وانتصر ، كيف
أبصر عمر ؟ وكيف سمع سارية ، ذلك سر الروح . وذلك سر الإيمان .
وذلك فضل الله وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .

يقول محي الدين « ومن علوم الكشف أن أى واحد أو جماعة قلت
أو كثرت . لا بد أن يكون معهم من رجال الغيب واحد عند ما يتحدثون .
فذلك الواحد ينقل أخبارهم إلى العالم .

ولقد عملت أبحاثا من الشعر بمقصورة ابن مثنى بشرقي جامع تونس -

عند صلاة العصر في يوم معلوم معين ، فُجئت أشيلية وبينهما مسيرة ثلاثة أشهر للفاغلة ، فاجتمع بي إنسان لا يعرفني فأنشدني بحكم الاتفاق تلك الأبيات عينها . فقلت له لمن تلك الأبيات فقال ، لمحمد بن العربي قتلته ومتى حفظتها ، فذكر لي التاريخ الذي عملتها فيه . فقلت له ومن أنشدك إياها . فقال كنت جالسا ليلة سوق أشيلية في مجلس ، ومز بتارجل غريب فأنشدنا هذه الأبيات ، فقلنا له لمن هي ، فقال . فلان :

تلك هي محطات إذاعاتهم التيلية والروحية ، لا اللاسلكية والأثيرية ولهم أيضا في مملكتهم ما يشبه ما نسميه « بالتلفزيون » وهو تسجيل المراثيات وقيدتها ، ثم حملها إلى أطراف الأرض ، على أجنحة الأثير في لحظات إلى شتى الأماكن والاتجاهات .

ولا تعجب أيضا ، ولا يضرب الإنكار على عيني بصيرتك غشاوة فتسخر ، فلقد عرض المسجد الأقصى بأبوابه ومقاصيره وساحاته ، على الرسول صلوات الله عليه يوم حدث قومه بحديث الاسراء وأنه صلى بالرسول إماما في المسجد الأقصى ، فأنكروا وتعجبوا ثم طلبوا منه صلوات الله عليه أن يصف لهم المسجد الأقصى بأبوابه وعلاماته ، فأطلعهم الله سبحانه وتعالى عليه مشاهدة ، وما كان معجزة لنبي ، جاز أن يكون كرامة لولي .

يقول محي الدين « ولقد كنت بجامع العديس بأشيلية يوما ، بعد صلاة العصر ، وشخص يذكر لي عن رجل كبير من أهل الطريق من أنكاريهم ، اجتمع به في خراسان فذكر لي فضله وعمله حتى اشتقت إليه

فإذا الشخص إلى عن قرب . والجماعة لا تراه ، فقال لي أنا هو هذا الشخص الذي يصفه لك هذا الرجل . فقلت للرجل الخبير ، هذا الرجل الذي رأيته بخراسان . أتعرف صفته . فقال نعم فقلت له اسمع فأخذت أصغه له . فقال هو والله ما تذكر ، فقلت له هو ذا جالس يصدقك عندى فيما تخبر به »

ولرجال تلك المملكة الرؤيا الصادقة كفلق الصبح المبين . ولهم أيضا رؤية الرسول صلوات الله عليه في المنام وسؤاله وتلقى الجواب منه للتعليم والارشاد .

يقول محيي الدين « كنت متحيرا في مسألة العدد وأقل الجمع فيه . فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامى . وأنا بين يديه ، وقد سألتى سائل وهو صلى الله عليه وسلم يسمع ، ما أقل العدد ؟ فقلت عند النقباء أثنان . وعند النحويين ثلاثة . فقال الرسول . خطأ هؤلاء وهؤلاء ، فقلت كيف إذن أقول . قال ؛ أن العدد شفع ووتر ، يقول الله تعالى « والشفع والوتر » والكل عدد ، فميز ؟ ثم اخرج صلوات الله عليه خمسة دراهم بيده المباركة فرمى درهمين بمعزل . ورمى ثلاثة بمعزل . وقال . لي يتبعني لمن سئل عن هذه المسألة أن يقول للسائل . عن أى عدد تسأل ، عن العدد المسمى شفعاً أم عن العدد المسمى وتراً ، ثم وضع يده على الثلاثة ، وقال هذا أقل الجمع في عدد الوتر ، وهذا أقل الجمع في عدد الشفع ، فما رأيت أحسن منه معلما .

الأرواح بعد الموت

وإذا كان العلم الحديث ، يقص علينا أنباء استحضار الأرواح

ومناجاتها بعد الموت ، وإذا كان الروحانيون من العلماء يقولون أن هم
صلوات تنتج معرفة بتلك الأرواح ، فإن المتصوفة داخل مملكتهم لا يجب
بعضهم عن بعض كما يقولون ، شبر من تراب ، كناية عن القبر .

روى البخارى « أن النبي صلوات الله عليه ، مر بمحاط من حيطان مكة
أو المدينة . فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما . فقال النبي . إنهما
يعذبان وما يعذبان في كبير . ثم قال . بلى كان أحدهما لا يستتر من بوله .
وكان الآخر يمشي بالنميمة ، وزاد الإمام أحمد رضى الله عنه ولولا تمرغ
قلوبكم وتريدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع » .

لولا تمرغ القلوب البشرية ، في أهواء الحياة وشهواتها لكشفت عنها
الحجب فرأت من آيات ربها الكبرى ما فيه شفاء للموقنين ، وهدى
ورحمة لكل من كان له قلب يعنى ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

يقول محي الدين في حديثه عن منازل يوم السبت « إني كنت يوم
الجمعة بعد صلاة الجمعة بمكة ، قد دخلت الطواف ، فرأيت رجلا حسن
الهيئة له هيمة . وهو يطوف أمامي ، فجعلت بالي منه أن أعرفه فاعرفته ،
ولم أر عليه علامة قادم من سفر ، لما كان عليه من الغضاضة والنضرة . ثم
رأيتته يمر بين الرجلين المتلاصقين في الطواف فيعبر بينهما ، ولا يتصلهما .
فجعلت أتبع باقداى أقدامه ما يرفع قدما إلا وضعت قدماي في موضع قدمه
ودهنى فيه وعينى معه ثلثا يفتوتى ، فكنت أمر بالرجلين المتلاصقين اللذين
يمر بينهما في أثره فاجوزهما ولا أفصل بينهما . فتعجب من ذلك . فلما
أكمل طوافه وأراد الخروج ، مسكته وسامت عليه ، فتيسم لى ورد السلام

على . وأنا لا أضرف نظري عنه مخافة أن يفوتني ، فاني ما شككت إته
روح متجسد ، وعلمت أن البصر يقيد ، فقلت له إني لا أعلم أنك روح
متجسد . فقال صدقت . فقلت له . فمن أنت يرحمك الله ، قال . « أنا
السبتى » ابن هاوون الرشيد قلت له ، أريد أن أسألك عن حال كنت عليه
في أيام حياتك في الدنيا ، قال . قل . قلت له ، بلغني أنك ما سميت السبتى
إلا لكونك كنت تحترف كل سبت بقدر ما تأكله في بقية الأسبوع ، فقال
الذى بلغك صحيح ، فقلت له ، فلم خصصت يوم السبت وحده دون سائر أيام
الأسبوع ، فقال بلغني ، إن الله ابتداء خلق العالم يوم الأحد ، وأكمله يوم الجمعة
فلما كان يوم السبت ، قال أنا الملك لى الملك . هذا بلغني في الأخبار ، وأنا في
أحياء الدنيا ، فقلت والله لأعملن على هذا ، فتفرغت لعبادة الله من يوم الأحد
إلى آخر الستة الأيام لا أستغل بشيء إلا بعبادته تعالى ، وأقول . إن الله
تعالى كما اعتنى بنا في هذه الأيام الستة ، فأنا أتفرغ لعبادته . ولا أمرجها
بشغل نفسى ، فإذا كان يوم السبت أتفرغ لنفسى وانظر ما يفوتها في
سائر الأسبوع .

وفتح الله لى في ذلك ، فقلت له ، من كان قطب الزمان في
حياتك الدنيا ، فقال أنا . قلت بذلك وقع التعريف . قال صدق من عرفك
نعم قال عن أمرك . يريد المراقبة ، فقلت له ذلك إليك ، فسلم على سلام محب
وانصرف ، فلما فارقتة وكان بعض أصحابي مع الجماعة في انتظارى ، لكونهم
كانوا يقرأون علينا إحياء علوم الدين ^(١) ، فلما قرعت من ركعتي الطواف

(١) للامام الغزالى

وجئت إليهم ، قال لي بعضهم رأيناك تكلم رجلا غريباً ، حسن الوجه
ما نعرفه ، فمن هو ، ومتى جاء ، قلت هذا ليس لكم .»

هذه قطرة من عالم الروح لديهم ؛ ولسنا بمستطيعين أن نجمع بحار
الأسرار في قطرة فنظرة إلى ميسرة ؛ عسى الله أن يوفقنا فنحصى
لها كتاباً .

وتلك صورة مصغرة لمملكة المتصوفة ، الذين يعيشون في ظلال الهدى
والرضا ، ويقتاتون بالأشواق والمحبة ، المتصوفة الذين أحالوا الوجود إلى
منابر ومنائر تهتف بالذكر والایمان ، وإلى محاريب للركوع والسجود ،
للمتصوفة الذين يعيشون بيننا في مملكة من صفاء ونور ، ابتدعوها لأنفسهم
واعتصموا داخلها ، من تلك الغابة المسلحة ، غابة الأحزان والهموم والبغضاء
والدماء والشهوات .

وبعد فإن لهم لعادتهم وتقاليدهم ورموزهم التي يعرفونها ، وأن لهم
نورا يتميزون به وعطرا يعرفون بشذاه ، ولا يعرف الشذى ولا يبصر النور
إلا رجال الشذى والنور .

محي الدين . والحب الالهى

الحب هو روح التصوف . وهو شعاره ودينه ، والخال المشترك بين المتصوفة جميعا ، هو بداية البداية . كما أنه نهاية النهاية . وكأس المحبة لديهم تكمن فيها كل الأسرار والأنوار .

والحب عند المتصوفة ، لا يمكن تحديده ولا تعريفه ، ولا شرح حقائقه وإنما يحد باللفظ فقط ، ويعرف بالعرف والاصطلاح ، أو كما يقول محي الدين « من حد الحب ما عرفه ؟ ومن لم يذقه شربا ما عرفه ؟ ومن قال رويت منه ما عرفه ؟ فالحب شرب بلا رى ، قال بعض المحجوبين . شربت شربة فلم اظمأ بعدها أبدا ، قتال أبو اليزيد ، الرجل من يحسو البحار ، ولسانه خارج على صدره عن العطش » .

وهكذا هو الحب ، حنين متجدد ، وشوق مستمر ، وطمأ دائم لا حد له ولا غاية ، لأنه متجدد مع الأنفاس ، فالشوق لا نهاية له ، لأن أمر الحق لا نهاية له ، فما من حال يبلغها المحب إلا ويعلم أن وراء ذلك ما هو أتم وأوفى ، ويقول الإمام الغزالى « أن تبلغ الحالة تعرف ما هى » .

ولكل محب من هواه على قدر همته . أو على قدر موهبته . قال الشبلى . شربت أنا والخلاج من كأس واحدة . فصحوت وسكر ، فسلك كل منا طريقا .

ولقد استمد المتصوفة ، أصول هذا الحب من نور القرآن الكريم ،

فألقا قرآن لمن يتدبره هتاف حار بالحجة الالهية ، ودعوة صريحة إلى بذل كل طيات الحياة ، في سبيل الفوز بمحبة الله .

ولقد كان الرسول صلوات الله عليه في مناجاته لربه يسأله الحب ويسأله أن تكون قرة عينه في الصلاة ، وهي أسنى مراتب الوصول والمحبة « اللهم اجعل حبك أحب الأشياء إلي . وخشيتك أخوف الأشياء عندي ، واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق إلى لقاءك . وإذا أقررت أعين أهل الدنيا من دنياهم . فأقرر عيني في عبادتك »

وأى مرتبة تسمو إلى مرتبة الحب الالهي ، يخلو الحب إلى ربه في محاربه ، يسمر بطاعته ويضيء ليله بنور وجهه ، ويتقطع بهارده بحملى ذكره . ثم تأتي النشوة الكبرى ، بالأنس والرضا .

قال الجنيد « أشرف المجالس وأعلاها ، الجلوس في الخلوة ، والتسليم المعركة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد ، ثم قال يالها من مجالس ما أجلها ، ومن شراب ما أله ، طوبى لمن رزقه » .

يقول محيي الدين « جرت مسألة المحبة بمكة أيام الموسم فتكلم فيها الشيوخ ، وكان الجنيد أصغرهم سناً ، فقالوا له هات ما عندك يا عراقى ، فأطرق برأسه ودمعت عيناه ثم قال . عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه . ناظر اليه بقلبه . أحرق قلبه أنوار هيئته ، وصفى شربه من كأس وده . وانكشف له الجبار من أستار غيبه ، فإن تكلم قابله ، وإن نطق فمن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فع الله ، فهو بالله والله ومع الله »

ومحي الدين يرى أن الحب سبب إيجاد العالم . ففي الحديث القدسي
 « كنت كمنزاً لم أعرف ، فأحييت أن أعرف ، فخلقت الخلق ، وتعرفت
 إليهم في عرفوني » فأخبر أن الحب كان سبب خلق العالم ، فالعالم بالحب
 خلق وبالحب يعيش ، وقد خلقنا لنعبد الله « وما خلقت الجن والانس إلا
 ليعبدون » وهذا هو سر الحياة .

وما في الموجودات عند محيي الدين إلا محب ومحبوب ، حتى السالب
 والموجب وهما قوام الوجود ، حتى ذرات الطبيعة إنما يسكبها الحب أن تزول
 أو تحول ، ولولا تعشق النفس للجسم ما تم وجودها ، ولولا حب المعاني ،
 للكلمات ما امتزجا ولا عرفا .

فالعالم بأسره إنما يتنفس بالحب ويعيش له وبه ، والكون كله يتحرك
 بحب موجد له ومبدعه ، ولكن صور الحب خداعة ، اتخذت ألوانها البراقة
 حجباً ومظهراً لحقيقة مضمرة ، فما تنفس الحب في قلب إنسان على الحقيقة
 تغير خالقه . ولكنه احتجب بحجب الصور الدنيوية بحسب المشاكلة .
 احتجب في الجنس بصور ، زينب وهند وليلى . وفي الشهوات ، بحب الدرهم
 والدينار والجاه . وكل مرغوب محبوب من شهوات الحياة « زين للناس حب
 الشهوات من النساء والبنين والقناطر المنقطرة من الذهب والفضة » .

والحب سببان ، الجمال وهو في علاه الله ، والاحسان ، وما ثم إحسان
 إلا منه . فان أحببت للاحسان فما أحببت في الحقيقة إلا الله فإنه المحسن وأن
 أحببت للجمال . فما أحببت إلا الله ، فإنه الجميل نور السموات والأرض .

ومحي الدين ، يرى أن الحب ليس دعوى يلفظها اللسان ، ويتصورها الخيال . بل للحب آيات وشهود وشروط ، فيطلب إلى الحب . أن يمسك سمعه فلا يستمع إلا لكلام محبوبه . ويغض بصره عن كل منظور سوى وجه محبوبه . ويخرس لسانه عن كل كلام إلا عز ذكر محبوبه ، ويرمي على خزانة خياله فلا يتخيل سوى صورة محبوبه ؛ فيه يسمع ويبصر ويتكلم وفي الحديث القدسي « ما تقرب إلى عبدى بمثل إداء ما افترضت ؛ ولا يزال يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع الذي به وبصره الذي يبصر به » وإذا أحب الله العبد ؛ أوحى إلى الملك . أن ينادى في السموات ؛ إن الله يحب فلانا ؛ فأحبوه فيحبه أهل السماء . ثم يوضع له القبول في الأرض ؛ فتقبله البواطن ؛ وإن أنكرته الظواهر .

ثم يقول . واعلم أنه كلما ازدادت المشاهدة ازداد الحب ؛ لأن الاشتياق يهيج باللقاء ومن علامات الحب أنه يستقل الكثير من نفسه ؛ ويستكثر القليل من محبوبه . لأن المحبوب غنى ؛ فقليله كثير ؛ والحب فقير فكثيره قليل . ومن نغته أيضاً . أنه يعانق طاعة محبوبه وينجانب مخالفته . ومن علاماته الكبرى ؛ أنه خارج عن نفسه بالكلية وموافق لحاب محبوبه ؛ هائم القلب بهواه .

خيالك في عيني وذكري في في ومثواك في قلبي فأين تقيم

ثم يقول . ولقد بلغ بي قوة الخيال ؛ إن كان حي تجسد لي محبوب من خارج لعيني كما كان يتجسد لرسول الله صلوات الله عليه ؛ فلا

أقدر أنظر إليه . ويخاطبني وأصغى إليه . وأفهم عنه ولقد تركني أياماً
لا أستطيع طعاماً ؛ كلما قدمت لي المائدة يقول لي بلسان أسمع به قلبي ؛
أنا أكل وأنت تشاهدينى فامتنع عن الطعام ولا أجد جوعاً ؛ وامتلئ حتى
سممت ؛ فقام لي حبي مقام الغذاء وكان أصحابي وأهل بيتي يتعجبون من
سمي مع عدم الغذاء ، فقد كنت أمضى الأيام الكثيرة لا أدق طعاماً ولا
أجد جوعاً ولا عطشاً . واعلم أنه لا يستغرق الحب الحب إلا إذا كان
محبوبه الحق تعالى ، ومشاهدة المحبوب كالغذاء ، وكلما ازداد مشاهدة
ازداد حباً .

ومقام الحبة ، أربعة ألقاب . منها الحب ، وعلامته أن لا يكون
للمحب غرض ولا إرادة مع محبوبه ثم الولد ، وهو من اسمه تعالى . الودود
ومن علامته أن يتودد الحب للمحبيب دائماً بما يرضيه ويحبه ، والثالث
العشق ، وهو إفراط الحبة ، ومنه قوله تعالى « والذين آمنوا أشد حبا لله »
وقوله تعالى « قد شغفها حبا » أى صار حبها ليوسف على قلبها كالشغاف ،
وهى الجلد الرقيقة التى تحتوى على القلب ، فهى ظرف له محيط به . والرابع
الهوى ، وهو استفراغ الإرادة فى المحبوب والتعلق به .

ثم يقول محي الدين . وألطف ما فى الحب ما وجدته ، وهو أن تجد
عشقاً مفراطاً وهوى وشوقاً مقلقاً ، وغراماً ونحولاً ، وامتناع نوم ، وعدم لذة
يطعام ، ثم ذهول وذهاب وفناء . ثم تجلى وفيض ولذة لا توصف .

صفات المحبين

يقول ذو النون المصري « إن لله عبداً ملاً قلوبهم من صفاء محبته .
 وأنار أرواحهم بالشوق إلى رؤيته ، فسبحان من شوقهم إليه . وأدنى منه
 همهم ، سبحان موقتهم ومؤنس وحشهم وطيب أسقامهم . إلهي لك
 تواضعت أبدانهم ، وإلى الزيادة منك انبسطت أيديهم فأذقتهم من
 حلاوة الفهم عنك ما طيبت به عيشهم وأدمت به نعيمهم ، ففتحت لهم
 أبواب سماواتك وأبحت لقلوبهم الجولان في ملكوتك ، بك ما نسيت
 حجة المحبين ، وعليك معول شوق المشتاقين ، وإليك حنت قلوب العارفين
 وبك أنت قلوب الصادقين ، وعليك عكفت رهبة الخائفين ، وبك
 استجارت أفئدة المقصرين ، قد يئست الراحة من فتورهم ، وقل طمع الغفلة
 فيهم ، لا يسكنون إلى محادثة الفكرة فيما لا يعينهم ولا يفترون عن التعب
 والسير ، ويناجون ربهم بالسنتهم ويتضرعون إليه بمسكتهم ، يسألونه
 العفو عن ذلاتهم ، والصفح عما وقع من الخطأ في أعمالهم ، فيهم الذين ذابت
 قلوبهم بفكر الأحزان وخدموه خدمة الأبرار » .

ويعقب محي الدين علي ذي النون فيقول « ومن صفاتهم رضي الله
 عنهم . التحول . وهو نعت يتعلق بأجسامهم تعلقه بأرواحهم .

فأما تعلقه بلطائفهم . فإن أرواح المحبين وإن لطفت عن إدراك
 الخواس ، ولطفت عن تصوير الخيال ، فإن الحب يلطفها لطافة السراب ،

معنى أذكره ، وذلك أن السراب يحسبه الظمان ماء وذلك لظماه ، لولا ذلك ما حسبه ماء ، لأن الماء موضع حاجته فيلجأ إليه لكونه مطلوبه . ومحبوبه لما فيه من سر الحياة ، فإذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده عوضاً عن الماء ، فالحب يجد عند كل شيء يقصده الله سبحانه ؛ فكما أنه تعالى يكرر بالعبد من حيث لا يشعر . كذلك يعتنى بالعبد في الالتجاء والرجوع إليه والاعتماد عليه بقطع الأسباب عنه عند ما يديرها إليه من حيث لا يشعر ، فيجد الله دائماً عند فقد الماء المتخيل له في السراب وهو رجوعه إلى الله لما تقطعت به الأسباب وانغلقت دون مطلوبه الأبواب ، ورجع إلى من بيده ملكوت كل شيء ، وهو كان المطلوب به من الله ، هذا فاعله مع أحبائه يردهم إليه اضطراراً واختياراً بتقطعهم من مطامع الدنيا وبتقطع الأسباب دونهم ، فكل شيء يطلبونه من الدنيا سراب .

وأما نحول أجسامهم فيوما يتعلق به الحسن من تغير ألوانهم ، وذهاب خوم أبدانهم لاستيلاء الفكر عليهم في أداء ما كلفهم المحبوب مما افترضه عليهم ، فبذلوا المجهود ليتصفوا بالوفاء بالعهود ، إذ كانوا عاهدوا الله على ذلك وعقدوا عليه في أيمانهم به وبرسوله . وسمعه يقول آمراً . « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال « أوفوا بعهدي ولا تنقضوا الميثاق ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً » فهذا سبب نحول أجسامهم .

ومن نعوتهم أيضاً - الذبول - وهو نعت صحيح لأرواحهم وأجسادهم . أما في أجسامهم فسيبه ترك ملاذ الأطعمة الشبيهة الدسمة وهي مستلذة للنفس ، لأنهم رأوا أن الحبيب كلفهم القيام بين يديه ومناجاة

ليلا عند ، تجليه ونوم النائمين ، ورأوا أن الطعام يخدر الحواس ويدفع إلى النوم فهجروه ليكمل قيامهم بين يدي محبوبهم ، فحقق الله لهم غايتهم باعانتهم على ذلك .

وأما ذبول أرواحهم ، فإن لهم نعيما بالمعارف والعلوم ، لأن لهم نسبة بحبهم إلى أرواح الملائكة الأعلى ، وأرواح الملائكة الأعلى ذابلة ، ذلة وحبا ، وفي الخبر ، أن إسرافيل عليه السلام ، وهو من أرفع الأرواح العلوية ، يتضاءل في نفسه كل يوم لاستيلاء عظمة الله تعالى على قلبه سبعين مرة حتى يصير كالنقطة المتهمة .

ومن صفات الحبين الغرام ، وهو الاستهلاك والقضاء في المحبوب ، بملازمة الذلة والكمد قال تعالى «إن عذابها كان غراما» أى مهلكا ، لملازمة شهود المحبوب فإن الغريم هو الذى لزمه الدين وبه سمي غراما ، ومقلوبه الرغام ، وهو اللصوق بالتراب ، ويقال رغم أنه ، لأن الأنف يوصف بالعرة فالصقوه بالتراب وهو أذل الأدلاء .

ولما لازم الحب قلوب الحبين . والشوق قلوب المشتاقين ، والأرق نفوس الأرقين ، وكل صفة للحب موصوفها منه ، سمي صاحب هذه الملازمات كلها مغراما ، وسميت صفته غراما ، فهو اسم يعم جميع ما يلزم الحب من صفة الحب ، فليس للمحب صفة أعظم إحاطة من الغرام .

ويدكر محبي الدين للمحبين أكثر من عشرين صفة ، ثم يقول «لقد أعطانا الله منها الحظ الأوفر إلا أنه سبحانه قوانا على أشواق الحب وكمدد.

والله أنى لأجد من الحب ما لوضع فى ظنى على السماء لا تقطرت وعلى النجوم
لا انكدرت وعلى الجبال لسيرت ، هذا ذوقى لها . لكن قوائى الحق فيها
قوة من فضله ومنحه .

ولقد رأيت فى نفسى من عجائب المحبة ما لا يبلغه وصف واصف ، والحب
على قدر التجلى . والتجلى على قدر المعرفة ؛ وكل من ذاب فيها وظهرت
عليه أحكامها عرف قصدى هنا .

حب العارفين

يقول محيي الدين « إن الله سبحانه هو الذي بدأنا بالحبة تفضلا منه فلقنا وهو تعالى لا يخلق إلا ما أحب ؛ ومن حبه لنا بعث الرسل إلينا لتعلمنا الأعمال التي تؤدي إلى سعادتنا ؛ ثم أخبرنا أن رحمته سبقت غضبه ؛ وإن أشقى الأشقياء مشمول بالرحمة والعناية وإلا هلك »

قال. ذو النون المصري « كنت في الطواف فسمعت صوتا حزينا : وإذا بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول « أنت تدري يا حبيبي . يا حبيبي أنت تدري . ونحول الجسم والروح يوحان بسرى . يا حبيبي قد كتمت الحب حتى ضاق صدري .

قال ذو النون . فشجاني ما سمعت حتى انتحيت وبكيت ؛ ثم سمعتها تقول، إلهي وسيدى ومولاى بحبك لى ، إلا غفرت لى ، قال . فعاظمي ذلك ، وقلت يا جارية . أما يكفيك أن تقولى بحبى لك حتى تقولى بحبك لى ؟ فقالت إليك يا ذا النون ، أما علمت أن الله قوما يحبهم قبل أن يحبوه ، أما سمعت الله يقول « فسوف يأتى بقوم يحبهم ويحبونه » فسبقت محبته لهم قبل محبتهم له ، فقلت ومن أين علمت أنى ذو النون ، فقالت يا بطل . جالت القلوب فى ميدان الأسرار فعرفتكم . ثم قالت أنظر من خلفك فأدرت وجهى ، فلم أدر السماء اقتلعتها ، أم الأرض ابتلعتها »

ويروى محيي الدين فى الفتوحات ، صفات الحبة عند العارفين فيقول « إن المحبين لله شق لهم عن قلوبهم قابصوا بنور القلوب عن جلال الله ، فصارت أبدانهم دنيوية ، وأرواحهم حجية ، وعقولهم سماوية ، تسرح بين

صفوف الملائكة ، وتشاهد تلك الأمور باليقين ، فيعبدون بتبلغ استطاعتهم
حباله ، لا طمعاً في جنة ولا خوفاً من نار »

ويقول ذو النون ، في محبة العارفين « وصفاتهم » هم الذين أنار الحب لهم
آفاق السماء فلما ذاقوا ، أمطرت عليهم سحب الأشجان . فتسربلوا
بالخوف والأحزان . وشربوا بكأس اليقين وراضوا أنفسهم رياضة الموقنين .
فكانت قرة أعينهم في مشاهدة محبوبهم ولهذا كحلوا أبصارهم بالسهر
وغضوها عن النظر ، وألزموها الصبر ، وأشعروها الفكر ، فقاموا ليلهم أرقا
واستهلت دموعهم تترى . صحبوا محبوبهم بأبدان ناعلة ، وشفا ذابلة ودموع
زائلة ، وزفرات قاتلة ، فكان زفير النار تحت أقدامهم وكان وعيده نصب أعينهم .

يقول محي الدين « والحب الإلهي هو أسنى ما في عالم المعاني . ولهذا
يستغرق الطاقة كلها ، فيذهل الحب عن نفسه ، ويتقنى في محبوه ، فناء
معنوي ، لا يمكن تصوره ، وكيف تتصور ما ليس بصورة وليست للمعنويات
صور . وهذا هو حب العارفين ، الذين يتنازرون به عن العوام أصحاب الاتحاد
الذين تخيلوا الفناء ، اتحاداً ذاتياً لا معنوياً ، وتخيّلهم هذا دل على نقص فطرتهم .
فالحب العارف . إنما يقنى في محبوه فناء افتقار وذلة . ورجاء
وعبودية ، وحنينا وشوقاً مع كمال الأدب والمعرفة »

ثم يحذر محي الدين ويحذر ، هؤلاء الذين تذهلهم بروق المحبة . أو
تخدعهم بشاشات القرب والأنس في بساط الحضرة ، فيقول .
« لا يجوز من هنل فوضن . تركت الخمر تبتد الخمر . من جلس على
بساط الأنس ، والمحبة فللحضرة آدابها وأذواقها . وإلا حرم فطرد .

وكما ازداد الحب ، ازداد الإيمان ، وعلى مقدار الحب وبه ، نفهم غاية الحياة وسرها والمراد منها .

ما خلقنا إلا للعبادة والمحبة ، فحب الله روح العبادة ، وهو رجوع بالنفس إلى الفطرة ، وهو وفاء بعهد سابق ، حينما أخذ العبد والميثاق على الأرواح .
وحب الله تعالى ، يحول الأرواح إلى لطائف راضية مطمئنة ، لا يصدر عنها شر ولا عدوان ، بل رضا وإيمان . وأخاء وصفاء . لأنه يسمو بالإنسان إلى محبة كل شيء في الوجود فحينما يتصور الإنسان ، إن كل شيء في هذا الكون من صنع المحبوب ، يرى الوجود ، خيراً وجمالاً وكلاً . وحينما يتصور أن أقدار الحياة ، من إرادة المحبوب ، يرى كل قدر رحمة وخيراً ، وبركة وفضلاً . لأن هوى المحب مع إرادة المحبوب أبداً .

الحب ولقاء الله

يقول محيي : إن المحب في أشواق دائمة إلى ربه ، فهو متبرم بالبقاء في هذا الهيكل الذي يحجبه عن النقلة الكبرى إلى الدار الأخرى ، حيث اللقاء والبقاء ، لهذا تنغصت عليه حياته الدنيا شوقاً إلى ذلك اللقاء ، فهو صافي العيش كدره . طيب الحياة ، متبرم بها في نفس الأمر ، لا في نفسه ، قد ذهب عنه كل مخلوق وهابه كل ناظر ، ذو أنس بالله ، دائماً وقور خجول ، في قلبه ذكر وتعظيم ، مراة للحق حلیم ، صابر محتمل . فارغ من الدنيا والآخرة لا يأسف على شيء إذ لا يرى غير الله ، تبتكي عينه ويضحك قلبه ، لا يشغل عن الحق طرفة عين ، عرف ربه بربه ، مهدي في أحواله ، مستوحش من الخلق بحبه . جامع للتجليات ، مضمون به ، مستور بوليه ، محبوس في المواقف رضى عن الله ، ورضى الله عنه ، وذلك هو الفوز العظيم .

محي لدين ووحدة الوجود

قيمة الحب الالهي عند العارفين من أئمة المتصوفة هي حال الفناء . فناء الحب في محبوبه فناء معنويا لا يمكن تصوره . وكيف نتصور ما ليس بصورة ، وليس للمعنويات صور محسوسة ملموسة . وهذا هو حب العارفين كما يقول محيي الدين ، الذين يمتازون عن العوام أصحاب الاتحاد .

ولقد ملأ الشعراء والأدباء ، أصحاب الحب الأرضي الدنيا بألحان حبهم وصور غرامهم ، فجعلوا الحياة هي الحب ؟ وجعلوا الحب ملكا من ملائكة السماء بل إلها وربا ، وجعلوا الغرام اتحادا واستغراقا وفناء ، وصوروه بشتيت الصور المعنوية والحسية ، واطلقوا في آفاقه استعارات المبالغه ، وتشبيهات مهولة ، فصنفوا لهم أكبارا ، واقاموا لهم التماثيل اعجابا ، وسجدوا وتبتلوا ، في محاريبهم الشهوانية .

وقال الشعراء والأدباء من أصحاب الهوى الجنسي . إن الحب يرى محبوبه في كل شيء . ويتلون به كل شيء ، يراه في الماء والسماء والهواء ، يراه في كأس شرابه ، ويشاهده في ألوان طعامه وفي بسمه الفجر وأشراقه الشمس ، وشعاع البدر . بل يراه في كل جهة يولى وجهه إليها .

يقول المترمون بالجنس هذا . فتصفق لهم الدنيا أعجابا وأجلا ، وتحقق لهم القلوب رحمة وحنانا ، وتدمع العيون رثاء واشفاقا .

أما العابد المتطهر ، المؤمن الصوفي الزاهد الساجد التارق في حبه العظيم .

والحبة على قدر المحبوب ، إذا استغرق الصوفي في حبه ، فَنسى الوجود ، وغاب
عن الشهود ، ونسى نفسه ، ولم ير إلا الحبيب العظيم ، ولم يشاهد في الألوان
والصور الكونية . إلا الخالق المحبوب . فهو زنديق وهو متفلسف ؟ وهو
هانف بالخلول ؟ وداعى إلى وحدة الوجود ؟ والأمر أيسر وأهون من هذا .
فما هناك إلا محب ومحبوب .

أنهم لقوم غمرهم النور الالهى الاسنى . فتعلقت أبصارهم به ورفرفت
أرواحهم حوله . وذهلت عقولهم من التجلى والمشاهدة . فما رزوا فى الوجود
سواه ، تعالى الله .

أنهم بعين حبهم وشوقهم . ليرون الله فى كل شيء . هو الأول والآخر
والظاهر والباطن .

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

«وحدة الوجود . وفكرة الخلول . فكرة الحادية قديمة . غريفة .
فى العبادات الهندية والبوذية وخلاصتها . إن أصحابها اتسموا إلى فريقين .
فريق يرى الله سبحانه روحا . ويرى العالم جسما لذلك الروح . وإن
الإنسان إذا صفا وتطهر . سما وارتفع فالتصق بالروح التى هى الله ففتى فيها
فذاق السعادة الكبرى .

وفريق يرى أن جميع الموجودات . لا حقيقة لوجودها . غير وجود
الله . فكل شيء هو الله . والله هو كل شيء . أى أن الله سبحانه . يتجلى
تجليا حقيقيا فى كل شيء فى الكون بذاته . فلا موجود إلا الوجود الواحد
ومع ذلك يتعدد بتعدد الصور بعددا حقيقيا واقعا فى نفس الأمر . ولكن

ذلك التعدد لا يوجب تعددا في ذات الوجود . كما أن تعدد أفراد الإنسان لا يوجب تعددا في حقيقة الإنسان .

وهي سفسطة . لا يقبلها منطق ولا عقل ولا شرع . سفسطة تذهب بالشرائع والأديان ، وتنال من الجلال والكمال الواجب الله سبحانه . وتبطل الجزاء والعقاب والجنة والنار . والحياة الأخروية كما تبطل الحدود بين الخالق والمخلوق . فتجعل الخلق والخالق شيئا واحدا .

تلك هي خلاصة فكرة وحدة الوجود . التي قذف بها التداي من خصوم المتصوفة رجال الحب الإلهي . متخذين من حب المتصوفة لربهم كسنة ومقعدا لهذا الالهام .

ثم جاء بعض رجال الاستشراق . الذين أغرموا أكبر الغرام بتجريح الثقافة الإسلامية والفكرة المحمدية ، بتجريح رجالها والطعن في علمائها . فغمسوا أقدامهم في محراب المتصوفة . ولبسوا ثوب العلم بالاسلام والدفاع عنه . فرموا المتصوفة بهذا الافك . والذي تولى كبره منهم هو « جولد سپير » هذا اليهودي المفكر . الذي فكر وفكر . ثم فكر وقدر . فالحم أن أخوان الصفا شامخ علمهم . استمدوا فلسفتهم وفكرتهم من قصة الخاتمة المطوقة . في كتاب كلية ودمنة . ولا أجد لهذا الاكتشاف العظيم شيئا إلا أن تقول مثلاً . إن علماء القبلة الذرية . قد استمدوا فكرتهم من قصة الزبير سالم . أو الزناني خليفة .

جولد سپير هذا وأمثاله . من عباقة رجال الاستشراق هم الذين أثاروا غبار وحدة الوجود على رجال التصوف الاسلامي والحب الإلهي

وجرى في أعقابهم ، بعض المتعلمين من كتابنا ، الذين تعيش أفكارهم
على فتات الموائد الأوربية . فرموا بالكلم المسموم ، والاتهام الشائن .
ويتفلسف المستشرقون ، ويتفلسف المتعلمون . فيقولون : إن للتصوف
الاسلامى ، علاقة وثيقة ببيوزا والهند ، وإن وحدة الوجود عند متصوفة
الاسلام ، أقباس من الصوفية البوذية ، ولحات من صوفية المدرسة
الاشراقية .

ونسوا أن التصوف الاسلامى ، قام على كتاب الله وهدى نبيه ، وإن
الصوفى المسلم يقرأ فى كتاب ربه — ليس كمثله شئ — وهو السميع
البصير — فيقرأ خلاصة العلم الذى يتعلمه طلاب اللاهوت فى سائر الملل
والنحل ، ويطوى تحت هذا البلاغ المبين ، والنور الغلاب ، كل فلسفة تتشدد
ببحث الصفات والذات .

يقول الشعرانى فى اليوافيت « ولعمري أن عباد الأوثان لم يتجروا أن
يجعلوا آلهتهم عين الله ، بل قالوا . ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .
فكيف يظن بأولياء الله أن يدعون الاتحاد بالحق سبحانه ، هذا محال فى
حقهم رضوان الله عليهم » .

ومحي الدين ، وهو شيخ المتصوفة الأكبر ، وفيلسوفهم الأشهر ،
الذى رمى فيمن رمى من المتصوفة بهذا الافك ، تشهد كتبه ، وتشهد
آثاره . ويشهد إيمانه ، وتشهد تقواه ، وينطق حبه لله بأنه أكبر المدافعين
عن التوحيد ، وأشد الناس قسوة على من مرق من نطاقه ، فنادى أو هتف
بوحدة الوجود ، وما إلى وحدة الوجود من حلول والحاد ، بل محي الدين

لا يبيح للشاطحين والمحبين أن يقولوا حتى الألفاظ التي تحتل التأويل أو الشك ، مع براءة الشاطح والمحب ، من الاتجاه والقصد .

يقول محيي الدين في عقيدته الوسطى : « أعلم أن الله تعالى واحد بإجماع . وقيام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء ، أو يحل هو في شيء ، أو يتحد بشيء » .

ويقول في الباب الثالث من الفتوحات : « أعلم أنه ليس في أحد من الله شيء ولا يجوز ذلك عليه بوجه من الوجوه » .
وقال في باب الأسرار : « لا يجوز لعارف أن يقول أنا الله . ولو بلغ أقصى درجات القرب وحشا العارف من هذا جاشاه » .

وقال في الباب التاسع والتسعين ومائة : « القديم لا يكون قط محلا للحوادث ، ولا يكون حالا في المحدث ، وإنما الوجود الحادث والقديم مربوط بعضه ببعض ؛ ربط إضافة وحكم ، لا ربط وجود عين بعين ، فإن الرب لا يجتمع مع عبده في مرتبة واحدة أبدا » .

وقال في لواقح الأنوار : « من كمال العرفان ، شهود عبد ورب ، وكل عارف نقي شهود العبد في وقت ما ، فليس بعارف ، وإنما هو في ذلك الوقت صاحب حال ؟ وصاحب الحال سكران لا تحقيق عنده » .

ويقول في الباب السابع والستين وثلاثمائة من الفتوحات : « اجتمعت روحى بهارون عليه السلام في بعض المشاهدات . فقلت له يا نبي الله . كيف قلت « فلا تشمت بنى الأعداء » ومن الأعداء حتى تشبههم ، والواحد منا يصل إلى مقام لا يشهد فيه إلا الله . فقال لى هارون عليه السلام . صحيح

ما قلت في مشهديم ، ولكن إذا لم يشهد أحدكم إلا الله ، فهل زال العالم
في نفس الأمر ، كما هو في مشهديم ، أم العالم باق ، لم يزل . وحجبت أتم
عن شهوده لعظيم ما تجلى لقلوبكم . فقلت له العالم باق . في نفس الأمر لم
يزل . وإنما حجبنا نحن عن شهوده ، فقال قد نقص علمكم بالله في ذلك
المشهد ، بقدر ما نقص من شهود العالم ، فإنه كله آيات الله ، فإفادني عليه
السلام ، علما لم يكن عندي .

هذا موقف من المواقف ، التي يجب أن تقف لديها ونرصد الفكر
عليها ، لأنه موقف يشرح لنا أدق مسألة في التصوف ، هي مسألة المشاهدة
والتجلى ، والثناء والذهاب بالحق عن الخلق ، أو كما يقول الجنيّد من شهد
الحق ، لم ير الخلق .

فالمُتصوِّف المحب الغارق في حبه ، عند المشاهدة وما أدراك ما المشاهدة
يذهب عنه شهود الخلق والعالم ، لعظيم ما تجلى لقلبه من أنوار ربه ، وهو
موقف عظيم رهيب .

ولكن ليس معنى هذا ، أن العالم قد زال أو تلاشي ، أو عدمت
عينه وذاته ، وإنما هو ذهول بما هو أعلى عما هو أدنى ، كمن يشاهد الملك
مثلا . فيذهل عند رؤيته عن رؤيته ما سواه ، فلا يرى غيره لأن جلاله قد
حجب من حوله ، ولا قياس ولا تشبيه بين المثليين .

وليس في هذا ما يعاب ، فهو موقف عظيم من مواقف الرجال ، ولكن
الكمال يكون أتم وأعلى إذا اقترنت مشاهد الأنوار الربانية مع الموجودات

الكونية ، لأن كل موجود آية من آيات الله . فالحجاب عنها حتى عند
المشاهدة العظمى ، نقص في المعرفة .

ويشرح لنا محي الدين الحديث القدسي المشهور « ما تقرب إلى عبدى
بمثل أداء ما فترضت ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا
أحبيته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش
بها . . . الخ » .

يشرح محي الدين هذا الحديث ، الذى توهم فيه بعض الأغرار ما يفيد
الوحدة فيقول : « أى أن من تقرب إلى ربه فأحبه . أفاض عليه أنوار
المعرفة ، فأنكشفت له الحقائق . فرأى كل شئ بنور هذه المعرفة .
ثم يقول :

لا حلول ولا اتحاد . فان القول بالحلول مرض لا يزول . ومن فصل بينك
وبينه ، فقد أثبت عينك وعينه . ألا ترى إلى قوله ، كنت سمعه الذى
يسمع به ، فأثبتك بإعادة الضمير إليك ، ليدلك عليك ، وما قال بالاتحاد إلا
أهل الاتحاد ، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول »

ما قال بالاتحاد إلا أهل الاتحاد . وما قال بالحلول ، إلا أهل الجهل
والفضول ، أيرمى صاحب هذا القول بالاتحاد والحلول . سبحانه ربى ،
وأنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

ويقول فى باب الأسرار : « أنت أنت . وهو هو . فأياك أن تقول
كما قال العاشق أنا من أهوى ومن أهوى أنا . فهل قدر هذا ، أن يرد العين
واحدة ؟ لا والله ما استطاع ، فانه جهل ، والجهل لا يتعقل حقا » .

وقال أيضا : « أياك أن تقول أنا هو . وتغالط فأنت لو كنت هو -
لاحظت به ، كما أحاط تعالى بنفسه »

ثم يقول وهو من الآيات في توضيح فكرته : « أعلم أن العاشق ،
إذا قال أنا من أهوى ومن أهوى أنا ، كان ذلك كلام بلسان العشق
والحبة لا بلسان العلم والتحقيق ، ولذلك يرجع أحدهم عن هذا القول إذا
صحا من سكره » .

إذا قال القائل : أنا من أهوى ومن أهوى أنا ، فهذا لسان الحب .
ولسان الخيال لا الحقيقة ، لسان المعنويات التي لا صور لها ، وللمحبة لسان
معذور ، لأنه مقهور بحاله .

يروى محي الدين في الفتوحات « أن سليمان صلوات الله عليه ، كان
في قبته يوما ، وفي أعلاها عصفور ينادي عصفورة ، فقال لها : أنا أحبك .
حبا لا أعصى لك معه أمرا ، حتى لو قلت لي حطم هذه القبة على رأس
سليمان لحطمتها عليه . فأمره سليمان أن يهبط فلما هبط قال له . ماذا تقول ؟
قال يا نبي الله لقد تكلمت بلسان المحبة ، والسنة المحبين لا حساب عليها .
فتبسم سليمان وعفا عنه . . . »

ويقول محي الدين في الباب الثاني والتسعين ومائتين : من أعظم
الأدلة على نفي الجلول والاتحاد ، الذي يتوهمه بعضهم ، إن تعلم عقلا أن القمر
ليس فيه من نور الشمس شيء ، وإن الشمس ما انتقلت إليه بذاتها وإنما
كان القمر محلا لها ومشرقا بها ، فكذلك العبد ليس فيه من خالقه شيء
ولا حل فيه » .

ثم يقول : « وهذا يدل على أن العالم ما هو عين الحق . ولا حل فيه الحق ، إذ لو كان عين الحق ، أو حل فيه ، لما كان تعالى قديما ولا بديعا . ثم يرد محيي الدين على هؤلاء الذين تنادوا بالترقي والفناء في الذات العلية فيقول : « لو صح أن يرقى الانسان عن إنسانيته والملك عن ملكيته ويتحد بخالقه تعالى . لصح انقلاب الحقائق ، وخرج الاله عن كونه الها . وصار الحق خلقا ؟ والخلق حقا ؟ وما وثق أحد يعلم . وصار المحال واجبا فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبدا »

ويقول في الباب الثامن والأربعون من الفتوحات : « لا يصح أن يكون الخلق في مرتبة الحق تعالى أبدا . كما لا يصح أن يكون المعلول في رتبة العلة ، ثم يقول : وأين أذن تذهب التكاليف ومن ترك التكاليف كان معاندا أو جاحدا ، فمن كمال التخلق باسماء الحق ، الاشتغال بالله وبالخلق . ويقول في لواقح الأنوار : « لا يقدر أحد ولو ارتفعت درجات مشاهدته . أن يقول أن العالم عين الحق أو اتحد به أبدا . ومن فهم ما أومأنا إليه فهم معنى قوله تعالى « قل الروح من أمر ربي » فلم يحدث بابتداعه العالم في ذاته حادث . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا » .

ثم يأتي محيي الدين بكلمة الفصل فيقول : « وبالجملة فالقلوب به تعالى هائمة . والعقول فيه حائرة » ، يريد العارفون أن يفصلوه تعالى بالكلية عن العالم من شدة التنزيه فلا يقدررون . ويريدون أن يجعلوه عين العالم من شدة القرب ، فلا يتحقق لهم ، فهم على الدوام متحيرون ، فتارة يقولون

هو؟ وتارة يقولون ما هو؟ وتارة يقولون هو ما هو؟ وبذلك ظهرت
عظمته تعالى »

وهذا كلام العارف الحكيم المؤمن الكامل ، وهو هدى ونور لمن
يريد الهدى والنور .

يريد العارفون أن يفصلوه سبحانه وتعالى عن العالم من شدة التنزيه
فلا يقدرّون . ويريدون أن يجعلوه عين العالم من شدة القرب فلا يتحقق
لهم ما يقولون .

فالقلوب حائرة ، والعقول هائمة ، وبذلك ظهرت عظمة الله تعالى .
الذى ليس كمثله شيء والذى لا تدركه العقول ، ولا الأبصار ، وهو يدرك
العقول والأبصار ، وهو على كل شيء قدير . وسيحان ربك رب العزة عما يصفون

محي الدين المفترى عليه

لم يشهد تاريخ الفكر الاسلامي جدلا وحوارا . أشد ولا أعنف من
الجدل والحوار الذي أثير حول محي الدين . ولست أغالى إذا قلت . إن
محي الدين هو الراية التي دارت حولها المعارك بين المتصوفة وخصومهم من
شئت الفرق والطوائف والمذاهب ، منذ القرن السابع الهجري إلى يومنا .
فمحيي الدين ، قد قنن به قوم وهاموا بآثاره حبا وغراما ، وطافوا
حول تراثه إجلالا وإكبارا وتنادوا بأن الفتوحات ، هي أعظم آثار
الفكرى الاسلامي ، وأعلى ذرى للعطايا الدنية ، والمنح الالهية في نهج
التصوف والمتصوفة ، وإنه القطب والغيوث والإمام والشيخ الأكبر .
وغضب قوم على محي الدين ، وثاروا به وتفننوا في تجريمه والنيل
منه وألحدوا بكل ما قال وظنوا السوء . بل وأكثر من السوء في
كتبه وآرائه .

وخصوم محي الدين على لونين . فريق لم يفهم محي الدين ، وقصرت
أحنحته عن التحليق في آفاقه ، وعجرت أقدامه وسواعده عن الجرى مع
عبابه وأمواجه ، فأنكر وجحد ، ورماه بالغموض والإبهام والتفنع
لئلا يرب وأغراض .

وفريق آخر ، أنكر التصوف جملة ، وجحد المتصوفة كافة . وروا في
محيي الدين . الحصن الأكبر والصرح المرد الشاهق للتصوف والمتصوفة .

فوجهوا ريمهم إليه ، وأجروا سفنهم بالكيد له ، والتطاول عليه ، حتى ينتفض الصرح من أساسه ، وينفض السامر ، وتخلو ساحاته من البطل والزعيم .

بل لقد تعرض محيي الدين لمحنة أشد ، بل لمؤامرة من تلك المؤامرات التي تدبر تحت أجنحة الظلمات ، والتي طالما أودت بالعلماء ورجال الإيمان وطالما جرحت أئمة الفكر والهدى مؤامرة بدأت في حياته ثم جرت في أعقابه ولاحقته إلى يومنا .

يقول الشعراني ، في مقدمة اليواقيت « إن أفاقاً من أهل اليمن غير واضح العقيدة ، اسمه ابن الخياط ، كتب مسائل في درج وأرسلها إلى العلماء بسائر أنحاء العالم الإسلامي ، وقال هذه عقائد الشيخ محيي الدين ، وذكر فيها عقائد زائفة ، ومسائل خارقة لإجماع المسلمين ، وخدع العلماء ووقع كثير منهم في الشرك ، فكتبوا بحسب السؤال وشنعوا على من يعتقد ذلك من غير تثبت ، والشيخ عن ذلك بمعزل »

ويعقب الفيروزابادي على حادثة ابن الخياط قائلاً « فلا أدري أوجد ابن الخياط تلك المسائل في كتاب مرسوم على الشيخ ، أو فهمها هو من كلام الشيخ ، على خلاف مراده . أو ابتكرها من عند نفسه » .

وإنه للون من أعجب ألوان التشهير ، يتفق تماماً مع أحدث أساليب الدعاية الحديثة . وما الفناء من الأقلام المأجورة المعاصرة التي تطلقها الأمم لتتال من خصومها ، ومن أفكارهم ومذاهبهم ، بالتلفيق والاختراع والتمويه .

ولا عجب إذا رأينا الكثير من العلماء الذين وجه إليهم السؤال من ابن الخياط ، وقد وقعوا في الشرك الذي نصب لهم بمهارة ودهاء ، فقد رؤوا بين أيديهم مسائل خطيرة تمس الدين وما انعقد عليه الرأي بالإجماع ، فملؤا الدنيا صياحا وتشهيرا ، ولا يزال صياحهم وتشهيرهم تحمله أجنحة التاريخ ، وتقذف به إلى الأذهان .

ويحدثنا الشعراني أيضا ، فيقول « إنه عند ما أخذ في تأليف مختصر للفتوحات ، رأى فيها أشياء كثيرة ، لا تتفق مع ما عليه أهل السنة والجماعة فحذفها وتوقف فيها ثم يقول « لم أزل كذلك أظن أن المواضع التي حذفها ثابتة عن الشيخ محيي الدين ، حتى قدم علينا الأخ العالم الشريف الشيخ شمس الدين محمد بن السيد أبي الطيب المدني المتوفى سنة ٩٥٥ هـ فذاكرته في ذلك ، فأخرج لي نسخة من الفتوحات التي قابلها على النسخة التي عليها خط الشيخ محيي الدين نفسه « بقونه » فلم أرفيها شيئا مما توقفت فيه وحذفته ، فعلمت أن النسخ التي في مصر الآن كلها كتبت عن النسخة التي دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة ، كما وقع له ذلك في كتاب الفصوص وغيره » .

والشعراني وهو من أخلص تلامذة محيي الدين ومن أكبر من كتبوا عنه وترجموا له ، يقرر هنا في صراحة لا تقبل الجدل أن كل ما في الفتوحات مخالفا لعقائد أهل السنة والجماعة مدسوس على محيي الدين ، وإن محيي الدين ضحية لمؤامرة دينئة سلاح الخصوم فيها التلفيق والتزييف .

ويتابع الشعراني بحثه فيقول . إنه تقتنع كل الاقتناع بأن خصوم

محبي الدين أضافوا إلى مؤلفاته زيادات كبيرة وانطقوه بما لم يقله ، ليصرفوا الجمهور من حسن الظن به .

ونحن ولا شك أمام حادث خطير من أحداث التاريخ يجب أن تجتمع له عصابة من أولى القدرة والإيمان لدراسته وبحبه وصون هذا التراث الاسلامي العظيم من التشويه الزائف الخطير المتعمد .

ويرى كثير من رجال التاريخ وأهل الرأي ، إن الزائف في الفتوحات والفتوح وغيرهما من كتب محبي الدين ، لم يتوله خصومه من رجال الفقه ولا من أهل السنة ، وإنما تولى آثمه بعض رجال الباطنية الذين عجزوا عن الجهر بأرائهم فأضافوها إلى محبي الدين ، لإيمانهم بأن شخصيته الجبارة ، بمكانتها وجلالها كفيلا بحماية تلك الآراء ، أو تدعيمها وتقويتها .
والتاريخ حافل الصفحات بألوان من الخصومات والافتراءات ، على الرجال والأئمة ، بل وعلى الرسل والأنبياء .

يقول جلال الدين السيوطي « ما كان كبير في عصر قط ، إلا كان له عدو من السفلة ، إذ الأشراف لم تزل تبلى بالأطراف ، ثم يضرب الأمثال من الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم الذين ابتلوا بالخصومات والافتراءات ثم بكبار الصحابة ، كسعد بن أبي وقاص الذي نسب إليه أهل الكوفة أنه لا يحسن الوضوء ولا الصلاة ، وهو من هوفى كماله وإيمانه ، وأخذ بن حنبل الذي ضرب حتى مرق جسده ، وهكذا ، ثم يقول ولقد اختص المتصوفة بالنصيب الأكبر من هذا الابتلاء . »

والسيوطي هنا يقرر حقيقة من حقائق التاريخ التي لا يرقى إليها

الشك . فما من صوفي إلا وأحاطت به عصبه السوء والأفك ، تجريحاً وتشهيراً
وِدساً وإفتراء ، لقد نفوا البسطامي سبع مرات من بلده بتهمة الكفر
والزندقة . واحلوا دم ذا النون المصري ، وشهدوا على الجنيد بالكفر
والإلحاد ودسوا على الغزالي في الأحياء ، عدة مسائل تنبه لها القاضي عياض
فأرشد إليها وأمر بإحراقها .

ولم يكتف خصوم محي الدين بالدس عليه في كتبه ، والتشهير بالسنتهم
به ، بل أضافوا إلى جريمتهم ، جريمة أخرى أشد وأنكى ، فقد أخذوا
يؤلفون على ألسنة شيوخ الإسلام الكلمات القاسية الجارحة الموجهة إلى
محيي الدين ، ليزيدوا في تدعيم مؤامرتهم ، وليزيدوا النار اشتعالاً .

ووقع كثير من رجال التاريخ فريسة سهلة لهذا اللون الجديد ،
فأخذوا يرددون أمثال هذه الافتراءات وينسبونها إلى هؤلاء الأعلام ، ولا
عجب في هذا فكتب التفسير مثلاً تموج موجاً بالإسرائيليات التي تنسب
ظلماً إلى ابن عباس رضي الله عنه ، وأنه منها للبريء المطهر ، نسبوا فيما نسبوا
إلى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام . أنه قال عن محيي الدين ، أنه
زنديق ؟ ورواها عنه أكثر من مؤرخ ، ثم نرى كتب التاريخ الصحاح
تقص علينا حادثة أبعد ما تكون عن الرواية الأولى على لسان مرید من
تلامذة شيخ الإسلام يقول .

كنا في مجلس الدرس بين يدي الشيخ عبد السلام ، فجاء في باب
الردة لفظة زنديق ؟ فقال بعضهم هل هي عربية . أم أعجمية ؟ فقال بعض
الفضلاء ، إنما هي فارسية معربة أصلها — زن . دين — أي على دين المرام

وهو الذى يضر الكفر ويظهر الإيمان . فقال بعضهم مثل من . فقال آخر
إلى جانب الشيخ ، مثل ابن عربى . بدمشق فلم ينطق الشيخ ولم يرد عليه
ووجم لها من فى المجلس .

قال المريد . وكنت صائما ذلك اليوم . فاتفق أن الشيخ دعانى
للافطار معه فحضرت ووجدت منه إقبالا واطفئا . فقلت له يا سيدى . هل
تعرف القطب الغوث الفرد فى زماننا . فقال مالك ولهذا . فعرفت أنه
يعرفه ، فرجوته وألححت فى الرجاء . فقال لى . هو ، ابن عربى . فعجبت
وقلت يا سيدى . لقد حدث اليوم أن رماه بعضهم فى مجلسك بالزندقة ولم
ترد عليه . فتبسم الشيخ وقال . اللجاجة مع المتعنت لا تنتج إلا ضرا .
وقائل تلك الكلمة ، لجوج حقود ، يريد بابا للجدل ، حتى يفرغ
ما فى جوفه .

النبي والولى

وخصوم ابن عربى على لونين . لون صناعته الدس وسوء القصد ، وقد
توصلوا إلى أغراضهم بتزييف الآراء على السنة الأئمة والعلماء ، وتزييف القول
وبشه في كتب محي الدين ، كما حدث في الفتوحات والفصوص والمشاهد ،
وقد تنبه رجال التصوف كالشعراني ، والمؤرخين النقا كالتيروزابادي
وصاحب فتح الطيب إلى ذلك .

والفريق الآخر ، خصومته أساسها سوء الظن . أو سوء الفهم لكلمات
محي الدين . يقول الشعراني سمعت سيدي عليا الخواص يقول «لو أن كمال
الدعاة إلى الله تعالى كان موقوفا على أطباق الخلق على تصديقهم لكان رسل
الله صلوات الله عليهم أولى بذلك . وقد خاصمهم الناس فريقاً يقتلون ،
وفريقاً يأسرون ويكذبون » .

ولقد صدق الخواص ، فحتى الرسل ، لم تسلم دعوتهم الربانية من
المؤلن والمكذبن ، ومن الأمور التي نسبت إلى محي الدين عن طريق
التأويل أو سوء الفهم مسألة المفاضلة بين النبي والولى ، فلقد هتف المرجفون
بأن محي الدين ، قد فضل الولى على النبي ، وأنه قال أن النبي للعامة
والأولياء للخاصة .

وهو افتراء ، أو سوء فهم من أعجب الأعاجيب ، فمحي الدين لم يقل
هذا ولا ينبغي له أن يقوله ، ولا يمكن أن يصدر منه .

محي الدين الذي اتهم بأنه سما بمقام النبوة الحمذية سما اعتبروه

عيباً من عيوبه ، حتى رموه بالغلو ، كما غالى رجال المسيحية فى عيسى ،
حتى أوشكوا أن يخرجوه من بشريته . بل لقد فعلوها
محى الدين الذى عيب عليه هذا ، يرمى بأنه يفضل الولى على النبى !
ومن عجب أن يتهم رجل بمتناقضين فى وقت واحد .

وحقيقة الأمر ، أن محى الدين ، يرى أن الولى كلمة اصطلاحية تضم
كل الرسل والأنبياء ، فالرسول عنده ، ولى عهد اليه فى تبليغ رسالة عن الله
سبحانه . والنبى ولى متميز عن غيره من الأولياء مفضل بسبب خصوصيته
بالنبوة ، فالولاية هى أساس كل المقامات الروحية وعنصرها الأول ، ولا
يسمى الولى سمو النبى والرسول أبداً ، فكل نبى أو رسول . هو فى الأصل
ولى لله ، وليس كل ولى نبياً أو رسولاً .

وإنما المفاضلة بين الولاية فى النبى والنبوة . أى الفضيلتين أفضل وأدوم
يقول ابن عربى أن النبوة طارئة وأن الولاية دائمة ، فولاية النبى —
لا ولاية غيره — أفضل من نبوته لأنها أدوم وأسبق فالكلام . إذن .
منصب على رسالة النبى وولايته ، لا على المفاضلة بينه وبين غيره فى النبوة والولاية .

المتشابهات في كلام محي الدين

للاصوفية اصطلاحات ورموز ، ولغة اختصوا بها ، فاذا اختلف في معانيها ، يجب أن ترد إلى أصحابها وأولى العلم بأسرارها ، يقول محي الدين « اعلم أن أهل الله لم يضعوا الإشارات التي اصطالحوا عليها فيما بينهم لأنفسهم . فأنهم يعلمون الحق الصريح في ذلك ، وإيماناً وضعوها منعاً للدخيل حتى لا يعرف ما هم فيه ، شفقة عليه ، أن يسمع شيئاً لم يصل إليه فينكره على أهل الله فيعاقب » .

ويقول « إن من أعجب الأشياء في الطريق ، أن ما من طائفة تحمل علماً من المنطقيين والنحاة ، وأهل الهندسة والحساب والمتكلمين ، إلا ولهم اصطلاح لا يعلمه الدخيل فيهم . إلا بتوقيف منهم ، إلا أهل هذا الطريق ، فإن المرید الصادق إذا دخل طريقهم وما عنده خبر بما اصطالحوا عليه وجلس معهم وسمع ما يتكلمون به من الإشارات فهم جميع ما تكلموا به ، حتى كأنه الواضع لهذه المصطلحات » .

ويقول مجد الدين الفيروزابادي « كما أعطى الله الكرامات للأولياء أعطاهم من العبارات ما يعجز عن فهمه فحول العلماء » .

ويقول محي الدين « كثيراً ما يهب على قلوب العارفين تفحات إلهية ، فإن نطقوا بها جهلهم من لا يعلم . وردها عليهم أصحاب الأدلة من أهل الظاهر ، وغاب عنهم أن الله تعالى ، كما أعطى أوليائه الكرامات أعطاهم العبارات المعجزة » .

لكل علم من العلوم اصطلاحاته الفنية . ولغته الخاصة ، فيجب

الإحاطة أولاً بلغة التصوف ورموزه ، قبل الجحود والإنكار .
 يقول محيي الدين « من لم يقيم بقلبه التصديق لما يسمعه من كلام هذه
 الطائفة فلا يجالسهم ، فإن مجالسهم سم قاتل » .
 يحذر محيي الدين من سوء الفهم أو سوء التأويل ، لكلمات العارفين ، الذين
 أوتوا الكرامات كما أوتوا الكلمات المعجزة ، والرفائق الغالية ، والدقائق المشرقة .
 وسوء الفهم ، وسوء التأويل ، هو الذي دفع بالكثير من رجال الفكر
 إلى مخاصمة محيي الدين والصياح به . والانكار عليه ، ولوردوا ما أنكروه
 إلى أهله ورجاله . لعرفوا اليقين ، ولمسوا النور المبين .
 ومن تلك التشابهات . في كلام محيي الدين ، إنهم نسبوا إليه وحدة
 الوجود ، ونسبوا إليه أنه جعل الحق والخلق شيئاً واحداً حين قال :

فيحمدني وأحمده ويعبدني وأعبده

يقول الشعراني ، هذا منطلق عربي مبين ، على نهج الأسلوب القرآني ،
 وعلى صحة نسبة هذا القول إليه ، فمعنى يحمدني ، انه يشكرني إذا أطعته ،
 كما في قوله تعالى - اذكروني أذكركم - وأما قوله - ويعبدني وأعبده -
 أي يطيعني بأجابه دعائي كما في قوله تعالى - لا تعبدوا الشيطان - أي
 لا تطيعوه ، وإلا فليس أحد يعبد الشيطان كما يعبد الله سبحانه .

ومن التشابهات أيضاً عنده . والتي فسرناها بنفسه ، وعلى ضوء
 هذا التفسير يمكننا أن نمسك بمفتاح محيي الدين الذي يرشد إلى إدراك
 حقيقة معانيه وحقيقة الفاظه أو حقيقة نهجه الذي تميز به ، كما تميز كل كاتب
 بأسلوبه وتراكيبه ، قال محيي الدين :

يا من يراني ولا أراه كم ذا أراه ولا يراني

فسأله بعض صحبه لما سمع هذا البيت ، كيف تقول انه لا يراك
وأنت تعلم أنه يراك ، فقال محي الدين على البديهة فوراً :

يا من يراني مجرماً ولا أراه آخذاً

كم ذا أراه منعماً ولا يراني لائداً

قال المقرئ ، صاحب نفع الطيب ، تعقيباً على هذا القول « من هذا
وشبهه تعلم أن كلام الشيخ رحمه الله مؤل وأنه لا يقصد ظاهره ، وإنما له
محامل تليق به ، فأحسن الظن به ، بل اعتد ، وللناس في هذا المعنى كلام
كثير ، والتسليم أولى . والله بكلام أوليائه أعلم . »

ذلك قول المؤرخ العظيم المقرئ ، صاحب نفع الطيب ، في وجوب
الفهم والتدقيق . أولاً ، ثم حسن الظن وجمال التسليم ، لأن لكلام العارفين
الكمال ، محامل تليق به وتليق بهم . ورضوان الله على العارف القائل :

تركنا البحار الزاخرات وراءنا فمن أين يدرى الناس أين توجهنا

ولقد ذهب خصوم محي الدين ، الذين ملؤا الدنيا حوله صياحاً في حياته ،
ولا حقوه في تاريخه ، ذهبوا . وبقى محي الدين ، لأن الحق يبق ، وما كان
خصومه بالنسبة إليه كما قيل . بأ أكبر من ناموسة نفخت على جبل تريد إزالته .
وتذهب الرياح بأمم من الناموس ، وتبقى الجبال شوامخ راسيات ، يثبت
الله بها الأرض ، وينفع بها الناس ، وتتدفق منها السكنوز والخيرات .

المستشرقون

ووحدة الوجود

يقول العلامة «ليوبولد قايس» التمسوى الذى أسلم وتسمى باسم «محمد أسد» فى كتابه . الإسلام على مفترق الطرق .
« قد لا تقبل أوروبا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية ، ولكنها تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين . بموقف عقلى متزن ، إلا أنها حالمات تتجه إلى الإسلام . يختل التوازن . ويأخذ الميل العاطفى بالتسرب حتى إن أبرز المستشرقين الأوربيين . جعلوا من أنفسهم فريسة للتحزب غير العلمى فى كتابتهم عن الإسلام » .

ثم يقول

« إن بعض المستشرقين يمثلون مع الإسلام ، دور المدعى العام ، الذى يحاول دائماً إثبات الجريمة » إلى أن يقول

« وعلى الجملة فإن طريقة الاستقراء والاستنتاج . التى يتبعها أكثر المستشرقين . تذكرنا بوقائع دواوين التفتيش تلك الدواوين التى أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها فى العصور الوسطى . أى أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبداً إن نظرت فى القرائن التاريخية بتجرد . ولكنها كانت فى كل دعوى . تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل قد أملاه عليها تعصبها لرأيها . ويختار المستشرقون شهودهم حسب الاستنتاج الذى يقصدون أن يصلوا إليه

مبدئياً . وإذا تعذر عليهم الاختيار العرف للشهود . عمدوا إلى اقتطاع أقسام
من الحقيقة التي شهد بها الشهود الحاضرون . ثم فصلوها من المتن . أو
تأولوا الشهادات بروح غير علمي من سوء القصد .

ولست نتيجة تلك الحاكمة سوى صورة مشوهة للإسلام ، وللأمور
الإسلامية . تواجهنا في جميع ما كتبه مستشرقوا أوروبا . » .

تلك شهادة من أهلها ، شهادة عالم عالمي . بدأ حياته مستشرقاً يفكر
بتفكير رجال الاستشراق ، وينظر بنظرهم إلى الإسلام والمعارف الإسلامية
حتى أقنعه الله فهداه ، إلى الإسلام وكلمة الحق .

كلمة يشهد لها الواقع . تشهد لها تلك الكتب المتلاحقة المتتابعة التي
يقذف بها رجال الاستشراق وجه العالم الإسلامي ومحورها الإسلام .
والمعارف الإسلامية . ظاهرها البحث العلمي الحديث الذي يقوم على
الاستقراء والاستنتاج . وباطنها تجريح الإسلام والنيل منه .

فرجال الاستشراق . كما يقول « ليوبولد » تحذوهم دائماً روح صليبية
تجعلهم يمثلون مع الإسلام . والإسلام وحده . دور المدعى العمومي . الذي
يحاول دائماً إثبات الجريمة !!!

دور محاكم التفتيش ، التي تبدأ الحاكمة باستنتاجات متفق عليها من قبل
وبشهود مدرين مأجورين . وحتى إذا أخطأ الشاهد . فنطق بكلمة حق ،
فلا بد من تأويل تلك الكلمة لتجنح إلى الهدف المرسوم المحدد .

ورجال الاستشراق . خصوم للإسلام بصفة عامة . وللتصوف الإسلامي
بصفة خاصة .

لأنهم علموا عن معرفة ، إن التصوف هو قلب الإسلام الحى . وفلسفته
المؤمنة المبصرة . هو المصباح الذى يضىء للقلوب الحميدة . الطريق إلى
خالقها . فقالوا كما قال المشركون من قبل «لا تسمعوا لهذا القرآن وألغوا فيه
لعلكم تغلبون» .

عبث رجال الاستشراق بمحارب التصوف . عبثاً علمياً منظماً . عبثاً
خبثاً متعمداً . فتنادوا أول ما تنادوا — باسم الاستنتاج العلمى الحر — بأن
التصوف ليس من الإسلام . لأن الإسلام لا يعرف الروحانية . كما لا يعرف
المثالية والترفع عن ماديات الحياة ، وإنما هو وليد يمت بنسب صريح إلى
البوذية الهندية ، وبنسب صريح أيضاً إلى الفلسفة الإشرافية اليونانية ، وبنسب
صريح للمرة الثالثة إلى الروحانية المسيحية ، وإلى شخصية المسيح بالذات .
واستدلوا على دعواهم بأدلة أقرب إلى العبث والفكاهة . منها إلى
مناهج العلماء . ورجال الفكر . وما قيمة الدليل إذا كان المدعى العمومى .
قد أضمر الحكم سلفاً .

فالمستشرق اليهودى «جولد تسير» مثلاً يبرهن فى كتابه — العقيدة
والشريعة فى الإسلام^(١) على صلة التصوف الإسلامى — بالبوذية الهندية
بقول أبو العتاهية الشاعر .

يا من ترفع للندى وزينتها ليس الترفع رفع الطين بالطين
إذا أردت شريف الناس كلهم فانظر إلى ملك فى زى مكسين
ثم يقول . أو ليس هذا هو — بوذا
هذا منطقهم . وتلك أدلتهم . . ؟

فإذا اتبى رجال الاستشراق ، من نشأة التصوف . ونسبتها العجيبة إلى كل دين فى الأرض سوى الإسلام . عمدوا إلى تشويه أمة رجال التصوف . تشويها عجا ؟ إنهم ليرمونها بالكفر . و بماذا يكفرون . إنهم يكفرون بالإسلام . الإسلام الذى يدافع عنه رجال الاستشراق المؤمنون البررة ، من يهود ومسيحيين .

ثم تتضخم التهمة وتكبر مع الزمن . حتى يجعلوا من رجال التصوف الإسلامى زنادقة فجرة ، يلحدون فى ذات الله تعالى ، يجعلهم . الحق . والخلق شيئاً واحداً . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

نيكولسون ووحدة الوجود

والمستشرق — نيكولسون — عميد المستشرقين الأكبر . هو قارع طبل تلك الفرية الكبرى . ومن عجب أنه أوقف طبوله الضخمة المرعدة على محي الدين . ومحيي الدين وحده . من دون رجال التصوف الإسلامى . يقول الدكتور عفيفى فى مقدمته لكتاب — فى التصوف الإسلامى — الذى ترجمه عن نيكولسون .

« وقد نفى نيكولسون القول بوحدة الوجود . حتى عن الحلاج الذى أثر عنه قوله — أنا الحق — وعن عمر بن الفارض — الذى أثر عنه قوله « أنا هى » — أى الحقيقة الإلهية — بل عن أبى يزيد البسطامى الذى أثر عنه قوله « سبحانه ما أعظم شأنى » .

لأن هذه الكلمات جميعها ، قد قيلت فى حالة جذب روحى . لا عن فكرة فلسفية أصيلة . لأن مذهب وحدة الوجود لم يظهر فى التصوف

الإسلامي إلا منذ زمن ابن عربي . لأنه وحده بطل تلك الفكرة .
وكأنما عز على نيكولسون أن يجرح التصوف الاسلامي وحده ، بتجريح
شيخه الأكبر . فرمى بتهمة وحدة الوجود على رجال الكلام الإسلاميين
بأعجب دليل في عالم الفكر .

يقول نيكولسون في كتابه — في التصوف الاسلامي — (١) عند
حديثه عن فكرة الشخصية في التصوف .

« حالة الوجد أو الفناء الصوفي . تتضمن أمرين متناقضين . الأول
تنزيه الله عن جميع صفات الخلق . والثاني الشعور بأن وجوده سار متغلغل
في جميع الخلق . وكل من هذين الطرفين يؤدي إلى القول بوحدة الوجود
من طريق يخالف طريق الآخر . فإن القول بوحدة الوجود في التصوف
الاسلامي يرجع إلى عاملين . الأول شعور الصوفي في حال وجدته بأنه
متحقق بالوحدة الوجودية مع الحق . والثاني فهمه التنزيه حسبما عرفه
المتكلمون . فهذا أدى به إلى القول بأن الإرادة الالهية المطلقة ، هي وحدها
العلة في وجود كل شيء في العالم .

وبهذه الطريقة كاد الصوفية والمتكلمون يجعلون من الاسلام مذهباً
في وحدة الوجود . »

وإذن فقد وضع غرض نيكولسون . فهو يريد عن عمد أن يتهم
الاسلام جملة ، بأنه دين يجنح إلى وحدة الوجود .

فهو يقول في صراحة أن المسلم إذا عبد الله بحالة الوجد والفناء الصوفي
فهو عبادة . أساسها وحدة الوجود . وإذا عبده على أساس التنزيه حسبما

عرفه المتكلمون من رجال الاسلام . بأن الإرادة الإلهية المطلقة هي وحدها العلة في وجود كل شيء في العالم . فهي عبادة أيضا أساسها وحدة الوجود .

وهو نفسه يشهد بأن القولين المتناقضين ، كل منهما ينتهي إلى وحدة الوجود من طريق يخالف الآخر .

ويقول أيضا في نفس الكتاب ^(١) معلقا على متشابهات ابن الفارض التي توهم وحدة الوجود .

« ومع ذلك لا نستطيع أن نقول إن ابن الفارض قد تعدى عقيدة التوحيد الاسلامية التي عليها أهل السنة . أى العقيدة القائلة . بأن الله هو الفاعل الحقيقي لكل شيء . والواقع أنها عقيدة أشبه ما تكون بمذهب وحدة الوجود » .

وبذلك يضيف نيكولسون أهل السنة أيضا إلى أصحاب وحدة الوجود أى إلى محبي الدين . ورجال الكلام من علماء المسلمين .

وأخيرا يرفع نيكولسون القناع عن وجهه سافرا . فيقول في كتابه « وأنتا لترجح أن النبي العربي كان شموليا يعتمد بوحدة الكون «أيما تولوا قسم وجه الله» .

تلك هي الغاية التي يهدف إليها نيكولسون منذ وجه سهامه المسمومة إلى محبي الدين أنه يريد أن يرمي الاسلام . أن يطفىء نور الله . أن يلصق تلك الأكذوبة الضخمة بالاسلام وبني الاسلام ، ويتخذ لذلك

سيلا ملتويا ناعما . فهو يقدم بين يدي هدفه براءة ابن الفارض والبسطامي
والخلّاج من وحدة الوجود، بدعوى أن كلامهم أساسه الجذب الروحي .
والفناء المعنوي . فناء الحب والوجد .

فإذا انشرح صدر المسلم . صدر الصوفي المؤمن . لهذا القول الكريم
النبيل فأمن بالنزاهة العلمية لينكولسون ، قادة الداهية إلى أزقة الظلمات
والريب ، ليلقى في عقله . ويلقى في قلبه ، الشك ولو الشك . والريبة بعد الريبة
في محي الدين أولا . لأنه الشيخ الأكبر . ثم في رجال الكلام من علماء
الإسلام . ثم في أهل السنة جميعا . وأخيرا النبي الأعظم الذي كان كما يقول
هذا المستشرق الغيور على الإسلام . شموليا ينادى بوحدة الكون .
والشمول عنده ، صورة مصغرة من صور وحدة الوجود .

الدكتور أبو العلا عفيفي

ويأتي في أعقاب نيكولسون ، تلميذه الأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفي فشاهد فيه صورة مكررة لأستاذه ، يردد أقواله حرفيا .

يقول الدكتور في مقدمته لكتاب النصوص ^(١) « إن القضية الكبرى التي تدور حولها فلسفة محيي الدين . والتي ملكت عليه زمام تفكيره . هي نظرية وحدة الوجود » ثم يقول

« ولم يكن لمذهب وحدة الوجود . وجود في الإسلام في صورته الكاملة . قبل ابن عربي ، فهو الواضع الحقيقي لدعائمه . والمؤسس لمدرسته والمنفصل لمعانيه ومراميه . والمصور له بتلك الصورة النهائية التي أخذ بها كل من تكلم بهذه المذاهب من المسلمين من بعده » .

ثم يقول « إن الأقوال الماثورة عن أبي يزيد البسطامي والحلاج بل عن أبي الفارض المعاصر لابن عربي ^(٢) ليست في نظري دليلا على اعتقادهم في وحدة الوجود بل على أنهم كانوا رجالا فنوا في حبهم لله عن أنفسهم . وعن كل ما سوى الله فلم يشاهدوا في الوجود غيره . وهذه وحدة شهود . لا وحدة وجود . وفرق بين فيض العاطفة وشطحات الجذب . وبين نظرية

(١) ص ٢٥ و ٢٦

(٢) حكى المقرئ في ترجمة عمر بن الفارض أن محيي الدين . بحث إلى عمر في شرح (التائية . . أو نظم السلوك) فقال الشاعر . كتابك المسمى بالفتوحات شرح لها .

فلسفية في الإلهيات . أى فرق بين الحلاج الذى صاح فى حالة من أحوال
جذبه بقوله « أنا الله » أو بين بن الفارض الذى أفناه حبه لمحبوبه عن
نفسه فلم يشعر إلا بالاتحاد التام به فقال :

متى حلت عن قولى « أنا هى » أو أقل وحاشا لمثلى إنها فى حلت
أقول فرق بين هذين الرجلين . وبين ابن عربى الذى يقول فى
صراحة لا مواربة فيها ولا لبس . معبراً لا عن وحدته بالذات الإلهية .
ولا عن فناءه فى محبوبه . بل عن وحدة الحق والخلق » .

ومن عجب أن الدكتور يأتى بمشهد لمحى الدين . من كتابه . شجرة
الكون . بمشهد يتكلم فيه محى الدين على لسان العرش . وهو يسبح بحمد
الله . ويتغنى بحماده وجلاله . وكل شيء فى الكون يسبح بحمد الله . سيده
ومولاه . ليتخذ منه دليلاً عجبا على وحدة الوجود ^(١) .

يقول محى الدين على لسان العرش .

« أقسم بعلى عزته ، وقوى قدرته ، لقد خلقتنى ، وفى بحار أحديثه
غرقنى . وفى بيداأبديته حيرنى . تارة يطلع من مطالع أبديته . فينعشنى
وتارة يناجينى بمناجاة لطفه فيطربنى ، وتارة يواصلنى بكلمات حبه فيسكرنى
وكما استعذبت من عردة سكرى . قال لسان أحديثه « لن ترانى » فذبت
من هيئته فرقا . وتمزقت من محبته قلقا ، وصعقت عند تجلى عظمته . كما
خر موسى صعقا ، فلما أقفت من سكرة وجدى به . قيل لى . أيها العاشق .

(١) مقدمة النصوص . طبع عفيفى .

هذا جمال قد صناه ، وحسن قد حجبناه ، فلا ينظره إلا حبيب قد
اصطفيناه » .

يأتى الدكتور بهذا المشهد الإيماني العظيم ليستدل به على عقيدة محي الدين
فى وحدة الوجود . وإنه لدليل من نوع أدلة أساتذته رجال الاستشراق ،
دليل أعد الاتهام فيه . حتى قبل قراءة البيان والبرهان .
يقول الامام البوصيرى رضى الله عنه .

وإذا لم يصحب العلم ذوق وجد الشهد من الجهل صابا
وإلى هنا والدكتور يردد أقوال أستاذه نيكولسون تماما . ولا يتمرد
على تلك الأستاذية المحببة . ولكن التلميذ يجرع ويتمرد . فقد أوشك
أستاذه فى جذبة روحية ، على تبرئة محي الدين . من وحدة الوجود . والتلميذ
أحرص من أستاذه على تخرج شيخ المتوصوفة الأكبر .
يقول نيكولسون . فى كتابه « فى التصوف الإسلامى » (والصوفى
لا يدين بوحدة الوجود ، ما دام يقول بتنزيه الله تعالى . مهما صدر عنه
من الأقوال المشعرة بالتشبيه . فاذا راعى جانب التنزيه . شاهد الله فى كل
شئ . واعتبره فى الوقت نفسه ، فوق كل شئ وهذه وحدة شهود ، لا
وحدة وجود » .

وبهذا الشرط الذى اشترطه نيكولسون خرج محي الدين من التهمة
دون أن يدرك المستشرق الكبير . ولكن الدكتور التلميذ أدرك خطورة
الأمر فأسرع يعقب على أستاذه قائلا :

« ولكننا يجب أن نتذكر أن محي الدين . وهو من أساطين مذهب

وحدة الوجود بل واضح أساس هذا المذهب في الاسلام . قد قال بالتنزيه والتشبيه معا ولم يغفل لحظة واحدة عن قرن أحدهما بالآخر . فهل كان هذا الصوفي من أصحاب وحدة الشهود . لا وحدة الوجود على حد تعبير الأستاذ ... ؟ » .

ولم يجب الأستاذ ولا التلميذ على هذا السؤال الحائر . لأنه بنى على حقيقة علمية . وحقيقة صوفية . بنى على الحقائق التي أدت إلى براءة محي الدين من هذا الأفك المتهالك .

والحقائق دائماً تهدي إلى الصواب ، وترشد إلى الصراط المستقيم دائماً الصراط المستقيم . الذي هو شعار الصوفية . وإليه يتجاكفون . وإليه يجب أن يحاكمهم العلماء وأحرار الفكر الذين ينشدون الحقائق .

ابن تيمية ووحدة الوجود :

ولقد أخطأ في فهم تلك القاعدة . رجل أكبر من الأستاذ وتلميذه . رجل من رجال الفكر الإسلامي . هو العلامة ابن تيمية . فلقد اهتدى إلى تلك القاعدة العلمية . قبل أن يهتدى إليها نيكولسون . ولكنه أخطأ كما أخطأ نيكولسون وتلميذه . لأنه أيضاً لم يجب على السؤال الحائر . أخطأ ابن تيمية . لأنه تمسك بحرفية النصوص الدينية وهو من أساطينها ، وحرفية الألفاظ ، وهو من علمائها ، فلم يطلق عقله من قيودها ، ولم يستعمل الذوق الوجداني ، أو الذوق القلبي في تفهمها ، كان من رجال العقول ، لا القلوب ، من رجال الألفاظ ، لا المعاني فلم يفهم لغة القلب ، ولم يتذوق مواجيد الروح .

يقول نيكولسون : « إن الصوفي لا يدين بوحدة الوجود مادام يقول
بتنزيه الله تعالى ، مهما صدر عنه من الأقوال المشعرة بالتشبيه ، فإذا راعى
جانب التنزيه ، شاهد الله في كل شيء . واعتبره في الوقت نفسه فوق
كل شيء » .

الصوفي المحب الثاني يشاهد الله في كل شيء ، وفي الوقت نفسه يعتبره
فوق كل شيء ، تلك هي الحقيقة الصوفية التي عجز عباد الألفاظ ، عبيد
القوالب والتراكيب الكلامية عن فهمها فظنوا بالمتصوفة وحدة الوجود ،
وهم عباد الرحمن الذين تطوعوا لعبادة ربهم فوق الفرائض والنوافل ، حتى
ليعتبرون العبادة واجباً عليهم في كل نفس من أنفاسهم .

الصوفي الحقيقي المحب الثاني في مولاه ، لا يرى في الوجود إلا الله ،
وأن كل شيء لله ، ومن الله وبالله ، فنسب كل شيء إلى الله ورأى الله في
كل شيء ، هو الفاعل والمدير . رأى الله في كل شيء ، رؤية معنوية
لا مادية ، تؤدي إلى الحلول أو وحدة الوجود .

يقول تعالى « وله الجوارى المنشآت في البحر كالأعلام » فهل الجوارى
للأم لعباده ؟

ويقول جل جلاله « أفرايتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون »
ويقول تبارك وتعالى « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله » « وما رميت
إذ رميت ولكن الله رمى » .

آيات بينات تنطق بنسبة كل شيء إلى الله . أي النسبة الحقيقية لا الظاهرية ،
فهل في هذا أيضاً وحدة وجود ؟ أم هو التوحيد الصافي الطاهر المقدس .

يقول الإمام ابن تيمية في كتابه العبودية ^(٩٦) متحدثا عن مقام الفناء.
الفناء في المحبة الإلهية .

(الفناء عن إرادة ما سوى الله . بحيث لا يحب إلا الله . ولا يعبد إلا إياه . ولا يتوكل إلا عليه . ولا يطلب من غيره . وهو المعنى الذى يجب أن يقصد بقول الشيخ أبى يزيد حيث قال : أريد أن لا أريد : أى المراد المحبوب المرضى ، وهو المراد بالإرادة الدينية . وكال العبد . أن لا يريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أَرَادَهُ الله . ورضيه وأحبه . وهذا معنى قولهم فى قوله تعالى — إلا من أئى الله بقلب سليم — قالوا هو السليم مما سوى الله . أو مما سوى عبادة الله أو مما سوى إرادة الله . أو مما سوى محبة الله . فالمعنى واحد . وهذا المعنى إن سُمى فناء أو لم يسم . هو أول الإسلام وآخره . وباطن الدين وظاهره) .

ثم يتحدث ابن تيمية عن المقام الثانى من مقامات الفناء فيقول :
« وأما النوع الثانى . فهو الفناء عن شهود سوى . وهذا يحصل لكثير من السالكين . فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته ضعفت قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد . وترى غير ما تقصد . لا يخطر بقلوبهم غير الله . بل ولا يشعرون . كما قيل فى قوله تعالى — وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كانت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها — قالوا فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى . وهذا كثيرا ما يعرض لمن دهمه . أمر من الأمور إما حب . وإما خوف وإما رجاء . يبقى قلبه

منصرفاً عن كل شيء إلا بما قد أحبه أو خافه أو طلبه . بحيث يكون عند استغراقه في ذلك لا يشعر بغيره فإذا قوى على صاحب الفناء هذا ، فإنه يغيب بموجوده عن وجوده وبمشهوده عن شهوده . وبذلك كوره عن ذكره . وبمعرفته عن معرفته حتى يفتى من لم يكن . وهو المحلوقات البعده ممن سواه . ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى . والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره . وفناؤه عن أن يذكرها أو يشهدا . وإذا قوى هذا . ضعف الحب حتى يضطرب في تميزه . فقد يظن أنه هو محبوبه . كما يذكر أن رجلاً أتى نفسه في اليم فألقى محبه نفسه خلفه . فقال : أنا وقعت فمن أوقعك خلفي : قال : غبت بك عني . فظننت إنك إني) .

أليست تلك المقامات من حالات الفناء . هي المقامات التي يرمى فيها المتصوفة بوحدة الوجود .

يقول ابن تيمية خصم التصوف الأكبر . وخصم محي الدين (فإنهم انفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته ضعفت قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد . وترى غير ما تقصد) .

وهل قال المتصوفة الأكبر من هذا القول . ومن عجب أن ابن تيمية يهاجم التصوف والمتصوفة لأنهم يقولون إنهم في نشوتهم الكبرى لا يرون إلا الله ويذهلون عما سواه أي نفس ما يقول ابن تيمية . إنهم لا يرون الله في كل شيء . ومع ذلك يوقنون بأنه سبحانه فوق كل شيء . وهذا أكمل درجات التوحيد .

ويقول ابن تيمية أيضا في مجموعة رسائله^(١) وأما قول الشاعر في شعره .

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

فهذا إنما أراد به الشاعر الاتحاد المعنوي . كاتحاد أحد المحبين بالآخر .
الذي يجب أحدهما ما يجب الآخر ، ويبغض ما يبغضه . ويقول مثل ما يقول
ويفعل مثل ما يفعل . وهذا تشابه وتماثل . لا اتحاد العين بالعين . إذ كان
قد استغرق في محبوبه . حتى فنى به عن رؤية نفسه ، كقول الآخر .

عبت بك غنى فظننت أنك أنى

فهذه الموافقة . هي الاتحاد السائع .

ويقول ابن تيمية أيضا في الرسائل^(٢) « روى البخارى في صحيحه

عن أبى هريرة عن النبي بقوله تعالى — من عادى لى ولياً فقد بارزنى
بالحاربة — فقوله من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالحاربة . فجعل معاداة
عبدى الولى . معاداة له فعين عدوه . عين عدو عبده . وعين معاداة وليه .
عين معاداته . ليساهما شيئين متميزين » .

ويذكر أيضا ابن تيمية حديثا رواه مسلم في صحيحه عن أبى هريرة
عن النبي . يقول الله تعالى «عبدى مرضت فلم تعدنى . فيقول يارب كيف
أعودك وأنت رب العالمين . فيقول : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض
فلو عدته لوجدتني عنده . عبدى جعت فلم تطعمنى . فيقول : رب كيف
أطعمك وأنت رب العالمين . فيقول : أما علمت أن عبدى فلاناً جاع فلو
أطعمته لوجدت ذلك عندى » .

ولم أجد ردا على ابن تيمية في هجومه على المتصوفة وعلى شيخهم
 الأكبر أبلغ من قوله . ولم أجد شاهدا أكبر دلالة مما استشهد به هو من
 القرآن الكريم « وأصبح فؤاد أم موسى فارغا » ولا أعظم من تفسيره
 إذ يقول أصبح فؤادها فارغا مما سوى موسى .

- وقلب الصوفي يا شيخ الاسلام ويا أمام من يتسمون بأهل السنة -
 ومن يحاربون المتصوفة أصبح فارغا مما سوى الله فلا يرون في الوجود
 سواه . وربنا سبحانه وتعالى أكبر وأعظم من أن يشبه بعبد من عباده
 أو برسول من رسله ، تلك كلمة الفل في وحدة الوجود . ومقامات الفناء عند
 الصوفية وحقيقة توحيدهم الأكبر . والله يهدي الى الحق يرشد الى سواء
 السبيل .

عقيدة محي الدين الالهية

بقلمه

وكأنما نظر محي الدين بلحاظ الغيب . فعلم أن الخصومات العمياء ستلاحقه بعد موته بالأفك والبهتان . فسجل في مقدمة الفتوحات عقيدته إلا إلهية في الذات العلية لتكمون الحجة الكبرى على من يتقول عليه ظالما وجبلا . . قال :

فيا إخوتي ويا أحبائي رضي الله عنكم أشهدكم عبد ضعيف مسكين فقير إلى الله تعالى في كل لحظة وطرفة وهو مؤلف هذا الكتاب ومنشئه أشهدكم على نفسه بعد أن أشهد الله تعالى وملائكته ومن حضره من المؤمنين وسمعه أنه يشهد قولا وعقدا أن الله تعالى إله واحد لا ثاني له في ألوهيته منزّه عن الصاحبة والولد مالك لا شريك له ملك لا وزير له صانع لا مدبر معه موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجد به بل كل موجود سواه مفتقر إليه تعالى في وجوده فالعالم كله موجود به وهو وحده متصف بالوجود لنفسه لا افتتاح لوجوده ولا نهاية لبقائه بل وجود مطلق غير مقيد قائم بنفسه ليس بجوهر متحيز فيقدر له المكان ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء ولا يحسم فتكون له الجهة والتلقاء مقدس عن الجهات والأقطار مرثى بالقلوب والأبصار إذا شاء أَسْتَوَى على عرشه كما قاله وعلى المعنى الذي

أراد به كما أن العرش وما سواه به استوى وله الآخرة والأولى ليس له مثل
معقول ولا دلت عليه العقول لا يحده زمان ولا يقته مكان بل كان
ولا مكان وهو على ما عليه كان خلق المتمكن والمكان وأنشأ الزمان وقال
أنا الواحد الحي لا يؤوده حفظ المخلوقات ولا ترجع إليه صفة لم يكن عليها
من صنعة المصنوعات تعالى أن تحمله الحوادث أو يحلها أو تكون بعده
أو يكون قبلها بل يقال كان ولا شيء معه فإن القبل والبعد من صيغ الزمان
الذي أبدعه فهو القيوم الذي لا ينام والقيار الذي لا يرام ليس كمثل شيء
خلق العرش وجعله حداً لا استواء وأنشأ الكرسي وأوسع الأرض والسموات
العلی اخترع اللوح والقلم الأعلى وأجراه كاتباً يعلمه في خلقه إلى يوم الفصل
والقضاء أبدع العالم كله على غير مثال سبق وخلق الخلق وأخلق الذي خلق
أنزل الأرواح في الأشباح أمناً وجعل هذه الأشباح المنزلة إليها الأرواح في
الأرض خلفاء وسخر لنا ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه
فلا تتحرك ذرة إلا إليه وعنه خلق الكل من غير حاجة إليه ولا موجب
أوجب ذلك عليه لكن علمه سبق بأن يخلق ما خلق فهو الأول والآخر
والظاهر والباطن وهو على كل شيء قدير أحاط بكل شيء علماً وأحصى
كل شيء عدداً يعلم السر وأخفى يعلم خائنه الأعين وما تخفى الصدور
كيف لا يعلم شيئاً هو خلقه؟ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟ علم
الأشياء منها قبل وجودها ثم أوجدها على حد ما علمها فلم يزل عالماً بالأشياء
لم يتجدد له علم عند تجديد الانشاء بعلمه أتقن الأشياء وأحكمها وبه حكم
عليها من شاء وحكمها علم الكليات على الإطلاق كما علم الجزئيات بإجماع

من أهل النظر الصحيح واتفاق فهو عالم الغيب والشهادة فتعالى الله
 عما يشركون فعال لما يريد فهو المرید الكائنات في عالم الأرض والسموات
 لم تتعلق قدرته بشيء حتى أرادها كما أنه لم يرده حتى علمه إذ يستحيل في
 العقل أن يريد ما لا يعلم أو يفعل المختار المتمكن من ترك ذلك الفعل ما لا
 يريد كما يستحل أن توجد نسب هذه الحقائق في غير حى كما يستحل أن
 تقوم الصفات بغير ذات موصوفة بها فما في الوجود طاعة ولا عصيان
 ولا ربح ولا خسران ولا عبد ولا حر ولا برد ولا حر ولا حياة ولا موت
 ولا حصر ولا فوت ولا نهار ولا ليل ولا اعتدال ولا ميل ولا بر ولا بحر
 ولا شفع ولا وتر ولا جوهر ولا عرض ولا صحة ولا مرض ولا فرح ولا ترح
 ولا روح ولا شبح ولا ظلام ولا ضياء ولا أرض ولا سماء ولا تركيب
 ولا تحليل ولا كثير ولا قليل ولا غداة ولا أصيل ولا بياض ولا سواد
 ولا رقاد ولا سهاد ولا ظاهر ولا باطن ولا متحرك ولا ساكن ولا يابس
 ولا رطب ولا قشر ولا لب ولا شيء من هذه النسب المتضادات منها
 والمختلفات والمتماثلات إلا وهو مراد للحق تعالى وكيف لا يكون مرادا له
 وهو أوجده فكيف يوجد المختار ما لا يريد؟ لا اراد لأمره ولا معقب لحكمه
 يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء
 ويضل من يشاء ويهدي من يشاء ماشاء كان وما لم يشأ أن يكون لم يكن
 لو اجتمع الخلاق كلهم على أن يريدوا شيئا لم يرد الله تعالى أن يريدوه
 ما أرادوه أو يفعلوا شيئا لم يرد الله تعالى إيجاده وأرادوه عند ما أراد منهم
 أن يريدوه ما فعلوه ولا استطاعوا على ذلك ولا أقدرهم عليه فالكفر

والإيمان والطاعة والعصيان من مشيئته وحكمه وإرادته ولم يزل سبحانه
 موصوفا بهذه الإرادة أزلا والعالم معدوم غير موجود وإن كان ثابتاً في العلم
 في عينه ثم أوجد العالم من غير تفكير ولا تدبر عن جهل أو غدم علم فعطيه
 التفكير والتدبر علم ما جهل جل وعلا عن ذلك بل أوجده عن العلم السابق
 وتعيين الارادة المنزهة الأزلية القاضية على العالم بما أوجده عليه من زمان
 ومكان وأكوان وألوان فلا يريد في الوجود على الحقيقة سواء إذ هو القائل
 سبحانه وما تشاؤون إلا أن يشاء الله وأنه سبحانه كما علم فاحكم وأراد فخصص
 وقدر فأوجد كذلك ورأى ما تحرك أو سكن أو نطق في الورى من العالم
 الأسفل والأعلى لا يحجب سمعه البعد فهو القريب ولا يحجب بصره القرب
 فهو البعيد يسمع كلام النفس في النفس وصوت الماسة الخفية عند اللمس
 ويرى السواد في الظلماء والماء في الماء لا يحجبه الامتزاج ولا الظلمات ولا
 النور وهو السميع البصير تكلم سبحانه لا عن صمت متقدم ولا سكوت
 متوهم بكلام قديم أزلي كسائر صفاته من علمه وإرادته وقدرته كلم به
 موسى عليه السلام سماه التنزيل والزيور والوراثة والانجيل من غير حروف
 ولا أصوات ولا نغم ولا لغات بل هو خالق الأصوات والحروف واللغات
 فكلامه سبحانه من غير لهأة ولا لسان كما أن سمعه من غير أسمىة ولا آذان
 كما أن بصره من غير حدة ولا أعفان كما أن إرادته في غير قلب ولا جنان
 كما أن علمه من غير اضطراب ولا نظر في برهان كما أن حياته من غير غتر بخار
 أو تجويف قلب حدث عن امتزاج الأركان كما أن ذاته لا تقبل الزيادة
 والنقصان فسبحانه سبحانه من بعيد دان عظيم السلطان عليم الاحسان جسيم

الامتنان كل ما سواه فهو عن جوده فائض وعدله الباسط له والقابض أكل
صنع العالم وأبدعه حين أوجده واخترعه لا شريك له في ملكه ولا مدبر
معه في ملكه إن أنعم فنعمة فذلك فضله وإن أبلى فعذب فذلك عدله لم
يتصرف في ملك غيره فينسب إلى الجور والحيث ولا يتوجه عليه لسواه حكم
فيصنف بالجزع لذلك والخوف كل ما سواه تحت سلطان قهره ومتصرف
عن إرادته وأمره فهو الملبم نفوس المكلفين التقوى والنجور وهو المتجاوز
عن سيئات من شاء والآخذ بها من شاء هنا وفي يوم النشور لا يحكم عدله في
فضله ولا فضله في عدله أخرج العالم قبضتين وأوجد لهم منزلتين فقال هؤلاء
للجنة ولا أبالي وهؤلاء للنار ولا أبالي ولم يعترض عليه معترض هناك إذ
لا موجود كان ثم سواه فالكل تحت تصرف أسمائه قبضة تحت أسماء
بلائه وقبضة تحت أسماء آلائه ولو أراد سبحانه أن يكون العالم كله سعيداً
لكان أو شقيماً لما كان من ذلك في شأن لكنه سبحانه لم يرد فكان كما
أراد فمنهم الشقي والسعيد هنا وفي يوم الميعاد لا سبيل إلى تبديل ما حكم عليه
القديم وقد قال تعالى في الصلاة هي خمس وهي خمسون ما يبذل القول لدى
وما أنا بظلام للعبيد لتصرفي في ملكي وإنفاذ مشيئتي في ملكي وذلك لحقيقة
عميت عنها الأبصار والبصائر ولم تعثر عليها الأفكار ولا الضمائر إلا بوهب
إلهي وجود رحمني لمن اعتنى الله به من عباده وسبق له ذلك بحضرة إيشاده
فعلم حين أعلم أن الألوهة أعطت هذا التقسيم وأنه من رفائق القديم فسبحان
من لا فاعل سواه ولا موجود لنفسه إلا إياه. والله خلقكم وما تعملون . ولا
يسئل عما يفعل وهم يسئلون فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين .

أثر محي الدين في النهضة الاوربية

يقول كلود فاريرا ، أحد مؤرخي فرنسا وأدبائها . ان هزيمة العرب في بواتيه ، قد أخرجت المدنية الغربية ثمانية قرون .

ويستطيع كلود فاريرا . أيضا أن يقول . إن فتح العرب لأسبانيا ، والتقاء أوربا بالحضارة الاسلامية في الأندلس ، هو الذي غير مجرى التاريخ الأوربي . وهو الذي بعث أوربا ووضع أقدامها على الطريق العريض ، الذي ذهب بها ، إلى حضارتها العلمية الحديثة .

لقد كانت المعاهد العلمية الاسلامية في الأندلس . هي المنارات التي ترسل المهدي والنور إلى أرجاء أوربا ، وهي المناهل العذبة التي هرع إليها رجال الطليعة الأوربية ، ليتزودوا من معارفها ويتبسوا من نورها ، ثم يعودون إلى بلادهم مبشرين ومنذرين وداعين إلى العلم والفكر الاسلامي يقول « جونس » المؤرخ المعاصر لفولتير ، لقد كانت تعاليم ابن رشد هي الراية التي يتقاتل حولها الأحرار من رجال الفكر الأوربي ، وكانت كتب الرازي وابن سينا هي القمم العليا في معاهد الطب ومدارس العلم في إيطاليا وفرنسا .

بل أعظم من هذا في الدلالة وأعجب . إن النهضة الدينية نفسها في أوربا ، تدعى لمسلمي الأندلس عامة ومتصوفة الأندلس خاصة ، بالبعث والحياة .

لقد كانت المعارف الدينية في أوربا، طلاس وأحجية وأسرار، تظلمها
أردية الرهبان المقدسة، وتحسبها طوائفهم أصحاب القسوة العالمية.
معارف مظلمة لا تقبل جدلاً ولا حواراً ولا تطبيق علماء، ولا ترضي منطقاً. بل
تسخر كل ما ترى لأهوائها ونزواتها، متغالية مترفعة لا تعلل. ولا ترضى
أن يسألها إنسان عما تفعل.

وكان رجالها، يبيعون الجنة، ويهبون الفردوس الأهل. لكل من
يدفع مالا، أو يرضى شهوة، أو يعين على نأرب من مأرب السياسة والهوى.
ثم نظرت أوربا بعين الاجلال والدهشة إلى المعارف الدينية الاسلامية
في الأندلس، وهي ثروة مباحة لكل قاصد، ومنهل يتدفق لكل راغب.
وساحة للآراء، وممتدى للمناقشة، ومجالاً لكل صوال وقوال. فلا أسرار
ولا أقنعة، ولا، لاهوت مخبوء تحت أردية الكهان والرهبان محاط بالأسرار
والظلمات بل معارف وعلوم تساهم في احداث الحياة، وتشرح مواقف
العمول ومعضلات الفكر، وتلين لكل مجتهد، وتفتح صدرها لكل متفنن
مبتكر، وتهب نورها بالقسط لكل مؤمن.

نظرت أوربا إلى تلك الحرية الهائلة، التي يتمتع بها العرب في النظر
إلى الدين الاسلامي، وإلى تلك القوة الهائلة المنفجرة من ينابيع الهدى الحمدي،
فأقبلت عليه تسترشد وتزود ثم تعيد نظرها في لاهوتها المسيحي، محاولة
أن تنفخ فيه الحياة وأن تلقحه بالمنعشات وأن تمسه بسحر الحرية، وأن
تنقله من أبراجه إلى الأفق العام، ليكون آية للناس كافة. لاحماية للقدس
والرهبان فحسب.

يقول الأستاذ العقاد في كتابه « أثر العرب في الحضارة الأوربية »
« ان الفلسفة الصوفية الاسلامية، هي الطريق التي ظير منها ما ظير من آثار
التفكير الجديد في العالم المسيحي وفي العقائد الأوربية على الاجمال . ونظرة
واحدة إلى أرقام السنين التي ازدهر فيها اللاهوت المسيحي ونجحت فيها
دعوة الاصلاح الديني، ترينا أن ذلك لم يحدث قبل احتكاك أوربا بالحضارة
الاسلامية في الاندلس . »

ويشير العلامة « نيكولسون » في مجموعة تراث الإسلام، إلى المشابهات
بين أقوال الصوفية المسلمين ، وأقوال الصوفية الأوربيين من الأقدمين ،
مثل اكهارت الأناني ، والحديثين مثل، ادوارد كارنتر الانجليزى . ثم يقول
« أن النهضة الأوربية لم تظهر لها علامة واحدة قبل الاحتكاك بينهم وبين
المسلمين . فإن دروس العرب في جامعات الأندلس حضرها رجال الدين
والدنيا من سائر أنحاء أوربا ... »

تلك شهادة كاتب أوربى معاصر ، صريحة في أن النهضة الأوربية لم
تظهر لها علامة واحدة، قبل الاحتكاك بينهم وبين المسلمين ، وصريحة أيضاً
في أن دروس العرب في جامعات الأندلس قد حضرها رجال الدين والدنيا
من سائر أنحاء أوربا ، ثم انقلبوا إلى شعوبهم مبشرين وداعين إلى العلم
الجديد المشرق في سموات الأندلس .

ثم يواصل « نيكولسون » بحثه في أثر الأندلس في البعث الأوربى
فيقول « أن ابن عربى عبقرى الإسلام في الأندلس ، بدراساته الجريئة
في الالهيات ، ومشاهداته الكبرى في عالم الروح ، قد عبد السبل أمام

اللاهوت المسيحي، للنهوض والتحلل من القيود». ثم يقول «وأثر ابن عربي في النهضة الأوربية لم يقتصر على هذا، بل له آثاره في بعث الأدب الأوربي أيضاً. فإذا قابلنا بين ما كتبه دانتي مثلاً حينما نظم الكوميديا الإلهية وبين ما كتبه ابن عربي نرى أن دانتي، قد تتلمذ على ابن عربي تلمذة واضحة في النهج والأسلوب والطريقة. بل وفي الصور والأمثال والاصطلاحات والأساليب الفنية».

وليس «نيكسون» وحده هو الذي يقول هذا بل نرى أيضاً المستشرق الكبير «آسين بلاسيوس الأسباني» يشهد بأن نزعات دانتي الصوفية في كتبه. وأوصافه لعالم الغيب مستمدة من ابن عربي بغير تصرف كبير، ثم يقول بعد ذلك «أن ابن عربي هو الأستاذ الحقيقي للنهضة الصوفية الدينية في أوربا». ولنتستمع إليه إذا تحدثنا قائلاً:

«ومن المعلوم. أن أول الفلاسفة الصوفيين من الغربيين وهو — جوهان كهارت الألماني — قد نشأ في القرن التالي لعصر ابن عربي، ودرس في جامعة باريس وهي الجامعة التي كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية في الحكمة والعلوم، وكهارت يقول كما يقول ابن عربي بأن الله هو الوجود الحق ولا موجود على الحقيقة سواه. وأن الحقيقة الإلهية تتجلى في جميع الأشياء، ولا سيما روح الإنسان التي سعادتها الكبرى في الاتصال بالله عن طريق الرياضة والمعرفة، والتسبيح والتحميد. وأن صلة الروح بالله، ألزم من صلة المادة بالصورة، والأجزاء بالكل. والأعضاء بالأجسام.

ومن هذه الفلسفة قبسات واضحة في مذهب «سبينوزا» الذي نشأ

في هولندا وأصله من يهود البرتغال الذين أكرهوا على الدين المسيحي ،
 فقد كان كلامه عن الذات والصفات ، وتجلي الخالق في مخلوقاته وتلقى الخلق
 نور المعرفة الصحيحة بالبصيرة والإلهام ، نسخة من فلسفة ابن عربي .

والفيلسوف المتصوف الأسباني — رايغوند لول — قد اقتبس معارفه
 عن أسماء الله تعالى وأثرها في الكون من كتاب ابن عربي « أسماء الله
 الحسنى » وكان رايغوند يحسن العربية وعاش بعد ابن عربي فانتحل الكثير
 من تراثه ، وراح يزود المكتبة الأوربية بالروائع التي تدل معانيها في وضوح
 وجلاء على صحة أبوة محيي الدين لها ، لا سيما وهذا اللون من العلوم لم تعرفه
 من قبل الديانة المسيحية .

ولسنا هنا نتصيد الدلالات على أثر محيي الدين في النهضة الأوربية
 الحديثة بشقيها الديني والأدبي ، فكتب التاريخ الأوربي عامة ، وكتب
 رجال الاستشراق خاصة ، تشهد بأن ابن عربي الفيلسوف الصوفي ، كما
 يسمونه . كان له أكبر الأثر في عقول النساك ورجال الإصلاح الديني
 والمتصوفة من فقهاء المسيحية الذين ظهوروا بعده ، بل إن مذهبه العالمي في
 المحبة الذي يمثلته قوله .

أدين بدين الحب أنني توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني
 قد اتخذته فقهاء المسيحية ، بل ورجال الإصلاح فيها لهم ، شعاراً ودثاراً .
 ولقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن أثر ابن عربي في الإصلاح الديني
 في اللاهوت المسيحي ، لا يقل عن أثر مارتن لوتر نفسه . أو على الأقل هو
 الذي مهد له الطريق ، وأثار الجادة بهتافه الحار ، للحرية الفكرية ، والحرية

العلمية في تناول المعرفة ، وبدعوته إلى الاجتهاد، وفتح بابه للناس كافة ، وعدم تقديس الآراء السابقة ، بل وعدم التقيد بقيودها ، مادامت قد صدرت من عقول بشرية ، لا من حقائق إلهية .

كما كان له أكبر الأثر في الأدباء الربانيين ، من أمثال دانتي وغيره ، حتى ليقول المستشرق « آسين » الأسباني « أن أوصاف الجنة والنار والعروج إلى السماء والأقباس الروحية والنشوة القلبية في الأدب الأوربي الحديث ، كلها تستمد أصولها الأولى من ابن عربي وفلسفته الكبرى ، التي نشرت أجنحتها الفضية قرونا على الأفق الغربي .

ذلك بعض ما يقال في أثر محي الدين في النهضة الأوربية . وذلك بعض ما يقوله أئمة القلم في أوربا عن محي الدين . وعن فلسفته الكبرى التي نشرت أجنحتها الفضية قرونا على الأفق الغربي .

الأفق الغربي ، الذي يأتي من ضفافه أحد المعجبين بيروقه اليوم . من المتعلمين من رجالنا . فينظر إلى محي الدين ويتسم ، ويقول . من محي الدين ؟

فيعيد من جديد قصة الناموسة التي تنفخ على الجبال ..

الشيخ الأكبر

التصوف ، هو قلب الاسلام الخافق بالشوق والمحبة . وهو أيضا فلسفة الإيمان ، التي ظفرت بالعلوم الكونية ، وآمنت في الإلهيات لاعتمادها على الدين والوحى .

وبالتالى فالتصوف الإسلامى ، هو صاحب العلم المحيط الشامل لجميع الحقائق . هو الفيلسوف العالى ، الذى جمع المعارف كافة . وتميز بإيمان ، يمشى فى مواكب الأنبياء ، وهدى الرسل ، ورضاء الله ومحبته . وإذا قلنا التصوف هو الفلسفة الكاملة . فإننا نقصد إلى هذه الكلمة قصدا ، ونتجه إليها عن عمد ، ونحن نعلم أن السفهاء من الناس سيقولون كما قال بعض أربابهم من رجال الاستشراق ، إن قيود الاسلام قد حجرت على العقول فى المجتمعات الإسلامية ، فباعدت بينها وبين الفكر والفلسفة وسيقولون أيضا ، كما قال بعض أربابهم من متعصبى أوروبا ، إن الأمة الإسلامية عامة ، والعربية خاصة لم تعرف التفكير الفلسفى ، والنهج العلمى ، ولن تعرفهما ، لتصورها الذاتى ، وحياتها الفاترة الجمادة ، على شواطئ الأوهام والخيالات .

لقد جالت العقول الاسلامية ، فى المعارف الكونية ، جولاتها الموفقة الفاتحة ، وتناولت فيما تناولت المسائل الفلسفية الكبرى على ضوء إيمانها

وكتابتها الرأى . كما جال المتصوفة بصفة خاصة فى آفاقها وسماواتها
ومعارضها .

وأما الفرق بينهم وبين فلاسفة اليونان ، أنهم لم ينظروا فى المسائل
الفلسفية لذاتها ، كموضوعات علم مستقل مرتبط بالأجزاء . بل اعتبروها مسائل
دينية منطوية تحت أجنحت رسالتهم الكبرى فعالجوها على هذا الضوء
وتناولوها على هذا الهدى .

وأذن فالفلسفة عندهم ، لم تجرد من الدين ولم تفصل عنه . ولم ترتب
مسائلها فى علوم مستقلة قائمة بذاتها خارجة عن دائرة الوحي والايمان ، ولهذا
لم يؤلف المتصوفة الاسلاميون كتباً فى المنطق والجدل لبيان أصولها وطرقها
ولم يتركوا دراسات فى المناهج العلمية التى تصعد بالاستقراء من الجزئى إلى
الكلى ، وتنزل بالقياس من الكلى إلى الجزئى . ولكنهم مع ذلك جادلوا
وتحاكوا إلى المنطق ، وأوضحوا الطرق ، ومهدوا السبل ، وقاسوا جرياً مع
فطرة العقل ، دون تقييد بحرفية القواعد ، ما دامت روح تلك القواعد ، قد
سلمت وعاشت ، وترعرعت تحت ظلالهم .

ولم يؤلف المتصوفة الاسلاميون . كتباً فى علم النفس والأخلاق ،
ولا فى تعريف الجسم والحركة والزمان والمكان ، على نحو المنهج اليونانى
والمنهج الأوروبى .

ولكنهم بلا ريب . قد تركوا مكاتب الاسلام عامرة زاخرة بأروع
الدراسات النفسية والخلقية ، وأنضج الآراء فى تعريف الأجسام والحركات ،
وخصائص الزمان والمكان .

فالذى يجرد الاسلام من الفلسفة ، هو الذى يتمسك بتشور الفلسفة —
أو وثنياتها . أما من ينشد الروح والجوهر والايمان ، فقد بلغ بهم التصوفة
الاسلاميون ، أعلى قمم التصعيد والتفوق .

ومحيي الدين ، هو المثل الكامل للصوفي الفيلسوف المسلم ، الذى أحاط
بمعارف عصره بل وسبق ذلك العصر ، إلى آفاق لا تزال الانسانية ، تجهد
قواها ، وتحشد مواهبها للوصول إليها .

كما اختص محيي الدين بفيض دافق من ينباع والالهامات القلبية ،
أو بلغة التصوف ، بالهبات والعطايا الربانية ، وهى موارد إلهية لا تنفذ
ولا تحد ، ولا تسابقها عزمات ، ولا تطاولها معارف ، وانما هى فيوضات
تنزل من لدنه تعالى ، على قلوب عباده ، والسنة محيية ، وأقلام من اصطفاهم
واجتباهم لحل أمانة العلم ، ورسالة المعرفة .

ولا يمكننا ، ونحن نؤرخ لعبقرية محيي الدين وفلسفته . أن نطبق عليه
ما اصطلحت عليه الأقلام من استنطاق الميئة ، وتقصى الدراسات التى تزود
بها ، والدوافع والكوامن النفسية إلى أحاطت به . وتفاعلت مع عواطفه
وأحاسيسه فكونته وصاغته .

لا يمكننا هذا . لأن محيي الدين ، عجبية من عجائب التصوف ، وصنعية من
صنائع الايمان . ولطيفة من لطائف التقوى ، وقسا من إقباس النور الذى
يشرق فى الأرواح المنطهرة العابدة .

إن محيي الدين ، لم تكونه عوامل المحبة الجنسية ، التى تكون الشعراء
والأدباء . ولم تصقله الشكوك والريب والقسوة ، التى تلهب الأذكىاء . ولم

تدفعه عوامل البيئة والزمان والمكان ، إلى الوثوب والاعتلاء .

وانما صاغته سيحات الروح ، وكونته الهامات القلب ، وأبرزته الجلووة والخلوة ، والحضرة والحجة . ورعته وحبته عناية الله . التي ترعى وتحبوا المؤمنين . وتعلم وتلقن العابدين الساجدين . الذين قعدوا على بابه الأسنى . مجردين حتى من أنفسهم في انتظار النفحات والمهبات . فدخلوا تحت ظلال الآية الكريمة « عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً » .

طريقته في التأليف

يقول محيي الدين

« فإن تأليفنا هذا وغيره ، لا يجري مجرى التأليف ولا يجري فيه نحن مجرى المؤلفين . فإن كل مؤلف إنما هو تحت اختياره ، وإن كان مجبوراً في اختياره . أو تحت العلم الذي تعلمه خاصة ، فيلقى ما يشاء ويمسك ما يشاء ، أو يلقى ما يعطيه العلم وتحكم عليه المسألة التي هو بضددها ، حتى يبرز حقيقتها ، ونحن في تأليفنا لسنا كذلك . إنما هي قلوب عاكفة على باب الحضرة الإلهية . مراقبة لما يفتح له الباب ، فقيرة خالية من كل علم ، لو سئلت في ذلك المقام عن شيء ، ما سمعت لفتقها إحساسها فهمها ببرز لها من وراء ذلك الستر أمر ما ، بادرت لامتناله وألقته على حسب ما حد لها في الأمر »

قلوب عاكفة على باب الحضرة الإلهية . مراقبة لما يفتح له الباب . هذا هو صفوة ما يقال في عبقرية أهل الله ، ومن هذا الباب كانت معارف محيي الدين . معارف متلاحقة متدفقة ، متمزجة متداخلة متشابكة ، أشبه بدائرة المعارف ، التي ليست لها أبواب ولا مناهج ، بل هي بحار زاخرات متلاطمة المعاني جبارة الأمواج .

يقول رجال الدنيا . إن العبقرية صبر طويل وكفاح مرير . أما رجال التصوف فالعبقرية عندهم سجود القلب الطويل ، في محراب النور والهدى . والمجاهدة المريرة الشاقة ، التي توصل إلى الباب الأسنى .

العبقرية العلمية عند رجال التصوف ، منحة وخلعة ، وهبة مستفادة من

صفاء الروح وطهارة القلب . ومراعاة الله مع الأنفاس ، فلا يصعد نفس ولا يهبط إلا بذكر الله وخشيته ، والشوق الحار المشبوب بحبته . وسجود القلب تحت ظلال رؤيته .

وسجود القلب عزم عظيم . لا يطيقه إلا الفحول من أهل الخطوة والفتوة . وملازمة الباب مجردا من كل شيء حتى من نفسه ، مجردا لربه قاصدا إليه ، فحينئذ تهبط الخلع والمنح ، وتترى الهبات والنفحات . وتنزل العلوم . وتتدفق في القلب ينابيع المعارف لا تحد ولا تحصر . « وأتقوا الله ويعلمكم الله » كتب محيي الدين ، إلى فخر الدين الرازي ، الإمام العلامة صاحب التفسير المعروف ، رسالة يبين له فيها نقص درجته في العلم عن أهل الله .

« أعلم يا أخي وقفنا الله وإياك ، أن الرجل لا يكمل عندنا في مقام العلم حتى يكون عنده عن الله عز وجل ، بلا واسطة من نقل أو شيخ ، فإن كان علمه مستفادا من نقل أو شيخ فما برح عن الأخذ من المحدثات ، وذلك معلول عند أهل الله عز وجل ، ومن قطع عمره في معرفة المحدثات وتفصيلها فاته حظه من ربه عز وجل ، لأن العلوم المتلفة بالمحدثات يفنى الرجل عمره فيها ولا يبلغ إلى حقيقةها ، ولو أنك يا أخي سلكت مسلك أهل الله عز وجل لأوصلك الله تعالى إلى حضرة شهوده ، فتأخذ عنه العلم ، وما أدراك ما هذا العلم » الذي من رجاله الخضر عليه السلام .

ذلك هو علم المتصوفة . وهذا هو المصدر الأعلى لمعارف محيي الدين . ومن يرد أن يعرف محيي الدين ، فليتمس له بابا إلى تلك المعارف ، ويومئذ يعرف محيي الدين . وما أدراك ما محيي الدين ، ثم ما أدراك ما محيي الدين .

مكانته من الفكرة والأسلوب

محبي الدين . هو المثل الأعلى للاستقراطية العقلية . كما هو المثل الكامل للأديب المثالي ، وإذا كان الشعراى ، يمثل معارفه بالنسبة إلى معارف المتصوفة يا كسير الذهب ، بالنسبة إلى الذهب . فإن أسلوبه البيانى كما يقول بعض رجال الاستشراق . يشبه عمل الفنان المدقق الذى يتخير الدرر الغالية ، بأكبر عناية ، وأقصى حساسية ، أكثر مما يشبه الثمار الأولى لنوبة من نوبات النشوة الروحية .

أسلوب محبي الدين ، أسلوب الفنان المدقق ، الذى يتخير جواهره بولائه . بعناية المتذوق الخبير ، وحساسية الفنان التقدير . فهو لا يشغلك بالألفاظ مع روعتها عن المعانى . ولا بالمعانى على سموها عن الألفاظ . بل لكل نصيبه ومكانه . فهو العالم الأديب ، والأديب العالم ، فى كل اجملة له ، معركة عقلية . وصورة بيانية . والقوة لديه ، قوة فكر وبيان . لا قوة زخرف وتهويل .

ولقد قسم علماء البلاغة تأثيرها إلى قسمين . فالتأثير فى العتول عمل لموهبة المعلمة المفسرة . والتأثير فى القلوب ، عمل الموهبة المشرقة الجاذبة . ولقد جمع محبي الدين بين الموهبتين . فهو لدى العتول المعلم المفسر الذى يعرض عليك ألواناً متتابعة من شتيت الصور والمعانى . على سنان قلم عبقرى ، يحمل ويفصل . وهو لدى القلوب العازف الماهر ، المترنم بالألحان والمواجيد ، الذى يهبط المعارف من خدورها فيزفها إليك ، بحلابة محلاة ، بالإشراق والنور .

ولحي الدين أكبر الأثر في لغة التصوف ، فلقد نقلها من لغة القلوب
إلى لغة العقول . ومزج بينهما ، فكان منهما معا . أسلوب محي الدين .
أسلوب محي الدين الذي تميز به وعرف عنه . وعاش به وله . والذي وثب
به وثبات عقلية ولغوية جبارة ، تضيفه إلى المبتكرين العالميين .

ثم تأتي بعد ذلك خصوصية لحي الدين ، لا يشاركه فيها سواه . وهي .
سره كما أنها مفتاحه . وذلك أن قارئ محي الدين ، يحس بعد قراءته بأنه
قد خلق خلقا جديدا وإنه اطلع على آفاق من الفكر والبيان لم يكن له بها
عهد . ثم يشعر بعد ذلك ، بحب غلاب قهار ، يربطه بمحي الدين ، ويمسكه
لديه ، ثم يرى إذ كان من أهل الأرض . في كل كلمة من كلام محي الدين
محرابا ، وبابا للسماء .

شخصيته

مقام محي الدين . بين رجال التصوف ، هو مقام السلطنة ، ولعل هذا
هذا المقام ، قد أشق من مكانته وشخصيته .

ولقد أجمع رجال التاريخ على أن محي الدين ، قد تميز بشخصية جبارة
غلبة ، لما جلال ورواء وبياء ، وسمت ووسامة ووفار . تخشع لديه الطغاة ،
ويرجف منه المتكبرون .

حتى إن خصومه ، كانوا إذا واجهوه ، خنعوا والتمسوا لديه عفواً .
ومنه تسامحاً . وأقبلوا يتمسحون بأطرافه ، ويتبركون بنجواه . ويرجون
مغفرة ورضا .

ولقد مر بنا ، أن محي الدين كان في مجالسه مع الملوك الناصح الموجه ،
الذي يقرع بكلمة الحق القوية أسماعهم ، فيسارعون إلى الاجابة والانابة
ورأينا ملك قونية يلقيه بالوالد . وملك حلب يخاطبه بالمولى . والملك
العاذل الأيوبي يلتبس منه أجازة بخطه ، تبيح له قراءة كتبه وروايتها .

ثم يحدثنا التاريخ ، إن ملك الروم سعى يوماً إليه ، ليزوره وينتفع بعلمه
فلما خرج من عنده ، خرج مصفر الوجه مرتعد الجوارح ، فسأله بعض رجاله
عن حاله . فقال . هذا رجل تدعز منه الأسود .

وسئل محي الدين عن سر ذلك الرعب الذي يأخذ بالملوك والأمراء
والسادة في مجالسه فقال . « لقد خدمت بمكة رجلاً صالحاً ، فدعا الله أن
يذل لي أعز خلقه »

محبي الدين الذي سعى اليه الملوك ، وذل له الأمراء والسادة ، صاحب السلطنة والشخصية الآخذة الزاحفة ، كان آية الآيات ، في الزهد والقناعة والتواضع ، لأنه مؤمن . والمؤمن يعرف أول ما يعرف ، قبر نفسه ، وحقيقة واجباته ، ولون رسالته .

هو العزيز القوي ، لدى الملوك والأمراء والسادة . لأنه يجب أن يقرع أسماعهم بكلمة الحق ، يجب أن ينتزع من مخالبتهم حقوق الضعفاء . ولا سبيل إلى ذلك ، إلا بالقوة والعزة .

كان محبي الدين آية التواضع للضعفاء . بل الخادم الساعي في ركاب الصالحين والأولياء . خدم في أشيلة امرأة عجوزا عابدة ، وخدم في مكة رجلا صالحا فقيراً ، وكان يسعى دائماً إلى أمثاله خادما ومعينا ، وهذا فرق ما بين عطاء المتصوفة ، وعطاء الدنيا .

ولعل من أسرار قوته الروحية العظمى ، التي هي أساس بناء الشخصية الكاملة . عزمه القوي . الذي تميز به ، عزمه الذي سلطه على نفسه ، فاختصها وسيرها وتولاها حتى في منامها .

يقول ابن شوكين عنه « كان محبي الدين يقول » ينبغي للعبد أن يستعمل همته في الحضور في مناماته ، بحيث يكون حاكما على خياله يصرفه بعقله نوماً ، كما كان يحكم على يقظته ، فإذا حصل للعبد هذا وضار خلقا له ، وجد ثمرة ذلك ، وانتفع به في كل شيء »

ولقد كان من ثمرات هذا العزم الجبار المساهمة في بناء هذه الشخصية الجبارة الهابة التي تحمكت في خيالها في يقظتها ومنامها .

رجل الأسرار

معارف محي الدين أمة قائمة بذاتها ، معارف شاملة ، محيطية بكل ما في هذا الكون من ألوان العلوم والمعارف .

ومحيي الدين ، مقتحم غواص ، يدفع بقلمه العبقري إلى النقطة الصغيرة التي تكاد لا ترى فيجول بقلمه فيها . فإذا بها تكبر وتتسع حتى تتحول إلى دائرة كبرى . تضم بين محيطها أقصى ما يتصور الخيال من ألوان وفتون وإذا تناول هذا الملبهم الفياض ، مسألة من المسائل ، عرض لها من وجهة العلم الظاهري ثم ينتقل إلى أسرارها في الباطن . فترى عجبا ؟ وسواء لديه أكانت أحاديثه في الفقه والتوحيد أم في السحر والهندسة ، فلكل علم ظاهره وباطنه ، وواضحة وسره ، وخيره وشره .

فإذا حدثك عن الطهارة في الفقه مثلا ، تلخص لك أقوال علماء الظاهر ثم انتقل إلى معارف الباطن حيث يقول « أعلم أن الطهارة في طريقنا طهارتان . طهارة غير معقولة المعنى . وهي الطهارة من الحدث ، والحدث نفسى للعبد ، فكيف يمكن أن يتطهر الشيء من حقيقته . فانه لو تطهر من من حقيقته ، انتفت عينه . ؟ وإذا انتفت عينه فمن يكون مكلنا بالعبادة ، ولهذا قلنا أن الطهارة من الحدث غير معقولة المعنى ، فصوره الطهارة من الحدث عندنا ، أن يكون الحق سمعك وبصرك في جميع عباداتك .

وإذا حدثك عن السحر ، وهو علم مرقوم في رق الكون . عرض عليك أقوال رجاله . ثم ولي بوجهه إلى مملكة الباطن . فإذا السحر هناك

مشتق من السحر . أى الوقت الذى بين الظلمة والنور ، ولهذا فهو باطل
وحق ، ومباح وحرام ، وهدى وضلال ، والفيصل فى الأمر ، ميزان الشرع
فكل ضرر محرم ، وكل نفع مشروع .

فاذا تهادن محي الدين مع العلم الظاهر . وأقبل على الاسرار اللدنية
وحدها فهذا هو الحراب والهيكى الذى لا يلجّه إلا أربابه . وما لآذاننا
طاقة بما يتلى فيه .

وإذا أردت قطرة من هذا البحر ، فمحي الدين كتاب مخطوط
بدار الكتب المصرية يسمى « بالشجرة النعمانية » وما أدراك ما الشجرة
النعمانية ، كتاب بين دفتيه أسرار وأسرار من بعضها حديثا عجبا عن
ملوك الإسلام من عصره إلى قيام الساعة ؟ والأحداث الكبرى التى تمر
بالأمة الإسلامية وغير هذا وذلك مما تضيق عنه معارفنا . وقد تضيق
عنه عقولنا .

ولقد خلف محي الدين ثروة من كتب الاسرار لم تطبع إلى يومنا ،
ثروة بددتها الأعاصير ، وذهبت بها غفلة العالم الإسلامى ، فضاع جانب
لا يعوض من تراث أكبر عباقرة رجال التصوف ، وأعظم كتاب الأسرار
فى المحيط المحمدى .

الشيخ الأكبر

محبي الدين اعترف له رجال التصوف وأئمنه منذ القرن السابع الهجري إلى يومنا بأنه الشيخ الأكبر، الذي لا يرق إلى معارج قلمه قلم .

فهو كاتب المتصوفة وامامهم، يقول عنه الشيرازي، « كان شيخ الطريقة، حالا وعلماء، وامام الحقيقة، حقيقة ورسمًا ، ومحبي رسوم المعارف معنى واسما إذا تغلغل فكر المرء في طرف من بحره ، غرقت فيه خواطره . عباب لا تدركه الدلاء ، وسحاب تنقاصر عنه الانواء ، كانت دعواته تحترق السبع الطباقي ، وتفترق بركانه فتملأ الآفاق .

وأما كتبه ومصنفاته ، فالبحور الزواجر ، التي لكثرتها وجواهرها ، لا يعرف لها أول ولا آخر ، ما وضع الواضعون مثلها ، وانما خص الله بمعرفة قدرها أهلها . ولا غرو فهو صاحب الولاية العظمى ، والصديقة الكبرى ، وإني أضفه ، وهو يقينا فوق ما وصفته » .

وابلغ كلم الشيرازي قوله — وإني أضفه وهو يقينا فوق ما وصفته — أجل . فجماع ما يقال في محبي الدين ، أنه لا يوصف إلا بالعجز عن وصفه ، فهو دائما ، وهو دائما أبدا فوق وصفه ونعته .

وبعد . فلعلنا قد وقفنا إلى أن نضع في يدك المنظار المكبر ، الذي وعدناك به في مقدمة هذا الكتاب . المنظار الذي يحلو ويوضح . ما يمكن أن يرى من فقه الشيخ الأكبر .

الشيخ الأكبر . الذي سيشتغل العالم الإسلامي ، بل عالم الفكر العالمي

٢٢
مادام في الدنيا رواد للفكر والبحث ، وما دام في العقول ، استشراف إلى
رؤية القمم العالية . وتطلع إلى الوقوف على ما صنع الايمان والالهام من
أعاجيب ، في دراسة أسرار الوجود .

وسواء لدينا ، أن يقول رجال الفكر ، أخطأ الشيخ الأكبر ، أو
أصاب ، فلن يستطيع رجل من رجال الفكر ، أن ينكر على شيخنا
الأكبر ، أنه قضى العمر كله ، في المناجاة والطاعة ، والتطهر والعبادة ، وجعل
من الكون مسجدا ، فلا محل لعمل لا يليق بقداسة المسجد ، واتخذ من
الوجود محرابا ، يرشد إلى الله ، ومعراجا يهتدى إلى آياته ، وجعل الحب
شرعة الحياة . وسبيلا إلى الله ، وطريقا سلطانيا ربانيا للعالم والآخرة ومن
أحسن قولاً ، ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً ، وقال إنني من المسلمين .

طه عبد الباقي سرور نعيم

فهرس

٣	أفق ونجم
١٢	مولده ونشأته
١٦	بين ابن رشد ومحيي الدين
٢٠	العلم النظري والعلم الدني
٢١	مكانة الشيخ في الطريق
٢٣	الخضر وشيوخه في الطريق
٢٨	المقامات والأحوال
٢٩	مقام النور ، مقام الوجد والوله
٣٠	مقام الفتح في العبارة
٣١	مقام القيومية
٣٣	مقام حلاوة الفتح
٣٤	مقام الفناء
٣٦	مقام السودية — أو الصديقية
٣٧	مقام القرية
٤١	شعة محمدية
٤٢	محيي الدين والكرامات
٤٤	بين الشطح والفتوة
٤٦	محيي الدين وملك المغرب
٥٤	إلى الأرض المقدسة
٥٦	في بيت الله الحرام
٥٩	المرأة في حياة ابن عربي

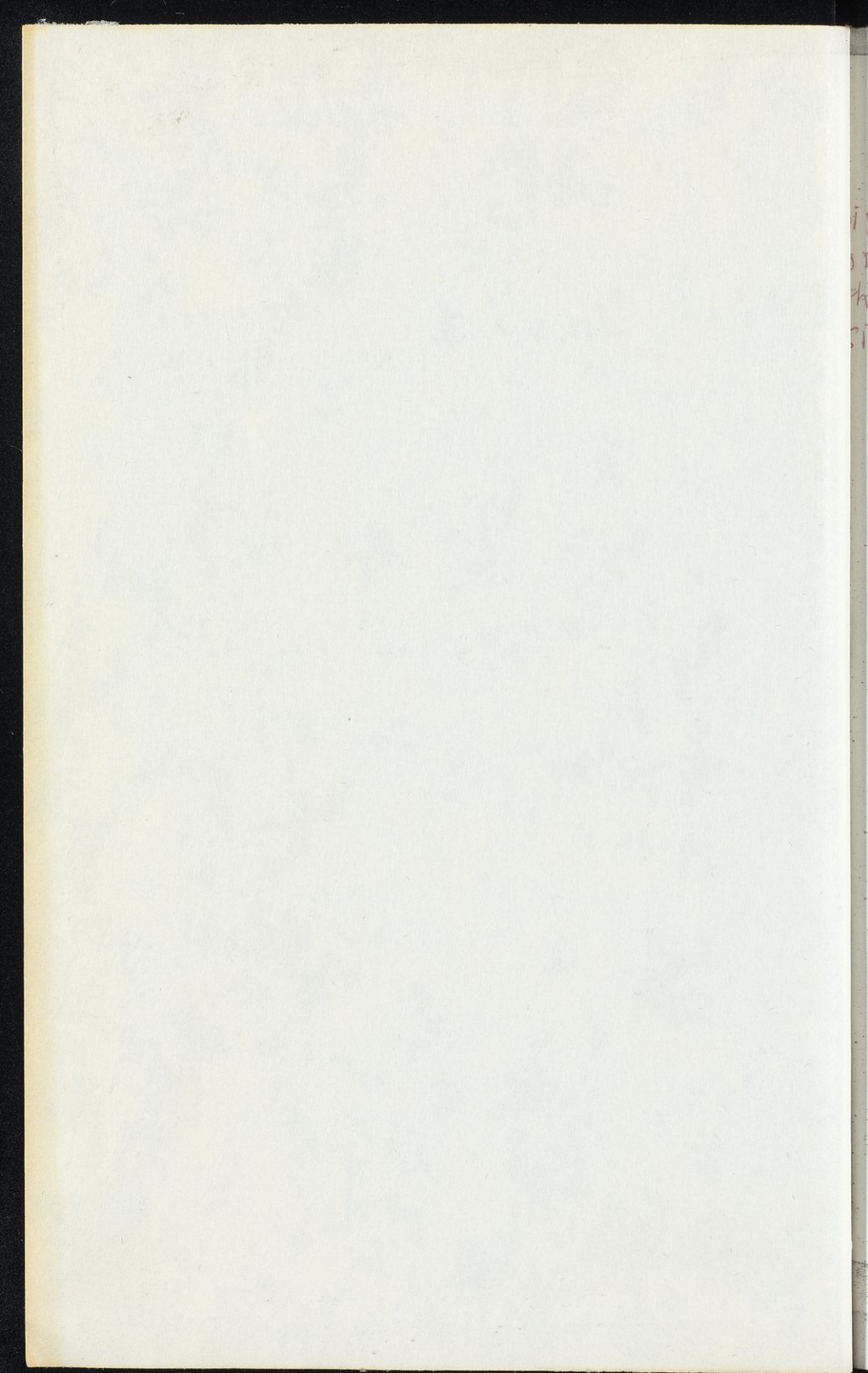
٦٥	صحيفة	السائح الإسلامي
٦٧		صلاته بالملوك
٧٢		المعراج الأخير
٧٣		النهج الصوفي
٧٧		العلم الدني
٨٢		مكانة محي الدين من العلم الدني
٨٦		أقسام العلوم ومراتبها ، علم العقل
٨٧		علم الأحوال ، علم الأسرار
٩٢		علم التجليات
٩٥		الطريق الأعظم
٩٨		محي الدين والفرق الإسلامية
٩٩		الجدل في الإسلام
١٠١		صفات الله تعالى
١٠٦		صفات الله عند العارفين
١٠٧		العقل لا يدرك الله
١١١		التضاء والقدر وأفعال العباد
١١٦		بين الفلسفة والتصوف
١٢٥		مملكة التصوف
١٢٨		الكون المحي
١٣٢		أقسام المتصوفة ، الأقطاب والأئمة والأبدال
١٣٦		اللامتية
١٣٩		رجال الليل

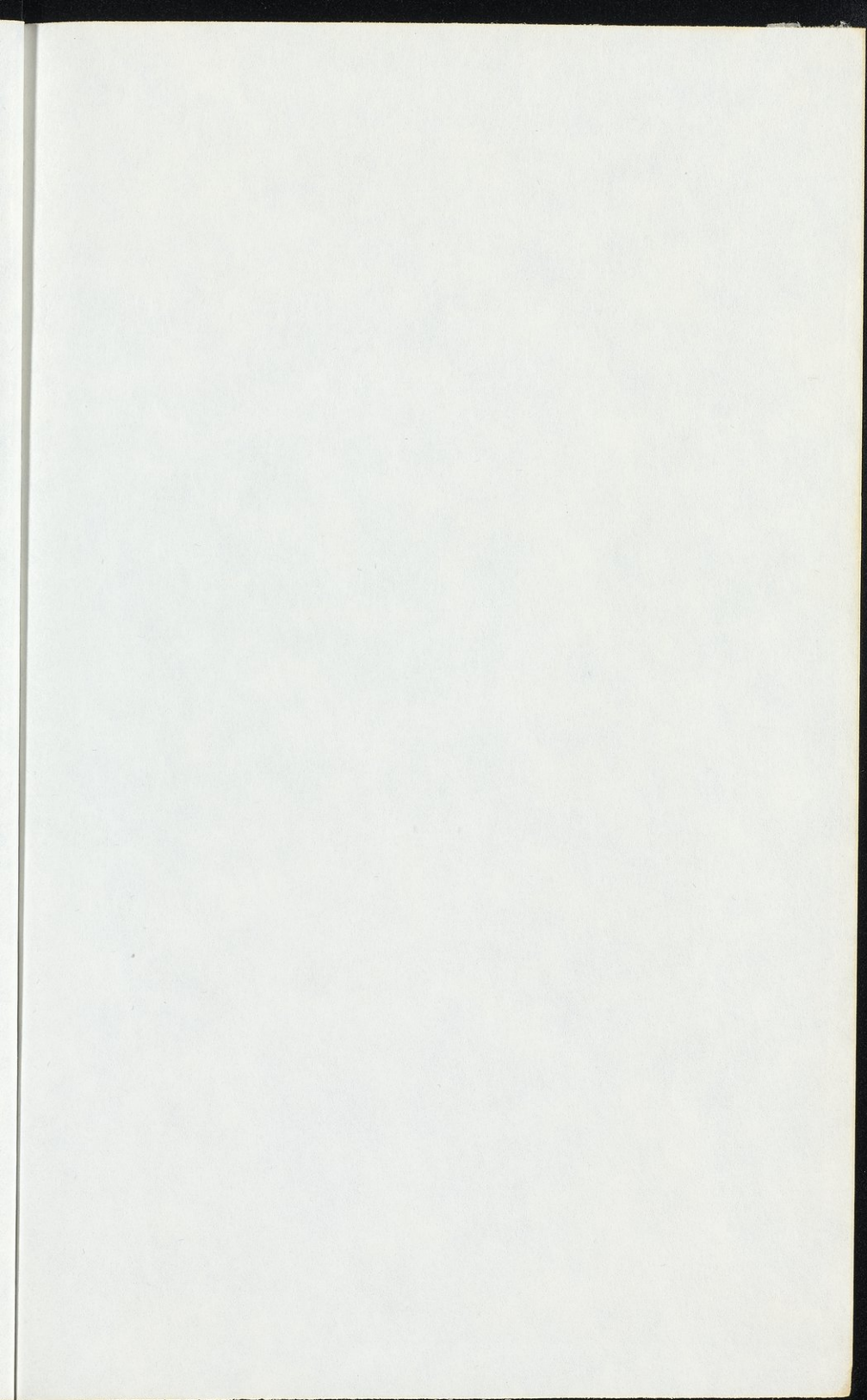
صفحة	
١٤١	أسرار الروح
١٤٥	الاذاعات الروحية
١٤٧	الأرواح بعد الموت
١٥١	محيي الدين والحب الإلهي
١٥٦	صفات المحبين
١٦٠	حب العارفين
١٦٢	الحب واتقاء الله
١٦٣	محيي الدين ووحدة الوجود
١٧٣	محيي الدين المفتري عليه
١٧٩	النبي والولي
١٨١	المتشابهات في كلام محيي الدين
١٨٤	المستشرقون ووحدة الوجود
١٨٧	نيكولسون ووحدة الوجود
١٩٠	الدكتور عفيفي ووحدة الوجود
١٩٤	ابن تيمية ووحدة الوجود
٢٠٠	عقيدة محيي الدين بقله
٢٠٥	أثر محيي الدين في النهضة الأوربية
٢١١	الشيخ الأكبر
٢١٥	طريقته في التأليف
٢١٧	مكانته من الفكرة والأسلوب
٢١٩	شخصيته
٢٢١	رجل الأسرار

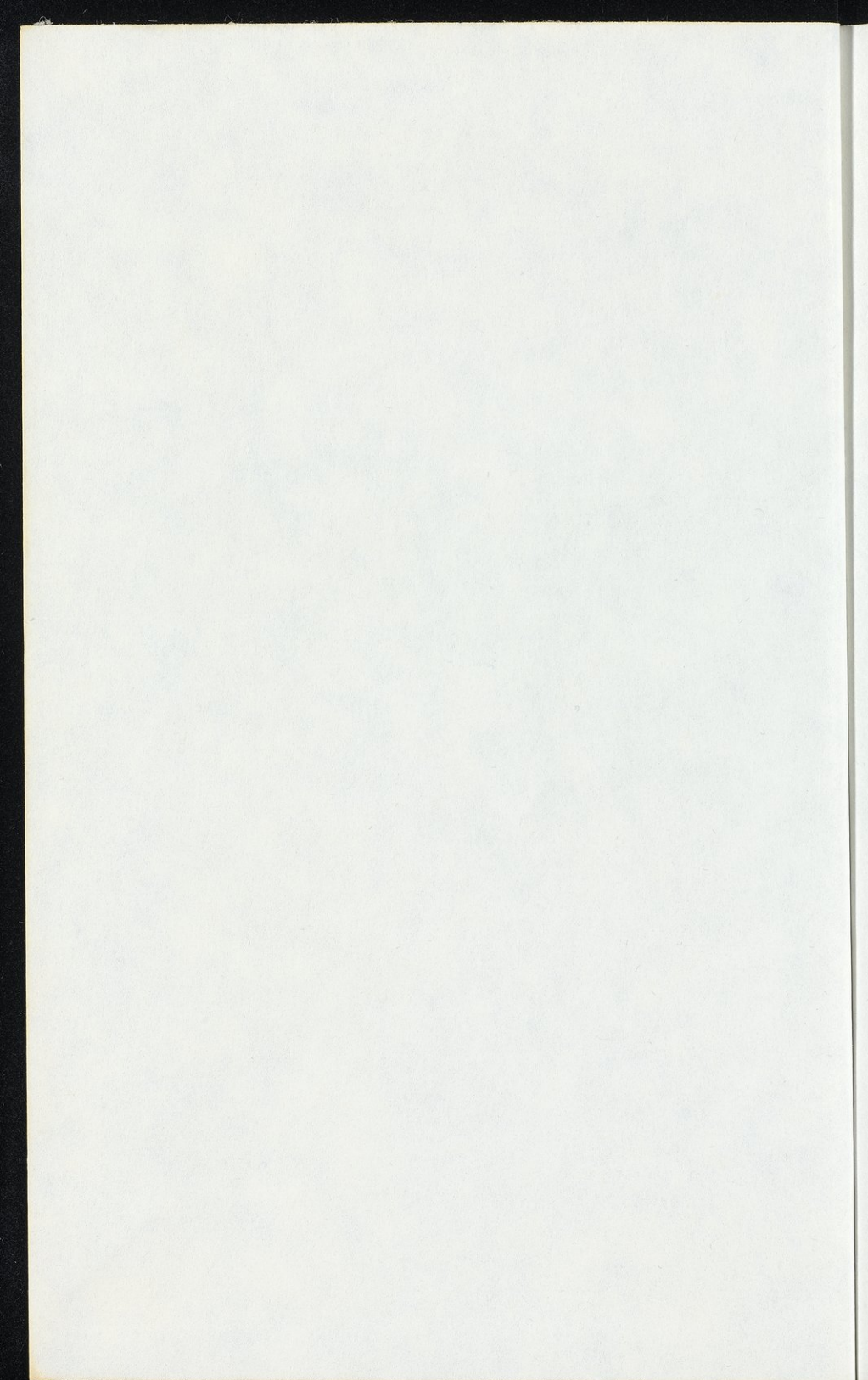
بعض مصادر الكتاب

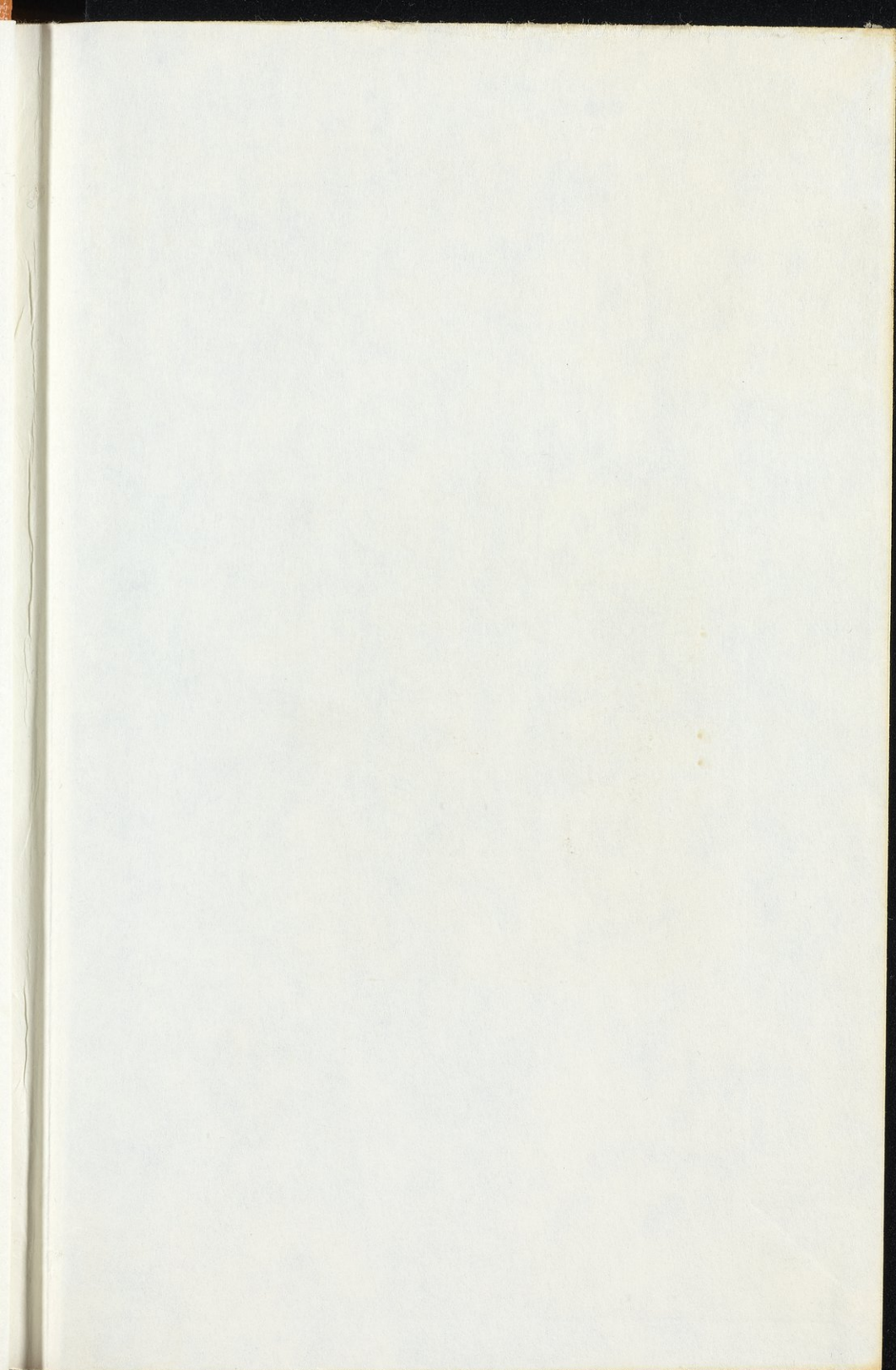
فصل المقال	لابن رشد	الفتوحات المكية	لابن عربي
تفسير الطبري	للمطبري	فصوص الحكم	» »
الفرق بين الفرق	للبيضاوي	ترجمان الأشواق	» »
الرسالة التفسيرية	للقشيري	عنقاء مغرب	» »
مفتاح السعادة	لطاش كبرى زاده	مسامرات الأبرار	» »
حجة الله البالغة	للهلوي	إحياء علوم الدين	للغزالي
دائرة المعارف الإسلامية		منهاج العارفين	»
المقدمة والشرية في الإسلام	لجولد تسبير	جواهر القرآن	»
في التصوف الإسلامي لنيكولسون	ترجمة عفيق	ميزان العمل	»
الطواسين	لناسيون	اللمع	للطوسي
ظلال الكنيسة	لبلاسكوا أبانيز	حلية الأولياء	لأبي نعيم
تاريخ المسلمين باسبانيا	لدوزي	عوارف المعارف	للسهروردي
مجموعة تراث الإسلام		العبودية	لابن تيمية
اليواقيت والجواهر	لشعراني	الصراط المستقيم	»
الشفالا	لابن سينا	خمس رسائل	لابن تيمية
كشف الظنون	لحاجي خليفة	منهاج السنة	»
الفصل في الملل والنحل	لابن حزم	الروح ، دار المهجرتين	لابن القيم
البداية والنهاية	لابن كثير	تليس إبليس	لابن الجوزي
الإسلام على مفترق الطرق	لمحمد أسد	شرح ديوان ابن الفارض	
أثر العرب في الحضارة الأوروبية	للعقاد	الإنسان الكامل	للجيلي

ind
on
this
side











*Restored through
a grant from*

T.S. Matthews '22
in memory of
Juliana Cuyler Matthews

